أولدس هكسلي

العالم الطريف

المكتبة العربية

تعريب محمود محمود



دار الكاتب المصري

PENGUIN BOOKS

Aldous Huxley

BRAVE NEW WORLD

A Novel



COMPLETE 2/6 UNABRIDGED

الطبعة الأولى . . . مايو ١٩٤٧

العنوان الأصلى للكتاب
بالانجليزية

ALDOUS HUXLEY

BRAVE NEW WORLD

مقدمة المعرب

مؤلف هذه القصة أولدس ليونارد هكسلى Aldous Leonard Huxley ولد فى انجلترا عام ١٨٩٤ ، ولا يزال حتى اليوم على قيد الحياة لا ينى عن الكتابة والتأليف ولا يفتر . وقد بدأ حياته الأدبية ، شاعراً محتذياً فى ذلك حذو أكثر الكتاب المعاصرين . ونشر شعره أول الأمر فى مجلة هويلز *Wheels* ثم جمعه فى ديوان عنوانه « العجلة المحترقة » *The Burning Wheel* نشره عام ١٩١٦ . وفى هذه السنة عينها اشترك مع غيره من الأدباء فى جمع ديوان « شعر أكسفورد » *Oxford Poetry* . وقد بقى شاعراً طوال حياته ، مخالفاً بذلك الكثيرين من أدباء عصره ، الذين انحرفوا من الشعر إلى النثر . وهو الآن شاعر ثائر على العالم الذى يقوم على الأسس العلمية ، كما أنه ثائر على ازدياد نفوذ العلم فى الحياة . وهو فى هذه القصة التى نقدمها إلى قراء العربية يتخيل أن الانسان سوف يتناسل فى المستقبل لا عن طريق الحب والتقاء الرجل بالمرأة ، ولكن عن طريق العلم ، وتكوين الأطفال بطريقة علمية داخل القوارير . وهكذا يصور لنا هكسلى العلم فى صورة تشمئز منها النفوس وتقشعر الأبدان . ولعل هذا التطرف فى الخيال هو الذى جذب إلى هكسلى كثيراً من القراء .

وهو حفيد توماس هنرى هكسلى العالم الشهير الذى تلقى عليه العلم هـ . ج . ولز ، وبين الحفيد وجده شبه كبير فى الصورة والقسمات .

وينحدر هكسلى من ناحية أمه من أسرة توماس أرنولد ناظر مدرسة رجبى الشهير . ومن بين أقربائه من كان أستاذاً ، ومن كان عالماً ، أو شاعراً ، أو روائياً . فلو تصورنا هذه المجموعة من الرجال الممتازين حول فراش مولده عام ١٨٩٤ أدركنا ما فى دمائه من مواهب . وقد استطاع بقلمه وذكائه أن يرتفع إلى سماء الشهرة .

وهو رجل طويل القامة نحيل القوام ، حتى أن أطفال هامستد Hampstead كانوا يتجمعون حوله فى شبابه الباكر ويهزأون به . غير أن طول قامته يخيل للناظر إليه أنه يعيش فى عالم غير عالمنا ، وأنه شامخ بعظمته . وما أبعد هذا عن الصواب . فإن هكسلى يتحدث إلى كل من يلقاه فى سهولة وتواضع . وهو رجل شديد المرح . لا يتصف بالتزمت . وهو يستعمل فى أحاديثه كثيراً من غريب اللفظ ، لا لأنه يتكلف فى الحديث ، ولكن لأن الرجل غريب فى تفكيره ، وهو بحاجة إلى هذه الألفاظ يعبر بها عما يختلج فى نفسه . وهو مولع بلقاء الشواذ من الناس ، ومشاهدة الشاذ من المناظر ، لأن به ميلا نحو الشذوذ .

وقد قاسى كثيراً وهو فى طفولته من ضعف بصره ، الذى كاد أن يفقده ويعيش ضريراً أعمى البصر . وقضى أياماً كثيرة وحده فى غرفة مظلمة لا يستطيع القراءة ، ولا تقع عيناه على شئ ، فانقلب إلى دخيلة نفسه يفكر فيها ويتأمل ، وكان لهذه الفترة أثرها الكبير فى كل ما كتب فيما بعد . وزال الخطر ، واسترد الكاتب بصره ، ولكنه لا يزال ضعيف النظر . وتعلم فى أكسفورد . وفيها نشر بعض قصائده كما قدمت . وبعد ما أتم دراسته فى الجامعة اشتغل بالصحافة ، ونشر عدة مقالات

جمعها فى كتابه « على الهامش » ***On the Margin*** ثم جمع بعضاً من قصصه فى كتاب سماه « السجن » ***Limbo*** . وهو فاتحة عهد جديد فى حياته الأدبية .

وبعد « السجن » مارس كتابه الرواية الطويلة ، مستوحياً فيها الكاتب توماس بيكوك **Thomas Peacock** المعروف بسعة الاطلاع وبروح التهكم . وقد أخذ هكسلى عنه منهجه فى الرواية . فلم يكن فى يوم من الأيام روائياً بالمعنى الصحيح . إنما هو رجل واسع الاطلاع متهكم من الناس . وله قدرة عظيمة على القصة القصيرة . ولكنه حينما يحاول القصة الطويلة يتخذ من خياله الروائى وسيلة لبث آرائه .

وهو كاتب متنوع المواهب متنوع الموضوعات . يقول عنه أخوه جوليان **Julian** إنه الرجل الوحيد الذى يحمل معه دائرة المعارف البريطانية حينما يقوم برحلة طويلة أو يطوف حول العالم . ولكنه — برغم اطلاعه الواسع — لا يقتصر عند حد النظر ، بل يتعداه إلى العمل . يستمتع بالفكر كما يستمتع بالحس . فهو كثير الادمان فى القراءة ، ولكنه رجل اجتماعى حى . وقل من الناس من يجمع مثله بين هاتين الصفتين .

وفى مجموعة قصصه التى جمعها تحت عنوان « السجن » وفى روايته « الكروم الأصفر » ***Crome Yellow*** تتبيّن قدرته العظيمة على السخرية من المتكبرين والأدعياء . ورواياته مليئة بالصور الإنسانية التى تتميز بالتهكم المرح ، وقد خص بسخريته أبناء الطبقة الراقية ، فأثار على نفسه سخطهم . ولكنه لم يعبأ بهم ولم يكف عن الضحك منهم ، وفى روايته « الكروم الأصفر » يعلن تلك المشكلة الكبرى التى حاول

أن يحلها فى كل ما كتب . فقد جاءت فى هذه الرواية العبارة الآتية :

« يدخل الرجل هذه الدنيا ومعه آراء مجهزة عن كل شئ ، وله فلسفة يحاول أن يُخضع لها الحياة . فى حين أنه كان من الواجب أن يحيا المرء أولا ، ثم يحاول بعد ذلك أن يلائم بين فلسفته وبين الحياة كما عرفها . إن الحياة والحقائق والأشياء معقدة تعقيداً شديداً ، مع أن الآراء — مهما تعسّرت — تخدعنا ببساطتها . كل شئ غامض مضطرب فى عالم الحياة . وكل شئ واضح فى عالم الآراء . فهل من العجب بعد هذا أن يكون الرجل منا بائساً فى حياته تعساً ؟ »

ويتبين لنا من هذا أن هكسلى لا يحب أن يتشبث بالمبادئ والأصول وقواعد العلم ، وإنما يقيم وزناً كبيراً للمعارف العملية وتجارب الحياة . كان هكسلى من رجال الفكر ، وهو يفخر بذلك ، ولكنه — برغم هذا — كان قادراً ، بل ومتحمساً ، على أن يستفيد من الخبرة والتجربة .

وصل إلى لندن بعدما أتم دراسته الجامعية ورأسه مفعم بالنظريات. ثم أحس بشئ من القلق ، ولم يطمئن إلى نظرياته كل الاطمئنان ، وأدرك أنها لا تعالج مشاكل الحياة الكبرى . فتمم الرأى بالخبرة ، والعلم بالتجربة . أدرك أن حجرة المعلم لها جمال البساطة ، ولكن بالأرض والسماء كنوزاً غنية من المعارف لا تخضع لأى نظام فلسفى ، ولا يحلم بها رجال الفكر . أدرك هكسلى بعد قدومه إلى لندن أن آراءه لا تقنعه كل الاقناع ، واشتغل بالصحافة ، ورأى عن كثب سلوك الرجال والنساء ، وكيف تسير الأمور ، فتعلم ألوف الأشياء التى لم يتطرق إليها منهج الجامعة. فجمع هكسلى بين الثقافة النظرية والخبرة العملية .

وهكسلى من أبناء الطبقة المتوسطة ، لا هو بالغنى الذى يتوفر له الفراغ ، ولا بالمعدم الذى يشغل وقته كله بكسب القوت . وقد تأثر بهذا الوضع الاجتماعى فى أدبه ، فسخر من أبناء الطبقة الرفيعة ، كما عبر عن تقززه واشمئزازه من الفقر المدقع ، وإن كان يعطف على الفقراء . وانتهى هكسلى إلى شئ من اليأس ، لا يرى نفعاً فى أى شئ .

ثم ملّ النقد والسخرية ، وانصرف إلى التفكير فى مستقبل العلم والعلماء ، فكتب من بين ما كتب روايته هذه التى أقدمها إلى قراء العربية « العالم الطريف » *Brave New World* ، وفيها يعبر عن خوفه من سيطرة العلم على حياة الناس . يصور فى هذا الكتاب مدينة العلماء الفاضلة بكل مافيها من مساوئ . وهو يرى أن العالم الجديد — عالم العقاقير والآلات — تنتفى منه العاطفة والشعر والجمال . فى هذا العالم الجديد كل شئ آلى ، وكل شئ مرسوم ، أو محفوظ فى قارورة . والصفة الإنسانية تكاد تنعدم . ولعل هكسلى من بين الكتاب الأحياء جميعاً الكاتب الوحيد الذى يستطيع أن يصور نتائج العلم بجرأة ووضوح ، وهو فى هذا الكتاب عالم وشاعر ، يرسم لنا صورة مدهشة يتقزز منها القارئ كما تقزز منها الكاتب .

فى هذا الكتاب يتخيل هكسلى أن العلم سوف يصل بنا إلى حد الاستغناء عن الزواج وتكوين الأجنة فى القوارير بطريقة علمية بدلا من تكوينها فى الأرحام . والأطفال — بحكم تركيبهم الكيمائى — طبقات خمس : ا ، ب ، حـ ، ء ، هـ . وكل طبقة تُعد إعداداً خاصاً يلائم تكوينها الجثمانى واستعدادها العقلى ، وعليها أن تؤدى فى الحياة عملا معيناً لا تغيره ولا تحيد عنه . وبين أبناء الطبقة الواحدة تشابه كبير

فى الخَلْق والخُلُق ، حتى إن الفرد تكاد تنعدم شخصيته انعداماً باتاً . العالم الجديد ينكر الفردية والاختلاف الشخصى والتنقل من حال إلى حال . وشعاره الذى يطالعك به الكاتب فى الفصل الأول من الكتاب هو « الجماعة ، والتشابه ، والاستقرار » . والعالم الجديد تهمه السعادة أكثر مما تهمه المعرفة . وهى سعادة آلية محضة لا توجهها الميول الشخصية وإنما تُفرض على النفوس فرضاً .

إذا أردت شيئاً فى العالم الجديد فانك لا تفكر فيه ولا تسعى إليه ، وإنما يكفيك أن تضغط على زر أو تدير مقبضاً — كما يقول هكسلى — ليكون لك ما تريد . ولاشك أن هذه الحياة — رغم يسرها الشديد — تدعو إلى الملل ، كما تؤدى إلى إهمال الفنون الرفيعة ، والشعور الدينى ، والروح العلمية الصحيحة التى تهتم باكتشاف أسرار الطبيعة أكثر مما تهتم بإسعاد الإنسان وراحته .

كل هذه الآراء يبثها هكسلى فى قصة « العالم الطريف » . وهى ليست قصة بالمعنى المألوف ، فهى تنعدم فيها العقدة أو تكاد ، ولا تأبه بتحليل الشخصيات . وإنما هى قصة أساسها علمى ، تهتم بشرح الآراء وتحليل الأفكار ، وبنقد الحضارة الإنسانية من أساسها ، وكثيراً ما يرسل الكاتب فيها نفسه على سجيتها ، لا يتقيد بترتيب معين أو منطق خاص . يدون الأفكار وفقاً لتواردها فى ذهنه ، فيجمع بين المتناقضات ، ويؤلف بين القريب والبعيد ، والعلوى والسفلى فى أسطر قلائل . ويؤدى به هذا أحياناً إلى شئ من الغموض .

ونقدى لهذا الكتاب — بل ونقدى لأكثر ما كتب هكسلى — أنه سلبى ، أى أن الكاتب يسخر ويتقزز دون أن يقدم لنا جديداً . فهو يهدم ولا يبنى . إذا ذهب إلى السينما شاهد قصصاً يقشعر لها

بدنه ، والجمهور المحتشد فى دار السينما فى عينيه قذر بليد فى جسمه وعقله . آراؤهم سخيفة ، وهم مخدوعون فى أنفسهم أكبر خداع . وإن قرأ الكتب ألفاها سخيفة ومليئة بالآراء الوضيعة . وإن رحل إلى بلد جديد ألفى سكانه أغبياء بلهاء ، لا يختلفون عن أولئك الذين خلفهم وراءه فى أرض الوطن . وإن بحث فى السياسة وجدها فاسدة ، وفى الأخلاق ألفاها دنسة ، وفى الروحية لم يجدها سوى مجرد « انتقال أفكار » telepathy ، وفى مملكة الحيوان رآها تأكل وتتناسل وتتكاثر بغير فهم أو إدراك . وهكذا الأمر فيما يتعلق بالمدينة الفاضلة العلمية ، فهى ليست إلا خيال فئة من العلماء تمتلىء رؤوسهم بالتفكير المادى ، وتخلو قلوبهم من شعلة الروح .

ولا يذكر لنا هكسلى فى أكثر ما كتب ما مثله الأعلى الذى يرمى اليه . وهو يفعل ذلك إلى درجة ما فى كتابه هذا « العالم الطريف » فهو هنا ينادى بالعودة إلى البساطة القديمة ، وإلى الأمومة الصحيحة ، إلى الأطفال ترعاهم أمهاتهم ، وإلى الريف الذى لم يلوث بالعلم والمادة . ولم يتعرض هكسلى لبحث المثل العليا ، وإصلاح عيوب المجتمع بصورة جدية إلا فى كتابه « الوسائل والغايات » الذى سبق لى أن نقلته إلى اللغة العربية ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر . فى هذا الكتاب عرض ونقد وإصلاح لوسائل الحكم والادارة الحديثة والحروب ، وفكرة المساواة ، والتعليم والدين والمعتقدات والأخلاق . وغير ذلك من الموضوعات التى تهم جمهور القراء المثقفين .

ويتعجب هكسلى لكمية الجهل فى العالم ، ولضعف النظرة التركيبية عند المفكرين والباحثين . وهو يريد أن يعرف كل شئ ، ويعتقد أنه لا يستطيع أن يصل إلى قرار فى شأن من شئون الحياة إلا

إن أدرك كل شئ . ولذا تراه لا ينى عن الدرس والتحصيل . ويميل هكسلى إلى إخضاع المظاهر المختلفة إلى قاعدة واحدة شاملة ، وقد يستطيع فى مقتبل العمر أن يقود العالم إلى الخير والسعادة .

وإنى لأرجو أن أكون قد وفقت فى تعريب هذا الكتاب ، وأتمنى أن ينتفع الناس بآراء الكاتب ونظرياته ، والله ولى التوفيق .

محمود محمود

إن المدائن الفاضلة تبدو اليوم أدنى إلى التحقيق مما كنا نعتقد قديماً . حتى أنه ليؤلمنا الآن أن نواجه هذا السؤال : كيف نستطيع أن نحول دون تحقيق هذه المدائن الفاضلة ؟... إن المدائن الفاضلة ممكنة التحقيق ، والحياة تسير نحوها . وربما كنا فى بداية عصر جديد ، عصر يحلم فيه المفكرون وأبناء الطبقة المثقفة بالوسائل التى يتجنبون بها المدائن الفاضلة ، والتى تعيد إليهم مجتمعاً لا يتسم بصفاتها ، مجتمعاً أقل «كمالا» ولكنه أكثر حرية .

نقولا برديف

الفصل الأول

البناء منخفض متين ، رمادى اللون ، يتكون من أربعة وثلاثين طابقاً فحسب . وقد كتبت على مدخله الرئيسى هذه العبارة « مركز لندن للتفريخ والتكييف » . كما كتب على إحدى اللوحات شعار الحكومة العالمية وهو « الجماعة ، والتشابه ، والاستقرار » .

وتواجه الحجرة الفسيحة فى الطابق السفلى ناحية الشمال . و برغم الصيف القائظ خلف الألواح الزجاجية ، و برغم الحرارة الاستوائية داخل الحجرة نفسها ، كنت ترى شعاعاً من الضوء بارداً ، قوياً دقيقاً ، يتألق خلال النوافذ وكأنه يتجه فى لهفة صوب إنسان أشبه ما يكون بالتمثال الخشبى المدثر باللباس ، أو صوب رجل عالم شحب لونه واقشعر بدنه . ولكنه لا يسطع إلا على الزجاج والنيكل وخزف المعادن الذى لا تكاد يتميز بلون من الألوان . وكل ما بالمكن ينم عن مظاهر الشتاء . أما العمال فيرتدون ثياباً بيضاء ، ويغطون أيديهم بقفازات من المطاط لونها شاحب باهت . والضوء بارد لا حياة فيه وكأنه شبح من الأشباح . وهو لا يستمد مادة حيوية كثيفة من نوع ما إلا إن نظرت إليه خلال مواسير المناظير المكبرة ، فتراه يقع على الأنابيب الصقيلة كأنه الزُّبد ، طبقة تعلوها طبقة شديدة الحلاوة . ثم يرتد الضوء فوق مناضد العمل .

وفتح المدير الباب قائلا : هذه هى حجرة التلقيح .

وعندما دخل الغرفة مدير التفريخ والتكييف كان بها ثلثمائة ملقح منكبين على آلاتهم ومستغرقين فى صمت تكاد تنقطع فيه الأنفاس ، ومنهمكين فى عملهم أشد الانهماك ، عقولهم شاردة ، يناجون أنفسهم وهم يغنون أو يصفرون . وسارت فى إثر المدير جماعة من الطلبة الذين وصلوا حديثاً ، وهم شباب أحداث من ذوى البشرة الحمراء الملساء ، ترتعد فرائصهم بل ويحسون بالوضاعة . وكل منهم يحمل كراسة يدون فيها على عجل — وهو قانط — كل ما يتفوه به الرجل العظيم . يأخذون عنه مباشرة ، وتلك ميزة نادرة . وكان مدير التفريخ والتكييف هذا لمنطقة مركز لندن يهتم أشد الاهتمام دائماً بمرافقة طلبته الجدد خلال الأقسام المختلفة .

«وذلك لكى يعطيهم فكرة عامة» كما يقول وهو يشرح لهم . إذ كان لا بد لهم — بطبيعة الحال — من فكرة عامة من نوع ما ، إن كانوا يريدون أن يؤدوا عملهم بذكاء . ولتكن تلك الفكرة العامة يسيرة ما أمكن ذلك ، إن كانوا يريدون أن يكونوا فى المجتمع أعضاء طيبين سعداء . لأن التفصيل — كما يعلم كل امرئ — يؤدى إلى الفضيلة والسعادة ، فى حين أن التعميم شر عقلى لا بد منه . فأساس المجتمع يتألف من النشارين وجامعى الطوابع ولا يتألف من الفلاسفة .

ثم يقول المدير وهو يبتسم لهم بابتهاج لايخلو من شىء من التهديد : غداً تستقرون فى العمل الجدى . ولن يتسع لكم الوقت لدراسة النظريات . أما الآن . . .

وكانت تلك فرصة طيبة لهم . يدونون فى مذكراتهم رأساً من فم الرجل ويسرعون فى الكتابة كأن بهم مسا من جنون .

وتقدم المدير فى الغرفة ، وهو رجل طويل نحيل ، غير أنه معتدل

القامة ، له ذقن طويلة وأسنان كبيرة بارزة ، إذا كف عن الحديث أمكنه أن يغطيها بشفتيه الممتلئتين المقوستين فى تورد . ومن العسير أن تقول إن كان شيخاً أو شاباً ، وإن كان فى الثلاثين أو الخمسين أو الخامسة والخمسين . ولكنك على أية حال لا تشعر بضرورة التساؤل عن ذلك . ففى سنة الاستقرار هذه — عام ٦٣٢ ف[1] لا يطرأ للمرء أن يسأل عن ذلك .

قال المدير : « سأبدأ الموضوع من أوله » وسجل الطلبة المتحمسون هذه العبارة فى مذكراتهم . ثم لوح بيده قائلا : «هذه هى الحاضنات» ثم فتح باباً معزولا وأشار إلى رفوف يعلو بعضها بعضاً مليئة بأنابيب الاختبار المرقومة ، ثم أخذ يشرح قائلا : « هذه هى البويضات التى حصلنا عليها هذا الأسبوع ، حفظناها فى درجة حرارة الدم . » ثم فتح باباً آخر وقال : « فى حين أن جاميط[2] الذكور لا بد أن يحفظ فى حرارة درجتها خمس وثلاثون بدلا من سبع وثلاثين . إن درجة حرارة الدم الكاملة تسبب العقم » إن الكباش إذا أحيطت بدرجة حرارة الجسم الانسانى لا تنسل الحملان .

ولبث المدير متكئاً على الحاضنات ثم شرع يعطى للطلبة وصفاً موجزاً لطريقة التلقيح الحديثة ، وأقلامهم تنطلق على الصفحات بخط غير مقروء . وتحدث بطبيعة الحال أول الأمر عنها من الناحية الجراحية قائلا : «إن العملية الجراحية تُجرى طوعاً لمصلحة الجماعة ، ولست بحاجة أن أذكر لكم أنها تأتى بمكافأة تبلغ راتب ستة شهور . » ثم واصل

(١) « ف » رمز لفورد ، وفورد هو الاله الأعظم فى هذ العالم الجديد. والكلمة تحريف لكلمة « لورد » Lord ومعناها « الرب » .

(٢) الجاميط فى علم الحياة جسم بروتوبلازمى يختلط بآخر للتناسل .

الحديث بشىء من التفصيل عن الطريقة الفنية لحفظ المبيض المستأصل حياً بحيث ينمو نمواً سريعاً . ثم انتقل إلى الكلام عن درجة الحرارة الملائمة ، وعن الملوحة واللزوجة . ثم أشار إلى السائل الذى تحفظ فيه البيضات المنفصلة الناضجة . ثم سار بطلبته إلى مناضد العمل ، وأراهم فعلا كيف يسحب هذا السائل من أنابيب الاختبار ، وكيف يسكب قطرة قطرة فوق الألواح الزجاجية للمناظير المكبرة ، تلك الألواح التى أدفئت لذلك خصيصاً ، وكيف كان البيض الذى يحتويه السائل يفحص ويستبعد منه ما ليس طبيعياً ، ثم يعد وينقل إلى وعاء ذى مسام . وكيف يغمر هذا الوعاء فى حساء دفىء يحتوى على حيوانات منوية تسبح بغير قيد وتتجمع — كما يؤكد المدير — بنسبة لا تقل عن مائة ألف فى كل سنتيمتر مكعب (وهنا أخذ المدير الطلبة لمشاهدة العملية) ، وكيف يرفع الوعاء عن السائل بعد عشر دقائق ويعاد فحص محتوياته ، وكيف تغمس فى السائل ثانية — بل وثالثة إذا لزم الأمر — كل بيضة بقيت بغير تلقيح ، وكيف تعاد البويضات الملقحة إلى الحاضنات ، حيث يبقى هناك المرقوم منها بالألف أو الباء حتى توضع نهائياً فى القوارير . أما المرقوم بالجيم أو الدال أو الهاء فتخرج ثانية بعد ست وثلاثين ساعة فقط لتجرى عليها عملية بوكانوفسكى .

وكرر المدير عبارة « عملية بوكانوفسكى » ووضع الطلبة خطوطاً تحت هذه الكلمات فى دفاترهم الصغيرة .

إذا تطورت البيضة الواحدة إلى جنين واحد والجنين إلى مراهق كان ذلك أمراً طبيعياً . أما البيضة التى تجرى عليها عملية بوكانوفسكى فانها تتبرعم وتتكاثر وتنقسم . ويبلغ عدد البراعم التى تخرج من البيضة

الواحدة من الثمانية إلى الستة والتسعين ، وكل برعم ينمو حتى يصبح جنيناً كامل التكوين ، وكل جنين يتطور إلى مراهق ذى حجم تام . وبذلك ينمو ستة وتسعون كائناً بشرياً بدلا من واحد فحسب كذى قبل . أليس هذا تقدماً ؟

واختتم المدير هذا الحديث قائلا : إن طريقة بوكانو فسكى هى فى أساسها عملية لايقاف التطور . إننا نوقف النمو الطبيعى للبيضة ولكنها — من عجيب المتناقضات — تقابل ذلك بالتبرعم .

وجرت أقلام الطلبة بهذه العبارة الأخيرة .

ثم أشار المدير إلى فرقة تتحرك ببطء شديد وتحمل رفاً مليئاً بأنابيب الاختبار التى تدخل صندوقاً معدنياً كبيراً يخرج منه رف آخر ممتلىء . وقد صدر عن الآلات صرير خافت . وذكر المدير للطلبة أن الأنابيب تستغرق فى هذه العملية ثمانى دقائق تتعرض خلالها لأشعة اكس الشديدة ، وهى أقصى ما تستطيع البيضة أن تحتمل . وبعض البيض يموت . أما ما تبقى فان أقله حساسية ينقسم قسمين . أما أكثره فينتج أربعة براعم ، وبعضه ينتج ثمانية . وكله يُرد إلى الحاضنات حيث تبدأ البراعم فى النمو . وبعد يومين يبرّد فجأة ويوقف نموه . والبراعم بدورها تتبرعم إلى اثنتين فأربعة فثمانية . وبعدما تتبرعم تجرّع الكحول حتى تكاد تموت ، وينجم عن ذلك أنها تتكاثر ثانية ، وبعد ما تتبرعم — برعم من برعم من برعم (لأن إيقاف التبرعم بعد ذلك مميت عادة) — تترك لكى تنمو فى هدوء . وعندئذ تسير البيضة الأولى شوطاً كبيراً فى طريق التكاثر إلى أى عدد بين الثمانية أجنة والستة والتسعين جنيناً — وأنتم لا شك توافقوننى على أن ذلك تحسين هائل فى الطبيعة . إننا نحصل على توائم متشابهة ، ولكنها ليست توأمين أو ثلاثة فحسب

كما كان يحدث فى أيام التوالد السالفة حينما كانت البيضة تنقسم أحياناً بطريق الصدفة . إنما هى توائم تعد بالعشرات فى وقت واحد .

ثم كرر المدير كلمة « العشرات » ملوّحاً بذراعيه كأنه يوزع الهبات .

غير أن أحد الطلبة بلغ به الحمق أن يسأل عن الفائدة من ذلك .

فرد عليه المدير بحدة قائلا : « أى بنىّ العزيز ! ألست ترى ؟ أفلا ترى ؟ » ورفع إحدى يديه ، وكان رزيناً فى تعبيره . ثم قال : إن طريقة بوكانوفسكى إحدى الوسائل العظمى للاستقرار الاجتماعى !

وسجل الطلبة هذه العبارة «الوسائل العظمى للاستقرار الاجتماعى»

بذلك يصبح الرجال والنساء على غرار واحد ويكونون مجموعات متشابهة ، فيمكن للمصنع الصغير أن يقوم بأسره على رجال من إنتاج بيضة واحدة أجريت عليها عملية بوكانوفسكى .

وارتجف صوت الرجل من شدة الحماسة وهو يقول : « ستة وتسعون توأماً متشابها يديرون ستا وتسعين آلة متشابهة ! » ثم أردف قائلا : « إنكم لا شك تعلمون أين أنتم ، وذلك لأول مرة فى فى التاريخ » وردّد شعار الكوكب الذى يقطنه وهو : « الجماعة والتشابه والاستقرار » . ما أعظم هذه الكلمات . ثم قال : لو استطعنا أن نتوسع فى طريقة بوكانوفسكى إلى مالا نهاية لانحلت المشكلة بأسرها .

فيكون عندنا بيض متشابه من النوع (ج) وبيض لا يختلف من النوع (د) ، وبيض موحد من النوع (هـ). ويتوفر لنا الملايين من التوائم المتشابهة . وهكذا ينطبق مبدأ الانتاج الكبير فى النهاية على الأحياء .

ثم هز المدير رأسه قائلا : ولكنا للأسف لا نستطيع أن نسير فى طريقة بوكانوفسكى إلى مالا نهاية .

والظاهر أن ستة وتسعين هى الحد الأقصى ، وأن اثنين وسبعين متوسط لا بأس به . إنهم يصنعون من المبيض الواحد ومن جاميط الذكر الواحد أكبر عدد ممكن من مجموعات التوائم المتشابهة — وهذا خير ما يستطيعون — وإن يكن لسوء الحظ أقل مما نبغى . ولكنه مع ذلك شاق عسير .

— لأن المائتى بيضة تستغرق بطبيعتها ثلاثين عاماً كى تبلغ حد النضوج . ولكن من واجبنا أن نقرّ السكان توا وبغير توان . وماذا يعود علينا لو أخذنا نخرج التوائم خلال ربع قرن ؟

لا فائدة البتة من ذلك ولا شك . ولكن طريقة بدسناب الفنية ساعدت إلى حد كبير على الاسراع فى عملية النضوج . فهم واثقون من نضوج مائة وخمسين بيضة على الأقل فى خلال عامين . إنك إذا لقحت البيض ثم أجريت عليه طريقة بوكانوفسكى — أو بعبارة أخرى إذا ضاعفته اثنين وسبعين مثلا — حصلت فى المتوسط على ما يقرب من أحد عشر ألفاً من الأخوة والأخوات فى مائة وخمسين مجموعة من التوائم المتشابهة ، وذلك فى خلال عامين من العمر الواحد .

— ونستطيع فى الحالات الشاذة أن نجعل المبيض الواحد ينتج ما يزيد عن خمسة عشر ألفاً من الأفراد البالغين .

ثم أشار إلى شاب أشقر الشعر متورد اللون كان يسير إلى جوارهم مصادفة فى تلك اللحظة ، وناداه : « يا مستر فستر » فاقترب منه الشاب المتورد ، وسأله المدير : هل تستطيع أن تخبرنا عن أكبر عدد ينتجه مبيض واحد يا مستر فستر ؟

فأجاب مستر فستر بغير تردد : «ستة عشر ألفاً واثنتا عشرة فى هذا المركز » . وكان يتحدث على عجل شديد ، وهو رجل له عينان

زرقاوان يفيضان بالحيوية ، ويبتهج ابتهاجاً ملحوظا وهو يدلى بالأرقام . قال : « ستة عشر ألفاً واثنتا عشرة فى مائة وتسع وثمانين مجموعة من المتشابهات » . ثم جلجل بصوته قائلا : « ولكنهم بالطبع بدّونا فى بعض المراكز الاستوائية . فسنغافورة كثيراً ما أنتجت ما ينيف على الستة عشر ألفاً والخمسمائة ، وقد بلغت ممباسا فعلا سبعة عشر ألفاً . ولكنهم فى أمثال هذه المراكز يتمتعون بمزايا لا تقوم على أساس من العدل . أنظر إلى الطريقة التى يستجيب بها المبيض الزنجى للمخاط ! إنها لتدهشك أشد الدهش إذا كنت ممن يألفون العمل بالمواد الأوربية . » ثم ضحك ولمعت عيناه ببريق المعارضة ورفع ذقنه متحدياً وقال : ومع ذلك فقد اعتزمنا أن نتفوق عليهم إن استطعنا . إننى فى هذه اللحظة أعمل بمبيض عجيب من نوع (— د) أتم ثمانية عشر شهراً من العمر من عهد قريب جداً . عندنا الآن أكثر من اثنى عشر ألفاً وسبعمائة طفلا ، بعضهم ما يزال جنيناً وبعضهم خرج إلى الحياة . وهم جميعاً أصحاء . إننا لا بد متغلبون فى النهاية .

فصاح المدير قائلا : « هذه هى الروح التى أعجب بها » وضرب المستر فستر ضربة خفيفة على كتفه ، ثم قال : تعال معنا واشرح لهؤلاء الشبان خلاصة خبرتك .

وابتسم المستر فستر متواضعاً وقال : «بكل سرور» . ثم انطلقوا .

وكنت تسمع فى حجرة القوارير أصواتاً مؤتلفة وترى نشاطاً منظماً . وكانت ترتفع إلى الأرض فى مصاعد صغيرة قطع طازجة من بريتون الخنازير قطعت على الأحجام الملائمة ، وأخرجت من مخزن الأعضاء فى الطابق السفلى . وكنت تسمع صفيراً ثم طقطقة ، وذلك عندما تتفتح أبواب المصاعد . وليس على مبطن القوارير إلا أن يمد يده ويتناول

قطعة من البريتون ، ثم يدخلها فى القارورة فى يسر شديد . وقبل أن يتم ضم القارورة إلى ذلك الصف من القوارير الذى لا تجد نهايته ، تسمع الصفير والطقطقة عند ما تندفع قطعة أخرى من البريتون من الأعماق وقد أعدت للانزلاق فى قارورة أخرى ، كى تنضم إلى تلك المجموعة التى تتزايد شيئاً فشيئاً حتى لا يكاد يحصى عددها .

ويقف الفاحصون إلى جانب المبطنين . وتتقدم مجموعة القوارير ، وينقل البيض واحدة بعد الأخرى من أنابيب الاختبار إلى الأوعية الكبيرة . ثم تفصل البطانة البريتونية بمهارة فائقة ، وتوضع العلقة فى مكانها ، ويصب محلول الملح . . . وهكذا تمر القارورة ، ويأتى دور واضعى البطاقات ، الذين ينقلون من أنبوبة الاختبار إلى القارورة نوع الوراثة وتاريخ التلقيح وعضوية مجموعة بوكانوفسكى وأمثال هذه التفاصيل . ويسير موكب القوارير بعد ذلك سيراً بطيئاً ، ولم تعد مجهولة الاسم . بل لقد بات كل منها مسمى معروفاً . ثم تدخل فى نافذة فى الحائط حتى تصل بسيرها البطىء إلى حجرة « القضاء والقدر الاجتماعى » .

وبينما كان الطلبة يلجون الغرفة قال لهم المستر فستر وهو فى غبطة شديدة : هنا ثمانية وثمانون متراً مكعباً من الفهارس .

وعقب على ذلك المدير قائلا : وهى تحوى كل المعارف المتصلة بالموضوع .

— ويضم إليها المعارف الجديدة كل صباح .

— ويضم بعضها إلى بعض لتنسيق المعرفة كل مساء .

— وعلى أساسها تقدر الأعداد .

وقال المستر فستر : فنعرف كم فرد من هذا النوع أو ذاك .

— وتوزع على اقدار مختلفة .

— ونعرف أحسن نسبة للتحول من وعاء إلى وعاء فى كل لحظة من اللحظات .

— ونستفيد فى الحال من الكميات الفاسدة التى لم نكن نتوقعها .

وكرر هذه العبارة المستر فستر قائلا : « تستفيد فى الحال إذا عرفت كم من الوقت الزائد أدخلت فى حسابى بعد زلزال اليابان الأخير ! » ثم ضحك متفكهاً وهز رأسه .

— ثم يرسل « رجال القضاء والقدر » أرقامهم للملقحين .

— وهؤلاء يقدمون لهم الأجنة التى يطلبون .

— ثم تأتى القوارير إلى هذا المكان كى يكتب لها قضاؤها وقدرها بالتفصيل .

— ثم ترسل بعد ذلك إلى مخزن الأجنة .

— إلى حيث نحن الآن ذاهبون .

وفتح المستر فستر باباً وقادهم إلى سلم هبطوا منه إلى الطابق السفلى .

ومازالت الحرارة هناك استوائية . وهبطوا جميعاً إلى مكان جوه أشبه ما يكون بالشفق الكثيف . وكان هناك بابان وممر يلتوى مرتين كى يكفلوا للمخزن بعده عن إمكان تسرب ضوء النهار .

ودفع المستر فستر الباب الثانى وقال فى فكاهة ومجون : الأجنة كالأفلام الفوتوغرافية ، لا تحتمل غير الضوء الأحمر .

والواقع أن الظلام والحرارة والرطوبة التى ولجها الطلبة فى إثره كانت ملحوظة . وكان الجو قرمزى اللون . وما أشبه هذا الظلام بما ترى العين المغمضة فى يوم قائظ بعد الظهيرة . والأجنحة البارزة من

صفوف القوارير المتعاقبة ، والطبقات المتراصة من هذه القوارير ، كانت كلها تتألق بالياقوت الذى لا يعد . وبين الياقوتة والياقوتة تتحرك أطياف معتمة حمراء من الرجال والنساء من ذوى العيون الأرجوانية اللون ، وعليهم جميعاً أعراض مرض السل الجلدى .

وكان طنين الآلات ودويها يهز الهواء هزاً خفيفاً .

وقال المدير وقد أنهكته كثرة الكلام : أعطهم بعض الأرقام يا مستر فستر .

واغتبط المستر فستر بعض الاغتباط وهو يدلى لهم بقليل من الأرقام .

قال إن المكان يبلغ مائتين وعشرين متراً طولا ، ومائتين عرضاً ، وعشرة ارتفاعاً . وأشار إلى أعلى . ورفع الطلبة أعينهم صوب السقف النائى كما تفعل الفراخ وهى تحتسى الماء .

وكان بالمكان ثلاث طبقات من الرفوف : إحداها فى مستوى الأرض ، يعلوها رواق ثان فثالث .

وهذه الأروقة المتراصة مصنوعة من الصلب وشبيهة بنسج العنكبوت وهى تتلاشى خلال الظلام من جميع النواحى . وبالقرب منهم ثلاثة أشباح حمراء ، منهمكون فى إنزال القوارير من دَرَج متنقل .

وذلك هو السلم المتنقل الذى يخرج من حجرة القضاء والقدر .

وتوضع كل قارورة على واحد من الرفوف الخمسة عشر . وكل رف حامل يتنقل بسرعة ثلاثة وثلاثين وثلث سنتيمتر فى الساعة — ولكن المشاهد لا يلحظ هذه الحركة — ويسير مائتين وسبعة وستين يوماً بسرعة ثمانية أمتار كل يوم ، فيكون المجموع ألفان ومائة وستة وثلاثون متراً . وتلك دورة واحدة حول المخزن فى مستوى الأرض ، ودورة فى

الرواق الأول ، ونصف دورة فى الرواق الثانى . وفى صباح اليوم السابع والستين بعد المائتين يتسرب ضوء النهار إلى حجرة التفريغ . وذلك ما يسمونه الوجود المستقل .

واختتم المستر فستر حديثه قائلا : « وقد استطعنا خلال هذه الفترة أن نفرغ من الكثير منها » . وضحك ضحكة العارف الظافر .

وقال المدير ثانية : هذه هى الروح التى أعجب بها . دعنا الآن نتابع سيرنا . خبّرهم بكل شىء يا مستر فستر .

وقد خبرهم مستر فستر فى التوّ عن الجنين الذى ينمو على بريتونه المفروش . وأذاقهم المادة الدسمة التى يتغذى بها عوضاً عن الدم ، وشرح لهم لماذا كان من الضرورى أن تنبه بنبات المشيمة وبافراز الغدة الدرقية . ثم حدثهم عن عصارة بعض خلايا المبيض . ثم أطلعهم على المنافذ التى يحقن منها بطريق آليـة عند كل جزء من اثنى عشر من المتر وذلك من الصفر إلى ٢٠٤ . وتكلم بعدئذ عن الجرعات المخاطية التى تزداد باطراد والتى تعطى فى الستة والتسعين متراً الأخيرة من سيرها . ووصف الدورة الدموية الصناعية التى تتسم بها كل قارورة بعد ١١٢ متراً . وأطلعهم على خزان المادة التى يستعاض بها عن الدم ، وعلى المضخة الطاردة التى تحرك السائل دائماً فوق المشيمة ثم تطرده خلال الرئة الصناعية ومرشّح الفضلات. وأشار إلى استعداد الجنين للأنيميا وما يترتب عليه من مشقة ، وإلى الجرعات الضخمة من خلاصة معدات الخنازير و كبد جنين الفرس الذى يتحتم أن نمده به تبعاً لذلك .

ثم أطلعهم على الآلات البسيطة التى تستخدم فى المترين الأخيرين من كل ثمانية أمتار لهز الأجنة كلها فى وقت واحد حتى تألف الحركة . وأشار إلى خطورة ما يعرف « بدوخة التفريغ » ، وعدد الاحتياطات

التى تتخذ لتخفيف أثر هذه الصدمة الخطرة إلى الحد الأدنى وذلك بتدريب الجنين المحفوظ فى القارورة تدريباً ملائماً ، وحدثهم عن الاختبارات الجنسية التى يقومون بها بعد مائتى متر من الدورة . وشرح طريقة وضع البطـاقات : وهى حرف (ت) للذكور و دائرة للاناث ، و علامة استفهام سوداء على صفحة بيضاء للخنثى .

وقال المستر فستر : « لأن التلقيح ليس فى أكثر الأحوال — بطبيعة الحال — إلا مضايقة . إن مبيضاً واحداً من كل ١٢٠٠ يكفى لتحقيق أغراضنا تماماً. ولكن لا بد لنا من حسن الاختيار . وبالطبع لا بد أن نحسب حساباً كبيراً لسلامة المبيض . ولذا فنحن نسمح لثلاثين فى المائة من أناث الأجنة أن تنمو نمواً عادياً . أما البقية فتعطى جرعة من هرمونات الذكور كل ٢٤ متراً من بقية الشوط . والنتيجة أنها تفرغ خناثاً — وتركيبها طبيعى جداً (واعترف أنها تشذ فقط فى أن لديها ميلا طفيفاً جداً لارسال اللحى) ولكنها عاقر ، وعقمها مضمون . وواصـل المستر فستر حديثه قائلا : وهذا يؤدى بنا فى النهاية إلى الخروج من دائرة تقليد الطبيعة تقليداً أعمى إلى عالم الاختراع الانسانى وهو أشد تشويقاً للنفوس .

وفرك يديه ، لأنهم بالطبع لم يقنعوا بمجرد تفريخ الأجنة ، فأية بقرة تستطيع ذلك .

ثم قال : « ونحن كذلك نكتب القدر ونتحكم فى الظروف . إننا نفرغ صغارنا كائنات بشرية اجتماعية ، من نوع (ا) أو (هـ) ، ونقدر لهم أن يكونوا فى المستقبل من العمال الذين يزيلون أقذار المصارف أو . . . » وأوشك أن يقول : « منظمى العالم » ولكنه صحح نفسه وقال بدلا من ذلك : مديرى مراكز التفريخ .

وقابل المدير هذا الثناء بابتسامة .

وكانوا يمرون عند نقطة ٣٢٠ متراً فى الرف الحادى عشر حينما شاهدوا عاملا ميكانيكياً شاباً من نوع (— ب) يعمل بمفك ومقياس فى مضخة المادة التى تحل محل الدم والخاصة بقارورة كانت تمر به . وكان دوى المحرك الكهربائى يشتد نغمه بدرجات طفيفة وهو يدير الأزرار. ثم هبطت القارورة إلى أسفل وأدار العامل المفك دورة نهائية ورمق بعينه المنضدة الدائرة وانتهى بعد ذلك من عمله . وتحرك بعدئذ خطوتين إلى أسفل وبدأ العملية نفسها فى المضخة التالية .

وأخذ المستر فستر يشرح لهم قائلا : « إذا أنقصنا عدد الدورات فى الدقيقة الواحدة تقل سرعة دوران المادة التى تشبه الدم ، فتمر خلال الرئة فى فترات أكثر تباعداً ، ويقل مقدار ما يأخذه الجنين من الأكسجين وليس هناك ما يجعل الجنين أقل من المستوى المطلوب أكثر من نقص الأكسجين . » ثم فرك يديه .

فتصدى للسؤال طالب نابغ قائلا : ولكن لماذا تريدون أن تبقوا الجنين أحط من المستوى المطلوب ؟

وبعد صمت طويل قال المدير : ألم يطرأ لك يا حمار أن الجنين من النوع (هـ) لا بد أن يعيش فى وسط (هـ) وأن ينسل أجنة من نفس النوع ؟

ومن الجلى أن هذه الفكرة لم ترد على خاطر الطالب ، فارتبك واضطرب .

وقال المستر فستر : «كلما انحط النوع قل الأكسجين » وأول ما يتأثر من الأعضاء المخ ويليه الهيكل العظمى . وإذا كان الأكسجين سبعين فى المائة من المقدار المعتاد تكونت الأقزام . أما إذا

قل الأكسجين عن سبعين كانت المخلوقات عجيبة بغير عيون .

واتبع المستر فستر ذلك قائلا : وهى لا تجدى البتة .

ثم تحدث بصوت ينم عن الثقة والاهتمام قائلا إنهم لو اكتشفوا طريقة فنية يقصرون بها الفترة التى يكتمل فيها النمو كان ذلك انتصاراً كبيراً وفائدة عظمى للمجتمع .

— فكروا فى الحصان .

ففكر فيه الطلبة .

إن نموه يكتمل فى السادسة ، ويكتمل نمو الفيل فى العاشرة . فى حين أن الانسان لا ينضج جنسياً فى الثالثة عشرة . ولا يتم نموه إلا فى العشرين ومن ثم — بطبيعة الحال — يتأخر نضوج ثمرة كمال التطور — وأقصد الذكاء البشرى .

وقال المستر فستر ، وهو جد محق فيما قال : ولكننا فى النوع (هـ) لا نحتاج إلى الذكاء البشرى .

إنهم لم يحتاجوا الذكاء ولم يحصلوا عليه . ولكن برغم أن العقل (هـ) كان تام النضوج فى العاشرة ، فان الجسم (هـ) لم يكن ملائماً للعمل حتى الثامنة عشرة . وبذا تنقضى سنوات عدة فى حالة عدم النضج ، وهى سنوات فائضة عن الحاجة مضاعة . فلو استطعنا أن نسرع فى التطور الجثمانى حتى يصبح فى سرعة نمو البقر وفرنا على المجتمع الشىء الكثير .

فتمتم الطلبة قائلين : « الشىء الكثير ! » وذلك لأن حماسة المستر فستر انتقلت إليهم عدواها .

ثم أصبح كلامه بعد ذلك فنياً جداً . تحدث عن توحيد الافراز الداخلى الشاذ الذى يعمل على بطء نمو الانسان . وسلم بأن ذلك

يرجع إلى تغيير النطفة . فهل يمكن تحاشى آثار هذا التغير النطفى ؟ هل يمكن أن يعاد الجنين من النوع (ﻫ) بطريقة فنية خاصة إلى حالة الكلاب والأبقار العادية . تلك هى المشكلة التى تعسر حلها .

لقد استطاع بلكنجتن فى ممباسا أن ينتج أفراداً ينضجون جنسياً فى الرابعة ويتم نموهم فى السادسة والنصف . وهذا انتصار علمى ، ولكنه لا يجدى من الناحية الاجتماعية . فالرجال والنساء فى سن السادسة أغبى من أن يؤدوا عملا حتى من النوع (ﻫ) . والعملية إما أن تتم كلها ، أو لا يكون من ورائها نفع . فاما أنك تفشل فى إدخال أى تعديل ، و إما أن تدخل التعديل كله . وهم ما يزالون يحاولون إيجاد الحالة المتوسطة المثالية بين البالغين فى سن العشرين والبالغين فى سن السادسة . ولم ينجحوا حتى الآن . ثم تنهد المستر فستر وهز رأسه .

وواصلوا تجوالهم خلال الشفق القرمزى حتى بلغوا قرابة ١٧٠ متراً على الرف التاسع . ومن هذه النقطة وما بعدها كان الرف التاسع محاطاً بسور ، والقوارير التى تكونت منها بقية الرحلة كانت مصففة فى نوع من أنواع النُفق تتخلله هنا وهناك فتحات يبلغ اتساع الواحدة منها مترين أو ثلاثة .

وقال المستر فستر : هنا تكييف الحرارة .

وكانت النفق الحارة تتعاقب مع النفق الباردة . وكانت البرودة تقترن بشىء من عدم الارتياح على صورة أشعة اكس القوية . ولما يحين وقت التفريغ تشعر الأجنة بفزع من البرد شديد . وقد قرر لها أن تهاجر إلى المناطق الحارة كى يكونوا عمالا فى المناجم وغزالين للحرير الحمضى وصناعاً فى الحديد الصلب . وترغم عقولهم فيما بعد على الاتفاق مع ماقدر لجسومهم . واختتم المستر فستر حديثه قائلا : إننا نكيفهم

على النجاح فى الحرارة . وزملاؤنا فى الطابق العلوى يدربونهم على حبها .

وأضاف المدير على ذلك فى إيجاز قوله : وهذا هو سر السعادة والفضيلة — أن تحب ما ينبغى لك أن تعمله . إن عملية التكييف كلها ترمى إلى أن تجعل الناس يحبون مصيرهم الاجتماعى الذي لا مفر منه .

وفى فجوة بين نفقين كانت إحدى المربيات تسبر برفق غور المحتويات الهلامية بداخل قارورة مارة بمحقن طويل دقيق . ووقف الطلبة ومرشدوهم يراقبونها بضع لحظات وهم صامتون .

وبعدماسحبت المحقن أخيراً واستقامت قال المستر فستر : أجل يالينينا !

فالتفتت الفتاة فى فزع ، ويستطيع الرائى أن يلحظ عليها جمالا غير عادى برغم مرضها بالسل الجلدى و برغم عينيها الأرجوانيتين .

وصاحت : « هنرى ! » وأشرقت عليه بابتسامة رقيقة ، وأبانت عن صف من الأسنان المرجانية .

فتمتم المدير قائلا : « يا للفتنة ! » وربت عليها مرتين أو ثلاث ، ظفر فى مقابلها بابتسامة تقدير خصته بها .

وسألها مستر فستر فى نغمة الرجل ذى المهنة الرفيعة : ماذا تعطينهم ؟

فقالت : مرض التيفود والنوم المألوف .

وتصدى المستر فستر لشرح ذلك للطلبة فقال : « إن تطعيم عمال المناطق الحارة يبدأ عند المتر ١٥٠ . هنا تكون الأجنة بالخياشيم . إننا نكسب السمكة المناعة ضد أمراض الانسان فى المستقبل . » ثم التفت إلى لينينا وقال : فى الخامسة إلا عشر فوق السطح بعد ظهر اليوم كالمعتاد .

وقال المدير ثانية : « إنها لفاتنة » وضربها للمرة الأخيرة ضربة خفيفة ثم انصرف فى إثر الآخرين .

وفوق الرف العاشر شهدوا صفوفاً من العمال الكيميائيين لجيل المقبل يدربون على احتمال الرصاص والصودا الكاوية والقار وغاز الكلور . وكان يمر آنئذ عند علامة المتر ١١٠٠ على الرف الثالث الجنين الأول من مجموعة عددها مائتان وخمسون من مهندسى الطائرات الصاروخية ، وقد استخدمت آلات خاصة كى تبقى أوعيتهم دائرة بغير انقطاع . وشرح المستر فستر ذلك قائلا : هذا لتحسين إحساسهم بالتوازن . لأن إصلاح الطائرة الصاروخية من الخارج وسط الهواء عمل دقيق . إننا نبطئ الدورة عند ما يرتفعون ، حتى يكادون يموتون جوعاً ، ونضاعف تدفق دمائهم وهم منقلبون . إنهم يتعلمون أن يجمعوا بين الانقلاب وطيب الحياة . بل إنهم لا يكونون حقاً سعداء إلا وهم واقفون على رؤوسهم .

وواصل مستر فستر الحديث قائلا : « والآن أحب أن أطلعكم على تكييف مشوق جداً للأذكياء من درجة (+ا) . عندنا طائفة كبيرة منهم على الرف الخامس فى مستوى الرواق الأول . » ثم نادى ولدين وقد شرعا يهبطان إلى الطابق الأرضى .

قال : إنها عند المتر ٩٠٠ تقريباً . إنك لا تستطيع أن تقوم بعملية تكييف مجدية لأصحاب الفكر حتى يفقد الجنين ذيله . اتبعونى .

ولكن المدير نظر إلى ساعته وقال : إنها الثالثة إلا عشر ، وانى لأخشى ألا يتوفر لنا الوقت لنشاهد الأجنة المفكرة . يجب أن نصعد إلى غرف الأطفال قبل أن ينهضوا من نومهم بعد الظهر .

فشعر المستر فستر بشىء من الضيق وتوسل إليهم أن يلقوا على الأقل نظرة واحدة على حجرة التفريغ .

فابتسم المدير متلطفاً وقال : ليكن ذلك . ولتكن نظرة واحدة .

الفصل الثانى

بقى المستر فستر وحده فى حجرة التفريغ . وولج المدير وتلاميذه أقرب مصعد ، وحملهم المصعد إلى الطابق الخامس .

فاذا بلوحة عليها هذا الاعلان « حجرات صغار الأطفال — غرف التكييف على طريقة بافلوف الحديثة » .

وفتح المدير أحد الأبواب ، فاذا بهم فى غرفة كبيرة جرداء ، شديدة الضوء مشمسة ، وذلك لأن الحائط الجنوبى بأسره كان نافذة واحدة . وبالحجرة ست مربيات ، يلبسن الزى الموحد المعهود وهو يتألف من سروال وسترة من تيل أبيض لزج . وشعورهن مختفية تحت غطاء للرأس أبيض اللون مما يساعد على تطهيرها . وكن يشتغلن بصف آنيات الورد فى خط طويل يقطع أرض الغرفة من جانب إلى آخر . والأوانى كبيرة تمتلىء إلى قمتها بالزهر . فكنت ترى ألوف الأوراق منتفخة مزدهرة ، ناعمة كالحرير ، كأنها خدود ولدان مخلدين لا يحصرهم العد . وتلك الخدود فى ذلك الضوء اللامع لم تكن وردية آرية فحسب ، بل إن منها ما هو صينى براق ، ومكسيكى نحاسى ، أو به صرع من كثرة النفخ فى أبواق السماء ، أو شاحب كالموتى ، وشحوبه ملطخ ببياض المرمر الأصيل .

واعتدل المربيات منتصبات عندما دخل المدير .

وقال لهن فى جفاء واقتضاب : أنشرن الكتب .

فصدع المربيات بأمره صامتات . ونشرت الكتب فى الحال بين أوانى الزهر ، وانفتحت صحف صغيرة من صحائف الأطفال فى صف واحد وكأنها تدعو المشاهدين إلى النظر فيها ، تظهر فى كل منها صورة زاهية الألوان لوحش أو سمكة أو طائر .

— والآن أدخلن الأطفال .

فأسرعن خارج الحجرة وعدن بعد دقيقة أو دقيقتين ، كل منهن تدفع قائمة خشبية ذات أربعة رفوف لها شبكات سلكية ، محملة بثمانية أطفال ، عمر الواحد منهم ثمانية أشهر ، وكلهم متشابهون أشد التشابه (ومن الجلى أنهم كانوا مجموعة من طراز بوكانوفسكى) وكلهم يرتدون الكاكى (لأنهم من النوع «د») .

— ضعوهم على الأرض .

فأنزل المربيات الأطفال .

— والآن أديروهم حتى يستطيعوا رؤية الزهور والكتب .

فالتفت الأطفال ، وصمتوا فى الحال ، ثم بدأوا يزحفون نحو تلك المجموعات ذات الألوان الملساء ، ونحو تلك الرسوم المرحة البراقة فوق الصفحات البيض . و برزت الشمس من كسوف وقتى خلف السحاب والأطفال يقتربون . واشتعلت الورود كأن عاطفة فجائية تحركت فى داخلها . وكأن صفحات الكتب البراقة اكتسبت أهمية جديدة كبرى . وصدرت من صفوف الأطفال الزاحفين صرخات ضعيفة من أثر الذهول ، وقهقهة ومناغاة من أثر السرور .

وفرك المدير يديه وقال : حسنا ، لكأن هذا حدث عن عمد .

وبلغ الأطفال المسرعون فى زحفهم أهدافهم . وامتدت أيد صغيرة فى غير ثبات تلمس الورود التى تغير شكلها ، وتقبض عليها وتجردها

من أوراقها ، كما غضنت الصفحات المضيئة . ولبث المدير حتى كانوا جميعاً فى شغل مرحين . ثم قال : « أرقبوا بعناية » . ثم رفع يده وأعطى إشارته .

وكانت رئيسة المربيات واقفة إلى جوار لوحة الأزرار فى الجانب الآخر من الغرفة فضغطت على رافع صغير .

فحدث انفجار عنيف . وانطلقت صفارة بصوت أجش أخذ يزداد بالتدريج حدة . ودقت أجراس الخطر كأن بها مسا من جنون .

وفزع الأطفال وصاحوا . وتجعدت وجوههم فرقاً ورعباً .

وكاد الضجيج أن يصم الآذان فصاح المدير : والآن نبدأ فى إدخال هزة كهربية خفيفة فى هذا الدرس .

ولوح بيده مرة أخرى ، وضغطت رئيسة المربيات رافعاً آخر . فتغيرت نغمة صياح الأطفال . فكنت تحس فى صرخاتهم الحادة المتقطعة التى يرسلونها شيئاً من اليأس يكاد يبلغ حد الجنون . وامتطت جسومهم الصغيرة وتصلبت . وتحركت أطرافهم واهتزت كأنها تستجيب لجذب أسلاك غير مرئية .

وصاح المدير وهو يشرح قائلا : « نستطيع أن نكهرب كل هذا الجزء من الأرض . » ثم أشار إلى المربية قائلا : ولكن كفى هذا .

وتوقف الانفجار وكفت الأجراس عن الدوى ، وأخذ صياح الصفارة ينخفض نغمه شيئاً فشيئاً حتى تلاشى . ثم ارتخت الأجسام المتمطة المتصلبة . وتحول تشنج الأطفال المجانين وصياحهم إلى العويل المألوف من أثر الرعب المعهود .

— قدموا لهم الزهور والكتب ثانية .

فلبى المربيات الأمر . ولكن الأطفال انكمشوا فزعين وعلا

صياحهم فجأة عندما اقتربت الورود ووقعت أبصارهم على صور القطط والديكة والغنم الأسود التى رسمت رسما يلائم الأطفال وصبغت بالألوان الزاهية .

وقال المدير ظافراً : اشهدوا ، اشهدوا .

لقد اقترنت فى أذهان الأطفال الكتب مع الضجيج المرتفع ، والزهور مع الهزات الكهربية . وإذا تكرر هذا الدرس أو شبيهه مائتى مرة أصبح الاقتران ثابتاً لا ينفصم . وما يصله الانسان تعجز الطبيعة عن فصله .

« سوف يشبون على ما اعتاد علماء النفس أن يسموه كرهاً « غرزياً » للكتب والزهور . هذه أفعال منعكسة شرطية لا تتغير . سوف يكونون بمنجاة من الكتب وعلم النبات طول حياتهم » . ثم التفت المدير إلى مربياته وقال : أبعدوهم ثانية .

وحمل الأطفال ذوو الأردية الكاكية وهم ما يزالون يصيحون فوق قوائمهم الخشبية ذوات الرقوف ، ودفعتهم العجلات إلى الخارج ، مخلفين وراءهم رائحة اللبن الرائب وصمتاً محبباً إلى النفوس .

ورفع أحد الطلبة يده . لقد أدرك تمام الادراك لماذا لا نستطيع أن يكون لدينا قوم من النوع الدنىء يضيعون وقت المجتمع فى الكتب كما أدرك أن هناك دائماً خطراً من أن يقرأوا شيئاً ربما أزال الرابطة بين الشرط والاستجابة — وهو شىء لا نرغب فيه . أدرك الطالب ذلك ولكنه لم يفهم ما حدث بشأن الزهور . لماذا نجشم أنفسنا مشقة كبرى بأن نجعل من المستحيل من الناحية النفسية للنوع (د) من الناس أن يحب الزهور .

وأخذ المدير يشرح له فى صبر وأناة . إذا أرغمنا الأطفال على

الصياح عند مرأى الورد ، فانما نفعل ذلك لأسباب سياسية اقتصادية عليا . من عهد غير بعيد جداً (منذ زهاء القرن) كانت الأنواع (ﻫ) ، (د) ، بل و (ﻫ) تدرب على حب الزهور خاصة والطبيعة الجرداء عامة . وكان الغرض من ذلك أن نحببهم فى الخروج إلى الريف كلما سنحت الفرصة ، فنضطرهم بذلك إلى أن يستخدموا وسائل المواصلات .

فسأل طالب : وهل لم يستخدموا تلك الوسائل ؟

وأجاب المدير : لقد استخدموها كثيراً ، ولكنهم لم يفعلوا غير ذلك .

ثم أشار إلى أن زهور الربيع ومناظر الطبيعة لها عيب واحد خطير : وذلك أنها مجانية . إن حب الطبيعة يعطل المصانع ، فقررنا أن نلغى حب الطبيعة على الأقل من الطبقات الدنيا . قررنا أن نلغى حب الطبيعة ولكن على أن يبقى الميل إلى استخدام المواصلات . لأنه كان من الضرورى لهم بطبيعة الحال ألا ينقطعوا عن زيارة الريف ، حتى إن كانوا يمقتونه . وأصبحت المشكلة تنحصر فى إيجاد سبب اقتصادى لاستخدام المواصلات أقوى من مجرد حب زهور الربيع ومناظر الطبيعة . ولقد عثرنا على السبب فى الوقت المناسب .

وختم المدير كلامه قائلا : إننا نكيف الجماهير على كره الريف ، ولكنا فى نفس الوقت نكيفهم على حب ضروب الرياضة الريفية كلها . وفى الوقت عينه نتأكد من أن جميع ضروب الرياضة الريفية تستلزم استخدام الأجهزة المعقدة . وبذا يستهلكون الأشياء المصنوعة كما يستهلكون وسائل النقل . ومن ثم أدخلنا تلك الهزات الكهربية .

فقال الطالب : « لقد فهمت » ثم صمت مستغرقاً فى الاعجاب .

ثم كان سكون شامل . وبعدئذ طهر المدير حلقه مما به ثم بدأ الحديث ثانية . قال : « كان هناك فيما مضى — حينما كان فورد على وجه البسيطة — طفل صغير يدعى روبن رابنوفتش . وكان روبن ولداً لأبوين يتكلمان اللغة البولندية . » ثم قاطع المدير نفسه سائلا : أحسب أنكم تعرفون ما هى البولندية .

— إنها لغة ميتة .

وزاد على ذلك طالب آخر قائلا : « كالفرنسية والألمانية » وقد أقحم نفسه متظاهراً بعلمه .

ثم سألهم المدير قائلا : وتعرفون كذلك معنى « الوالد » ؟

فساد الحاضرين صمت مشوب بالقلق . واحمرت وجنات كثير من الأولاد خجلا . إنهم لم يتعلموا بعد أن يدركوا الفارق الهام — الدقيق جداً فى غالب الأحيان — بين اللفظ البذىء والعلم البرىء . وأخيراً تشجع طالب ورفع يده .

وتلعثم فى لفظه واندفع الدم إلى وجنتيه وهو يقول : لقد كانت الكائنات البشرية فيما مضى تتناسل باللقاح .

فأومأ المدير برأسه موافقاً وقال : هذا صحيح .

— وعندما كان الأطفال يُفرغون . . .

فصححه آخر : بل يولدون .

« كان هناك الوالدون — ولا أقصد الأطفال بالطبع إنما أقصد الآخرين . » ثم غلب الاضطراب هذا الولد المسكين .

ولخص المدير الكلام قائلا : « كان الوالدان بالايجاز — الأم والأب » . وهذه العبارة البذيئة — وهى فى الواقع علم صحيح — سقطت كالصاعقة على الأولاد الصامتين الذين كانوا يغضون الطرف عن

المتكلم . ولكن المدير كرر كلمة «الأم» بصوت مرتفع كى يزيل السكون السائد . ثم ارتد فى كرسيه إلى الوراء وقال فى جد ورزانة : أنا أعرف أن هذه الحقائق لا تسر . ولكن أكثر الحقائق التاريخية كذلك .

ثم عاد إلى روبن الصغير . قال إن أباه وأمه تركوا الراديو مفتوحاً سهواً فى غرفته ذات مساء .

ويجب أن تذكروا أن الأطفال — فى تلك الأيام التى كان الناس يتناسلون فيها بالتلاقح ويتكاثرون — كانوا ينشأون تحت رعاية آبائهم ، ولا ينشأون فى مراكز الدولة للتكييف .

وبينما كان الطفل نائماً ، بدأت لندن فجأة تذيع برنامجاً . وفى صبيحة اليوم التالى تيقظ روبن الصغير وهو يكرر كلمة كلمة محاضرة طويلة ألقاها ذلك الكاتب العجيب القديم (وهو أحد القلائل الذين سمح لمؤلفاتهم أن تنحدر إلينا) برنارد شو الذى كان يتحدث عن عبقريته — وفقاً لتقليد قديم معتمد . واندهش والدا الطفل لذلك (وهنا تجاسر المريبون من التلاميذ أن يتجهم كل منهم للآخر .) وقد غمز روبن الصغير بعينه وأسر فى نفسه ضحكة مكبوتة لأن هذه المحاضرة كانت بالطبع غير مفهومة له . ولما تصور الوالدان أن طفلهما قد أصيب فجأة بالجنون أرسلا فى طلب الطبيب . وكان لحسن الحظ يفقه الانجليزية ، فأدرك أن الحديث هو ذلك الذى أذاعه شو فى الليلة السابقة . وأدرك أهمية ما حدث ، وأرسل خطاباً بشأنه لصحيفة طبية .

قال المدير : « وكان مبدأ التعليم أثناء النوم أو هبنوبيديا قد اكتشفت من قبل » ثم سكت فترة كان لها أثرها فى النفوس .

لقد اكتشف المبدأ ، ولكن كان لابد من أن تنقضى سنوات عدة قبل أن يطبق بطريقة نافعة .

إن حادثة روبن الصغيرة هذه وقعت بعد ثلاثة وعشرين عاماً فقط بعدما عرض فى السوق طراز فورد الأول رقم (ت) (وهنا رسم المدير حرف التاء على معدته وتبعه الطلبة جميعاً باحترام) ومع ذلك...

وخط الطلبة على عجل هذه العبارة وهم محنقون: «استعملت الهبنوبيديا رسمياً أولا فى عام ٢١٤ ف. ولم تستعمل قبل ذلك لسببين: أولهما . . .»

وكان المدير يقول: هذه التجارب الأولى كانت تسير فى طريق خاطئ. إنهم كانوا يظنون أن الهبنوبيديا يمكن أن تكون أداة من أدوات التربية العقلية . . .

ينام الولد الصغير على جانبه الأيمن، ويمد ذراعه اليمنى، ويعلق يده اليمنى مسترخية على حافة السرير. ويتحدث صوت ناعم خلال نافذة مستديرة فى جانب أحد الصناديق.

ويقول الصوت: النيل أطول أنهار أفريقيا، وثانى أنهار العالم طراً فى طوله. وهو أقصر من المسيسبى والمسورى غير أنه أول الأنهار من حيث طول حوضه الذى يمتد خلال ٣٥ درجة من درجات العرض...

وفى ساعة الافطار فى صبيحة اليوم التالى يسأل سائل: «هل تعلم يا تومى أطول نهر فى أفريقيا؟» فيهز تومى رأسه. ولكن ألا تذكر عبارة تبدأ بهذه الكلمات: النيل أطول . . .

فيجيب تومى: «النيل — أطول — أنهار — أفريقيا — وثانى — أنهار — العالم — طراً — فى — طوله . . .» ثم تتدفق الكلمات متلاحقة فيقول: «وهو — أقصر — من . . .»

— إذن ما هو أطول نهر فى أفريقيا؟

— لا أدرى. ولا تنم عيناه عن شيء.

— ولكن النيل يا تومى.

— النيل — أطول — أنهار — أفريقيا — وثانى . . .

— إذن ما أطول الأنهار يا تومى؟

فينفجر تومى باكياً ويقول: «لست أدرى» ثم يصيح.

ووضح المدير للطلبة أن هذه الصيحة ثبطت همم الباحثين الأوائل. فتخلوا عن التجارب. ولم يقم أحد بعدئذ بمحاولات لتعليم الأطفال طول النيل أثناء النوم. وقد أصابوا. إنك لا تستطيع أن تتعلم علماً إلا إن عرفت فى أى شئ يبحث.

ثم تقدمهم المدير نحو الباب وتبعه الطلبة وهم يدونون كلام المدير على عجل وفى اهتمام شديد خلال سيرهم وأثناء ارتفاعهم بالمصعد. قال المدير: فى حين أنهم لو بدأوا بالتربية الخلقية، تلك التربية التى لا ينبغى — تحت أى ظرف — أن تكون عقلية . . .

وإذ هم يخرجون إلى الطابق الرابع عشر سمعوا مضخما من مضخمات الصوت يهمس قائلا: «الصمت، الصمت». وأفواه الأبواق تكرر هذا اللفظ «الصمت، الصمت» فى الردهات الفينة بعد الفينة دون أن يصيبها كلال. فنهض الطلبة — بل والمدير نفسه — من تلقاء أنفسهم فوق أطراف أصابعهم. وكانوا بطبيعة الحال من النوع (ا)، ولكن حتى هذا النوع كان حسن التكييف. ودوى الفضاء كله فى الطابق الرابع عشر بهذا الأمر المقدس: «الصمت، الصمت».

وبعد مسير خمسين ياردة على أطراف الأصابع بلغوا باباً فتحه المدير فى حرص شديد. ووطأوا المدخل، فاذا بهم فى غرفة نوم ذات نوافذ خشبية موصدة، ضوؤها كالشفق. ورأوا ثمانين سريراً صغيراً قائمة

إلى جوار الحائط . وطرق آذانهم صوت أنفاس منتظمة خافتة وتمتمة متصلة ، كأنها أصوات خافتة جداً تهمس من بعيد .

وعند دخولهم نهضت إحدى المربيات ووقفت أمام المدير تصغى إليه .

سألها : ما موضوع الدرس بعد ظهر اليوم ؟

فأجابت : كان عندنا فى الأربعين دقيقة الأولى شىء عن مبادئ الشئون الجنسية . أما الآن فقد غيرنا الموضوع وأخذنا ندرس مبادئ شعور الطبقات .

وسار المدير متباطئاً حذاء صف الأسرة الطويل ، فرأى ثمانين ولداً وبنتاً مستلقين نياماً ، متوردين مسترخين ، يزفرون أنفاساً خافتة . وسمع المدير همساً تحت كل وسادة ، فكف عن المسير ، وانحنى فوق أحد الأسرة الصغيرة وأنصت مصغياً .

وقال : هل قلت مبادئ شعور الطبقات ؟ لنكرر هذه العبارة بالبوق بصوت أكثر ارتفاعاً .

وكان فى نهاية الغرفة مضخم للصوت يبرز من الحائط . فسار المدير نحوه وضغط على زر من الأزرار .

وسمع صوت ناعم ، غير أنه واضح كل الوضوح ، يقول : « . . كلهم يلبس الأخضر » وقد بدأ العبارة من وسطها . ثم قال : « والأطفال من النوع (د) يلبسون الكاكى . كلا ، إنى لا أحب أن ألعب مع هؤلاء الأطفال . والأطفال (هـ) أسوأ حالا . إنهم أغبى من أن يستطيعوا القراءة أو الكتابة . وفوق ذلك ، فهم يلبسون الأسود ، وهو لون وحشى . أحمد الله إنى من النوع (ب) .

ثم كانت فترة سكون . وبدأ الصوت من جديد . قال : إن الأطفال (ا) يلبسون الرمادى ، وهم أكثر منا عملا لأنهم مهرة

جداً . إنى حقاً جد سعيد لأنى من الطراز (ب) لأنى لا أعمل كثيراً . ونحن خير من (حـ) و (د) . فطراز (حـ) أغبياء . كلهم يلبسون الأخضر والأطفال من نوع (د) يلبسون الكاكى . كلا . إنى لا أحب أن ألعب مع هؤلاء الأطفال . و (هـ) أسوأ حالا . إنهم أغبى من أن يستطيعوا ...

ودفع المدير الزر إلى الوراء ، فصمت الصوت . ولم يبق إلا صداه الخفيف يدق تحت الوسادات الثمانين .

إنهم يكررون ذلك أربعين أو خمسين مرة أخرى قبل أن يستيقظوا ، ثم يكررونه يوم الخميس مرة ويوم السبت مرة أخرى . مائة وعشرين مرة ، ثلاث مرات كل أسبوع ، لمدة ثلاثين شهراً . وبعد ذلك ينتقلون إلى درس أرق .

الورود والهزات الكهربية ؛ واللون الكاكى الذى يلبسه الطراز (د) ولفحة من نبات « أبى كبير » — هذه وتلك تقترن اقتراناً لا ينفك قبل أن يستطيع الطفل الكلام . ولكن التكييف بغير لفظ ساذج إجمالى لا يظهر الفروق الدقيقة ، ولا يقرر فى الذهن طرق السلوك المديدة التعقيد . الألفاظ ضرورية هنا ، ولكنها ألفاظ لا تقوم على العقل . هى — بإيجاز — هبنوبيديا .

— أعظم قوة خلقية واجتماعية فى جميع العصور .

ودون الطلبة ذلك فى كراساتهم الصغيرة رأساً من فم المدير .

ولمس المدير الزر مرة أخرى .

وكان الصوت الناعم الملقن الذى لا يفتر يقول : « . . . مهرة جداً . إنى حقاً جد سعيد لأنى من الطراز (ب) ، لأنى . . . »

حقاً إن الماء — وإن يكن لا يشبه القطرات — يستطيع أن يشق الثقوب فى أشد أحجار الجرانيت صلابة . كما أن القطرات من سائل

الشمع الأحمر تلتصق بما تقع فوقه وتغلفه وتتحد به ، حتى يصبح الصخر فى النهاية كتلة واحدة قرمزية .

« حتى يصبح عقل الطفل فى النهاية هو هذه الايحاءات . ومجموع هذه الايحاءات هو عقل الطفل . وليست عقل الطفل فحسب، إنما عقل الراشد كذلك — طوال حياته . إن العقل الذى يحكم ويشتهى ويقرر يتكون من هذه الايحاءات . ولكن كل هذه الايحاءات هى من ايحائنا ! » وكاد المدير يصيح من نشوة الظفر ، ثم قال : « من إيحاء الدولة » وضرب على أقرب منضدة ضربة شديدة وقال : « ويتبع ذلك . . . »

وسمع ضجيجاً فالتفت حول نفسه .

ثم قال بنغمة أخرى : يا لله ! لقد أيقظتُ الأطفال .

الفصل الثالث

كانت ساعة اللعب خارج البناء فى الحديقة . فكنت ترى ستمائة أو سبعمائة ولداً وبنتاً عرايا فى شمس يونيو الدفيئة ، يجرون فوق الحقول مجلجلين بالصياح ، أو يلعبون بالكور ، أو يجلسون القرفصاء صامتين اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة بين الشجيرات المزهرة . وكانت الورود متفتحة . وبالغابة عندليبان يناجيان نفسهما ، وبين أشجار الزيزفون وقواق يصدح أنغاماً غير منسجمة . والهواء يبعث على النوم بما فيه من طنين النحل ودوى الطائرات .

ووقف المدير وتلاميذه برهة قصيرة يرقبون شوطاً من لعبة تشبه التنس . وقد تجمع عشرون طفلا فى دائرة حول برج من معدن الكروم يقذف أحدهم الكرة إلى أعلى كى تستقر على إفريز بأعلى البرج ، ثم تتدحرج إلى الداخل ، وتسقط على قرص سريع الدوران ، ثم يلقى بها خلال إحدى الفتحات العديدة التى تخترق الغلاف الاسطوانى ، وتمسك بعد ذلك .

وبينما كان الطلبة ينصرفون قال لهم المدير متأملا : ألا يدهشكم أن أكثر الألعاب — حتى يوم عيد فورد — لا تحتاج من الأجهزة أكثر من كرة أواثنين وعدداً قليلا من العصى وربما قطعة من الشبك . تصوروا أن الناس يسمح لهم أن يلعبوا ألعاباً معقدة لا تعمل البتة على زيادة الاستهلاك . أليس ذلك حمقاً ؟ إنه جنون . إن المراقبين

اليوم لا يسمحون بأى لعبة جديدة إلا إن ظهر أنها تحتاج من الأجهزة على الأقل مثل ما تحتاج أشد الألعاب الموجودة تعقيداً .

وقاطع نفسه قائلا : « هذه مجموعة صغيرة فاتنة » وأشار إليها .

وكان هناك فى منحنى معشوشب بين مجموعة من أشجار الخلنج الطويلة التى تنمو فى منطقة البحر الأبيض المتوسط طفلان ، ولد صغير فى نحو السابعة من عمره ، وفتاة صغيرة قد تكبره بعام واحد ، يلعبان لعبة جنسية أولية ، وهما جادان ، وعليهما سيما العلماء الذين يركزون كل اهتمامهم فى عمل كشفى .

وكرر المدير قوله : « يا للفتنة ، يا للفتنة ! » وقد هزته العاطفة .

وأيده الطلبة فى أدب قائلين مثله « يا للفتنة ! » . ولكن بسماتهم كانت تنم عن رعاية الكبير للصغير . لأنهم تخلوا عن مثل هذه الملاهى الصبيانية من عهد قريب جداً حتى لقد شق عليهم أن يرقبوها دون شىء من الاحتقار . ما الذى يفتنهم ؟ لقد كانا طفلين يلهوان ، وهذا كل ما فى الأمر . طفلين فقط .

وواصل المدير حديثه فى نغمة النشوان التى بدأ بها وقال : « إننى أظن دائماً . . . » ثم قاطعه صوت مرتفع يجهش بالبكاء .

وبرزت من الغابة المجاورة مربية تقود بيدها ولداً صغيراً يصيح أثناء المسير . وفى إثرها فتاة صغيرة عليها سيما الاهتمام والقلق .

سألها المدير : ما الأمر ؟

فهزت المربية كتفيها وأجابت : الأمر يسير . إن هذا الولد الصغير كان يحجم قليلا عن الاشتراك فى المغازلة العادية . وقد لحظت ذلك من قبل مرة أو مرتين . ولحظت ذلك اليوم مرة أخرى وقد بدأ الآن يصيح . . .

وعقبت على ذلك الفتاة الصغيرة القلقة قائلة : إننى — وأيم الحق — لم أقصد أن أؤذيه ، أو أن أصيبه بأى شىء .

وقالت المرضة وهى تطمئنها : «إنك لم تقصدى ذلك بالطبع ياعزيزتى.» ثم واصلت حديثها وقد التفتت نحو المدير ثانية ، وقالت : . . . ولذا فأنا سوف آخذه إلى مراقب علم النفس المساعد ، لكى يرى إن كان به شذوذ .

قال المدير : « لقد أصبت . خذيه ، وابقى أنت هنا أيتها الفتاة الصغيرة » وانصرفت المربية فى صحبة الولد الباكى الذى عهد به إليها.

وسأل المدير الفتاة : ما اسمك ؟

قالت : بولى تروتسكى .

قال المدير : إنه اسم جميل جداً . انطلقى الآن وحاولى أن تجدى ولداً صغيراً آخر تلعبين معه .

فهرولت الفتاة بين الأشجار واختفت عن الأنظار .

وتابعها المدير بالنظر قائلا : « يا لها من مخلوق صغير نفيس ! » ثم التفت إلى تلاميذه وقال : إن ما سأحدثكم عنه الآن قد يبدو لكم أمراً لا يحتمل التصديق . ولكن المرء إذا لم يتعود العلم بالتاريخ يحسب أن أكثر حقائق الماضى مما لا يحتمل التصديق .

ثم نطق بحقيقة تدعو إلى الدهشة حقاً . قال : قبل عصر فورد بزمن طويل جداً ، بل وبعد عصره ببضعة أجيال ، كانوا يحسبون الغزل بين الأطفال أمراً شاذاً . (فقهقه الطلبة ضاحكين .) لم يحسبوه شاذاً فحسب ، بل كذلك أمراً لا يتفق وقواعد الأخلاق (قال الطلبة : لا أظن ذلك !) ولذا فقد حرموه تحريماً باتاً .

وبدت على وجوه المستمعين له نظرة الدهشة وعدم التصديق .

لقد أدهشهم أن يسمعوا أن الأطفال المساكين لم يسمح لهم بامتاع أنفسهم . ولم يسعهم إلا عدم التصديق .

قال المدير : حتى المراهقين من أمثالكم . . .

— مستحيل !

— كانوا يحرمون قليلا استمتاع الفرد بنفسه خفية استمتاعاً جنسياً أو تبادل المتعة الجنسية بين أفراد الجنس الواحد — المتعة الجنسية محرمة كل التحريم .

— كل التحريم ! عجباً !

— أجل ، هو كذلك فى أكثر الأحوال ، حتى يُربى الفرد على العشرين من العمر .

فردد الطلبة هذه الكلمات « العشرين من العمر » فى صوت واحد ينم عن عدم التصديق .

وكرر المدير كلمة « العشرين » ثم قال : لقد قلت لكم أنكم سوف تجدون الأمر بعيد التصديق .

فسأل الطلبة : وما الذى حدث ؟ وماذا كانت النتيجة ؟

« كانت النتيجة مزعجة » . ثم رن وسط حديثهم صوت عميق أثار فيهم الذعر الشديد .

والتفتوا خلفهم ، فاذا برجل غريب ربعة ، أسود الشعر ، ذى أنف مدبب ، وشفتين حمراوين ممتلئتين ، وعينين سوداوين نافذتين يقف عند طرف تلك المجموعة الصغيرة .

وكان المدير فى تلك اللحظة قد جلس على أحد المقاعد المصنوعة من الصلب والمطاط ، التى كانت تنتشر بصورة مريحة خلال الحدائق . ولكنه عند مرأى هذا الرجل الغريب ، نهض واقفاً واندفع

إلى الأمام ويداه مبسوطتان ، يبتسم بملء فيه ، مبدياً كل أسنانه .

فصاح به المدير : أهلا بالمراقب ! يا له من سرور غير منظور ! فيم تفكرون أيها الأولاد ؟ هذا هو المراقب . هذا صاحب السيادة مصطفى مند .

حينئذ دقت الرابعة فى وقت واحد أربعة آلاف ساعة كهربية فى الأربعة آلاف حجرة التى يتألف منها المركز . وخرجت من أفواه الأبواق أصوات كأنها صادرة من أجسام حية . وكانت تردد هذا القول : الآن ينتهى عمل الدور الأول من النهار ، ويبدأ عمل الدور الثانى . انتهى دور النهار الأول . . .

وكان هنرى فستر ومدير المصائر المساعد بالمصعد فى طريقهما إلى الغرف العليا للتبادل . وقد وليا برنارد ماركس من رجال مكتب علم النفس ظهريهما فجأة . فابتعدا عن رجل له سمعة سيئة .

وما برح طنين الآلات الخافت ودويها يتردد فى الجو القرمزى داخل مخزن الأجنة . والرجال الذين يتناوبون العمل يروحون جيئة وذهاباً ، هذا وجه يعانى السل الجلدى يخلى السبيل لوجه آخر . والحمالون يزحفون قدماً بأنوف شامخة وبغير انقطاع يحملون رجال المستقبل ونساءه .

وسارت لينا كراون مسرعة نحو الباب .

كان ذلك الرجل صاحب السيادة مصطفى مند ! وكادت أعين الطلبة أن تخرج من رؤوسهم تحية له . ذلك هو مصطفى مند المراقب المقيم بغرب أوربا . وهو أحد مراقبى العالم العشرة . وقد جلس مع المدير على المقعد . وسوف يمكث معهم ويتحدث إليهم فعلا .

فيدونون مذكراتهم رأساً من فيه ، أى رأساً من فم فورد نفسه .

و برز من الغابة المجاورة طفلان فى لون برغوث البحر البنى . فحدقا فيهم لحظة بأعين واسعة دهشة ، ثم عادا إلى لهوهم بين أوراق الأشجار .

وقال المراقب بصوته القوى العميق : « أحسب أنكم تذكرون جميعاً قول فورد الجميل الذى أوحى له به وذلك أن التاريخ أكذوبة لذيذة . » وكرر هذه العبارة فى بطء شديد .

ثم لوح بيده ، وكأنه يزيل التراب بمذبة من الريش لا ترى . ذلك التراب هو ما يروى عن هاربا Harappa وأور Ur فى كلديا . وكأنه كذلك يبدد نسيج العنكبوت ، وذلك النسيج هو ما يروى عن طيبة وبابل وكنسس Cnossos وميسينى Mycenae . وكأنه بالمذبة كذلك يبدد الأوديسى ، وأيوب ، والآله جوبتر وجوتما Gotama ويسوع . وكأنه بالمذبة كذلك يزيل تلك البقع القذرة العتيقة التى نسميها أثينا وروما وبيت المقدس والمملكة الوسطى . وكأنه بها كذلك يمحو المكان الذى كانت تقوم عليه إيطاليا . وبها كذلك يمحو الكنائس الكبرى ، والملك لير ، وآراء باسكال . وبالمذبة كذلك يبدد العواطف ، وصلاة الجناز ، والسمفونى و . . . و . . .

وسأل مساعد مدير المصائر هنرى قائلا : هل أنت ذاهب هذا المساء إلى دار الصور المحسة ؟ لقد سمعت أن الصورة الجديدة فى الهمبرا ممتازة . وأن بها منظر حب فوق سجادة من جلد الدب . يقولون إنه جد عجيب ، وإن كل شعرة من شعر الدب أمكن إخراجها وهذه أعجب الصور المحسة .

قال المراقب : وذلك هو السبب فى أنكم لا تتعلمون التاريخ أما الآن فقد حان الوقت . . .

ونظر إليه المدير وهو فى حالة عصبية . فقد نميت إليه تلك الاشاعات العجيبة عن الكتب القديمة المحرمة المخبأة فى إحدى الخزانات فى مكتب المراقب ، كالانجيل ودواوين الشعر ، وغير ذلك مما لا يعلمه إلا فورد .

واعترض مصطفى مند نظرته الحائرة ، والتوت زوايا شفتيه الورديتين تهكماً وسخرية . وقال فى نغمة تنم عن الازدراء الخفيف : حقاً أيها المدير إننى لن أفسدهم .

وغلب على المدير الارتباك .

إن أولئك الذين يشعرون باحتقار الآخرين لهم محقون حين ينظرون إلى غيرهم بعين الاحتقار . ولقد ارتسمت على ثغر برنارد ماركس ابتسامة الازدراء . هل أمكن حقاً إخراج كل شعرة من شعرات الدب !

وقال هنرى فستر : سوف أهتم بالذهاب .

وانحنى مصطفى مند إلى الأمام ، وهز لهم إصبعه وقال وقد بعث صوته فى حجبهم الحاجزة هزة غريبة مثيرة : حاولوا أن تدركوا كيف كانت الحال حينما كانت الأمهات تتناسل ؟

تلك الكلمة الفاحشة مرة أخرى ! ولكن أحداً منهم لم يدر بخلده هذه المرة أن يبتسم .

— حاولوا أن تتصوروا معنى « عيش الفرد مع أسرته » .

ولقد حاولوا . وكان من الواضح أنهم لم يصيبوا أدنى نجاح .

— وهل تعرفون ما « البيت » ؟

فهزوا رؤوسهم .

وصعدت لينينا كراون سبعة عشر طابقاً من غرفتها السفلى المظلمة القرمزية . وخرجت من المصعد ، ثم التفت يميناً ، وسارت بحذاء ممر طويل ، وفتحت الباب الذى كتب عليه « حجرة اللبس للبنات » . وغاصت فى خضم مضطرب من الأذرعة والصدور والأردية الداخلية . وكان هناك مائة حمام تندفع فيها أو تنبجس منها سيول من الماء الساخن . وكنت تسمع الدوى والأزيز يصدر عن ثمانين آلة من آلات التدليك المفرغة المذبذبة ، وهى تدلك وتجفف فى وقت واحد الأجسام الصلبة التى لفحتها الشمس بحرارتها لثمانين نموذج رفيع من نماذج الاناث . وكانت كل منهن تتكلم بأعلى صوتها . وكانت هناك كذلك آلة للموسيقى المركبة تنشد نغمة فردية كأنها من بوق عظيم .

وقالت لينينا إلى الشابة التى كان إلى جوارها المشاجب والصندوق المقفل : أهلا فانى .

وكانت فانى تعمل بغرفة القوارير ، وكان اسم أسرتها كذلك كراون . ولكن حيث أن الألفى مليون من السكان الذين يقطنون هذا الكوكب لم يكن لهم سوى عشرة آلاف اسم لهم جميعاً ، فان تشابه الأسماء لم يكن أمراً عجيباً .

وجذبت لينينا مشبك سترتها إلى أسفل ، وقد أشارت بيديها إلى الفتاتين اللتين أمسكتا بالسراويل أن يخلعاها ، وأشارت إلى غيرهن أن يحللن رداءها السفلى . ثم انطلقت نحو الحمامات وما برحت تلبس حذاءها وجواربها .

البيت وما أدراك ما البيت : هو بضع حجرات صغيرة ، يزدحم إلى حد الاختناق بساكنيه ، وهم رجل ، وامرأة تلد بين الحين والحين ،

وثلة من البنين والبنات من مختلف الأعمار . الهواء فيه منعدم ، والفضاء منعدم . كأنه سجن قذر ، ينتشر فيه الظلام والمرض والروائح الكريهة .

(وكان تعبير المراقب شديد الوضوح جداً ، حتى أن ولداً من الأولاد ، أشد حساسية من الآخرين ، شحب لونه عند مجرد الوصف ، وأوشك أن يخر عليلا .)

وخرجت لينا من الحمام ، وجففت نفسها بالمنشفة ، وأمسكت بأنبوبة طويلة مرنة مثبتة فى الحائط ، ووضعت طرفها فوق ثدييها كأنها تروم الانتحار ، ثم ضغطت على المفتاح الضابط إلى أسفل . فاذا بزوبعة من الهواء الدافئ تنثر فوقها مسحوق التالكم الدقيق . وكان فوق حوض الغسيل ثمانية أنواع مختلفة من العطور والكولونيا تتدفق من الصنابير . وقد فتحت الصنبور الثالث من جهة الشمال ، وبللت نفسها « بالشبر » . وحملت حذاءها وجواربها فى يدها ، ثم خرجت لعلها تجد إحدى الآلات المفرغة المذبذبة خالية من العمل .

والبيت قذر من الوجهة النفسية كما هو قذر من الوجهة المادية . فهو من الوجهة النفسية أشبه ما يكون بجحر الأرنب أو كومة القاذورات . الحياة فيه مكدسة أشد التكديس ، ولذا يكثر فيه الاحتكاك وتضطرم العواطف . وما أكثر ما ينشب بين أعضاء الأسرة من تقارب خانق وعلاقات خطرة جنونية فاسدة ! والأم تحنو على أطفالها (وأقول أطفالها هى) كالمجنونة . إنها تحنو عليهم كما تحنو الهرة على الهريرات . ولكنها هرة تستطيع الكلام ، وتستطيع أن تقول وتكرر قولها : « ولدى ، ولدى . هيه يا ولدى . إنه فوق صدرى .

ما أصغر يديه . إنه جائع . ما أشد سرورى به رغم إيلامى ! وأخيراً ينام ولدى وعلى جانب فمه فقاعة من اللبن الأبيض . إنه ينام . . . »

قال مصطفى مند وقد أومأ برأسه : نعم ، لكم أن ترتعدوا .

وعادت لينا من عملية الآلة المفرغة المذبذبة كأنها لؤلؤة تضىء من داخلها ، وتومض ببريق قرنفلى ، ثم سألت : مع من سوف تخرجين هذا المساء ؟

— لا أحد .

فرفعت لنا حاجبيها من الدهش .

قالت فانى : لقد شعرت أخيراً بشىء من التوعك . فنصحنى الدكتور ولز أن آخذ « عوضاً عن الحمل » .

ولكنك بلغت التسع عشرة من العمر فقط يا عزيزتى . وعوض الحمل الأول لا يتحتم إلا فى الحادية والعشرين .

« أعرف ذلك يا عزيزتى . ولكن من الناس من يتحسن لو بكر به . لقد خبرنى الدكتور ولز أن السمراوات ذوات الحوض الواسع من أمثالى يجب أن يأخذن عوض الحمل الأول فى السابعة عشرة . ولذا فانى فى الواقع تأخرت عامين . ولم أبكر بهما . » وفتحت باب خزانتها وأشارت إلى صف من الصناديق و إلى القوارير ذوات البطاقات فوق الرف العلوى .

وقرأت لينا العبارات بصوت مرتفع . هذه عصارة بعض خلايا المبيض . أوفارين ، طازج مضمون : لا يستعمل بعد أول أغسطس من عام ٦٣٢ ف . خلاصة الغدة الثديية . تؤخذ ثلاث مرات كل يوم، قبل الوجبات ، مع قليل من الماء . المشيمة : ٥ حـ حـ ، يستعمل للحقن

مرة كل ثلاثة أيام فارتعدت لينا وقالت : أوه إننى أكره حقن الوريد . ألست مثلى ؟

قالت فانى وهى فتاة حساسة جداً : أجل ، ولكنها حين تنفع المرء . . .

كان فورد — أو فرويد كما كان يحب أن يسمى نفسه (لسبب لا نفهمه) كلما تحدث عن الشئون النفسية — أول من كشف عن الأخطار المروعة فى الحياة العائلية . كان العالم مليئاً بالآباء — ولذا كان مليئاً بأسباب الشقاء . وكان مليئاً بالأمهات — ولذا كان مليئاً بكل نوع من أنواع الشذوذ من السادزم (أو الولع بتعذيب الآخرين) إلى العفة . وكان مليئاً بالإخوة والأخوات والأعمام والعمات — ولذا فهو ملىء بالجنون والانتحار .

— ومع ذلك فمتوحشو ساموا ، فى بعض الجزر البعيدة عن ساحل غنيا الجديدة . . .

وسطعت الشمس الاستوائية كالشهد الدافىء فوق أجساد الأطفال العارية الذين يتقلبون بغير نظام بين زهرات البامية . وكان البيت فى أى منزل من المنازل العشرين ذات السقوف المصنوعة من النخيل . وكان الحمل عند أهل طروبرانده عمل الأسلاف البائدين . ولم يسمع أحد بالأب .

قال المراقب : إن المتناقضات تتلاقى ، لا لشىء إلا لأنها خلقت لكى تتلاقى .

— يقول الدكتور ولز إن الاستعاضة عن الحمل ثلاثة شهور يكون لها أثر كبير فى صحتى خلال السنوات الثلاث أو الأربع المقبلة .

قالت لينا : أرجو أن يكون مصيباً ، ولكن هل تقصدين حقاً أن تقولى يا فانى إنك خلال الأشهر الثلاثة المقبلة لا يصح أن . . .

— كلا يا عزيزتى . إنما يكون ذلك لمدة أسبوع أو أسبوعين فقط . سأقضى هذا المساء فى النادى ألعب البريدج الموسيقى . وأظن أنك ستخرجين ، أليس كذلك ؟

فأومأت لنِنا برأسها .

— مع من ؟

— مع هنرى فستر .

« مرة أخرى ؟ » وبدا على وجه فانى الشفيق الشاحب كالقمر تعبير غير ملائم ينم عن دهشة الألم وعدم الموافقة . ثم قالت : هل تقصدين أن تقولى إنك لا زلت تخرجين مع هنرى فستر ؟

الأمهات والآباء ، الاخوة والأخوات . وكان هناك كذلك الأزواج والزوجات والعاشقون . وكان هناك كذلك الزواج من واحدة والهيام .

قال مصطفى « مند : و إن كنتم ربما لاتعرفون ما هذه الأشياء . »

فهزوا رؤوسهم .

الأسرة والزواج من واحدة ، والهيام . فى كل هذا تلمس التحديد والاهتمام المركز ، وتوجيه الدوافع النفسية والنشاط فى قناة ضيقة .

ثم اختتم حديثه مردداً المثل الهنبويدى : كل فرد يتعلق بكل فرد آخر .

فأومأ الطلبة برؤوسهم بالموافقة مؤيدين عبارة سمعوها أكثر من ٦٢ ألف مرة فى الظلام ، مما جعلهم لا يقبلون صدقها فحسب ، بل يعتبرونها بدهية توضح نفسها ، لا جدال البتة فيها .

واحتجت لينا قائلة : ولكنى لم ينقض علىّ أكثر من أربعة أشهر تقريباً منذ رفقتى لهنرى .

قالت فانى : « أربعة أشهر فقط ! إنى أحب ذلك . » ثم واصلت حديثها مشيرة بأصبعها كأنها تتهم غيرها ، وقالت : وأكثر من ذلك، لم يكن هناك غير هنرى طوال هذه المدة . أليس كذلك ؟

فاحمرت لينا خجلا وتوردت وجنتاها، ولكنها تحدت زميلتها بنظرة عينيها ونغمة صوتها . وأجابت فى شراسة شديدة . قالت : كلا . لم يكن هناك رجل آخر . ولست أرى البتة لماذا يكون هناك ثان .

ورددت فانى عبارتها : « لست أرى البتة لماذا يكون هناك ثان . » وكأنها توجه الخطاب إلى منصت غير مرئى خلف كتف لينا اليسرى . ثم غيرت نغمة صوتها فجأة وقالت : ولكنى أظن حقاً — وأنا جادة — أنك ينبغى أن تحرصى . إن دوام صحبتك لرجل واحد سىء جداً . إذا كنت فى الأربعين أو الخامسة والثلاثين فان الأمر لا يكون سىء إلى هذا الحد . ولكنه لا يليق بك البتة فى سنك يا لينا . وأنت تعلمين كيف يعترض المدير بشدة على كل تركيز أو مواصلة فى أى شأن من الشئون . أربعة شهور مع هنرى فستر ، دون أن يكون لك رجل آخر أحسب أنه يغضب لو عرف . . .

قال المراقب : « تخيلوا الماء تحت الضغط فى إحدى الأنابيب . » فتخيل الطلبة ذلك . ثم قال : سأطعنه مرة، وسوف ترون مقدار انبثاقه . وطعنه عشرون مرة ، فتفجرت عشرون نافورة صغيرة يتحدر منها قطرات صغيرة من الماء .

— ولدى ، ولدى ! . . .

« أماه ! » إن الجنون معدٍ .

— حبيبى ، وحيدى ، عزيزى ، عزيزى . . .

الأم والزواج من واحدة والهيام . وانبثقت مياه النافورات إلى أعلى . وكان انبجاسها مزبداً شديداً . ولم يكن للدافع سوى مخرج واحد . حبيبى ، ولدى . لا عجب إن كان هؤلاء القوم المساكين السابقون لأبناء العصر الحديث مجانين خبيثين تعساء . فان دنياهم لم تسمح لهم أن يكونوا أصحاء العقول فاضلين سعداء . ذلك أنهم كانوا يعانون وجود الأمهات والمحبين ، والمحرمات التى لم يألفوا اقترافها ، ووسائل الاغراء ووخزات الضمير عند الوحدة ، والأمراض وآلام العزلة التى لا تنتهى ، والشكوك والفقر . وإذا كان إحساسهم بذلك شديداً ، يزداد فى حالات العزلة الفردية التى لا رجاء فيها ، فكيف يستقرون ؟

— ليس ثمة بك حاجة إلى التخلى عنه . ولكن ليكن لك غيره من حين إلى آخر . هذا كل ما فى الأمر . فان لديه بنات أخريات . أليس كذلك ؟

فاعترفت بذلك لينا .

— بالطبع . وثقى أن هنرى فستر هو الرجل المهذب الكامل — وهو دائماً على صواب . ثم هناك المدير تعتبرين به . أنت تعرفين أنه يصر على أن . . .

وأومأت لينا برأسها وقالت : لقد ضربنى من الخلف ضربة خفيفة اليوم بعد الظهر .

فانتصرت فانى وقالت : هأنتذا . إن هذا يبين لك عقيدته . التقيد بالقديم إلى أبعد الحدود .

وقال المراقب : « الاستقرار ، الاستقرار . لا حضارة بغير استقرار اجتماعى . ولا يكون الاستقرار الاجتماعى بغير استقرار الفرد . » وكان صوته كالبوق . استمع إليه الطلبة فأحسوا بالعظمة وبالدفء .

إن الآلة تدور ثم تدور . إنها تدور إلى الأبد بغير انقطاع . والموت إن وقفت . إن ألف مليون نقشوا قشرة الأرض . ثم بدأت العجلات تسير . وفى خلال مائة وخمسين عاماً كان هناك ألفا مليون . ولو وقفت العجلات جميعاً هبط العدد مرة أخرى إلى ألف مليون فقط فى مائة وخمسين أسبوعاً ، فان ألف ألف ألف رجل وامرأة يهلكون ويفنون .

يجب أن تدور العجلات بغير انقطاع ، ولكنها لا تدور بغير رقابة . لا بد من وجود الرجال الذين يرقبونها . رجال فى ثبات العجلات فوق محاورها ، رجال عقلاء ، مطيعون ، ثابتون فى قناعتهم .

ولكنهم يصيحون : ولدى ، أمى ، وحيدى ، حبيبى الأوحد . ويئنون قائلين : خطيئتى ، إلهى الجبار . ويصيحون متألمين ، ويدمدمون من الحمى ، ويولولون من الشيخوخة والفقر — فكيف يعنون بالعجلات ؟ وإذا لم يعنوا بها . . . إن جثث ألف ألف ألف رجل وامرأة يشق دفنها أو إحراقها .

قالت فانى متلطفة : وفى النهاية ليس هناك ما يؤلم أو ينفر إن كان لك إلى جانب هنرى رجل آخر أو رجلان . فان أدركت هذا ، فانه ينبغى لك أن تكونى على شىء من الفوضى . . .

وأصر المدير على أن « الاستقرار هو حاجتنا الأولى والأخيرة . الاستقرار هو سبب كل هذا » .

ولوح بيده مشيراً إلى الحدائق ، وإلى البناء الضخم، مركز التكييف ، وإلى الأطفال العارين وقد تواروا بين الأشجار أو انطلقوا خلال الحقول .

وهزت لننا رأسها وقالت : إننى لم أحس أخيراً بالرغبة الشديدة فى الفوضى . إن الانسان لا يحس ذلك فى بعض الأحايين . ألم تصلى إلى هذا أنت كذلك يا فانى ؟

فأومأت فانى برأسها دليلا على العطف والادراك . ثم قالت فى إيجاز : ولكن لا بد للمرء من بذل الجهد . لا بد له من تمثيل الدور . فكل فرد يتعلق بكل فرد آخر .

وكررت لننا هذه العبارة « أجل ، إن كل فرد يتعلق بكل فرد آخر » فى بطء شديد . ثم تنهدت وصمتت لحظة . وتناولت يد فانى وضغطت عليها بخفة وقالت : لقد أصبت يا فانى. وسأبذل الجهد كالمعتاد.

وبعدما تتدفق القطرات المحبوسة ، التى تسبب الانفعال، ينبثق فيض من الشعور ، أو فيض من العواطف ، أو حتى من الجنون . فان ذلك يتوقف على قوة التيار ، وعلى ارتفاع الحاجز وقوته . فالتيار الذى لا يقف فى سبيله شىء يتدفق بيسر خلال مجاريه المعينة فيكون الهناءة والهدوء والجنين جائع . والأيام تتوالى ومضخة الدم تدور بغير انقطاع دوراتها الثمانمائة كل دقيقة . ويصيح الطفل فى القارورة . فتظهر فى الحال سربية ومعها زجاجة من الافراز الخارجى . ويكمن الشعور فى تلك الفترة من الزمن التى تقع بين الرغبة وإنجازها . وإذا قصرت تلك الفترة حطمت كل تلك الحواجز القديمة غير الضرورية .

وقال المراقب : ما أسعد حظكم يا أبنائى . إننا لم ندخر وسعاً فى

أن نجعل حياتكم سهلة من الناحية العاطفية — لكى نحفظكم — كلما أمكن ذلك — من أن يكون لكم أى نوع من أنواع العواطف .

وتمتم المدير قائلا : إن فورد فى سيارته الرخيصة(١) ، وكل شىء فى الدنيا على ما يرام .

وردد هنرى فستر سؤال مساعد مدير المصائر وهو يزم سراويله « لننا كراون ؟ » ثم قال : إنها فتاة عظيمة . هوائية بدرجة تدعو إلى العجب . ويدهشنى أنك لم تظفر بها .

قال مساعد مدير المصائر : لا أستطيع أن أتصور كيف كان ذلك . سوف أظفر بها فى أول فرصة تسنح .

وكان برنارد ماركس فى الجانب الآخر من الممر فى حجرة التغيير وقد استمع إلى ما كانا يتحدثان به . وشحب لونه .

قالت لينا : « وأصدقك القول ، لقد بدأت أن أمل بعض الشىء ألا يكون غير هنرى كل يوم . » وجذبت جوربها الأيسر وسألت بنغمة عرضية جداً كان من الجلى أنها اضطرت إليها اضطراراً . قالت : هل تعرفين برنارد ماركس ؟

فبدا الذعر على فانى وقالت : لعلك لا تقصدين . . . ؟

— ولماذا لا أقصد ؟ فان برنارد من النوع (+ ١) . ثم إنه فوق ذلك طلب إلىّ أن أذهب معه إلى أحد الأماكن المخصصة للمتوحشين وكنت دائماً أتوق إلى أن أرود أحد تلك الأماكن .

(١) هذه إشارة إلى بيت من الشعر القديم ترجمته « الله فى سمائه وكل شىء فى الدنيا على ما يرام » فاستبدل الكاتب هنا فورد بالله والسيارة بالسماء متهكما من العالم الجديد البديع !

— ولكن سمعته ؟

— فيم تهمنى سمعته ؟

— يقولون إنه لا يحب لعبة جُلف الموانع .

وقالت لننا ساخرة : إنهم يقولون ويقولون .

وقالت فانى فى صوت ينم عن الرعب : ثم هو يقضى أكثر وقته وحيداً منعزلا .

« لكنه لن يكون وحيداً وهو معى . ثم إنى لا أدرى لماذا تغلظ قلوب الناس معه إلى هذا الحد ؟ أظن أنه على كثير من الظرف . » ثم ابتسمت لنفسها . لقد كان يخجل بدرجة غير معقولة — بل قل كان يخشاها — كأنها مراقبة عالمية وهو عامل من نوع (— ح) من عمال الآلات .

قال مصطفى مند : فكروا فى حياتكم . هل اصطدم أحدكم مرة ما بعقبة لا يمكن التغلب عليها ؟

فكانت الاجابة بالصمت الذى يدل على النفى .

— وهل اضطر أحدكم إلى أن يعيش فترة طويلة من الزمن بين الاحساس بالرغبة وتحقيقها ؟

وهم أحد الأولاد بالاجابة ، ثم تردد .

فقال له المدير : انطق ولا تجعل صاحب السيادة فى انتظارك .

— اضطررت مرة أن أنتظر نحو أربعة أسابيع قبل أن تسمح لى فتاة اشتهيتها بحيازتها .

— وهل أحسست بعاطفة قوية نتيجة لذلك ؟

— بل مزعجة .

قال المدير : هى حقاً مزعجة . ولقد بلغ بأسلافنا الغباء وقصر النظر أنهم قاطعوا المصلحين الأوائل الذين تطوعوا لانقاذهم من هذه العواطف المزعجة .

واصطكت أسنان برنارد وهو يقول : « إنهم يتحدثون عنها كأنها قطعة من اللحم . يظفر بها هذا أو يظفر بها ذاك كأنها لحم الضأن . إنهم ينحطون بها فيعاملونها كأنها ضأن . لقد قالت إنها سوف تفكر فى الأمر . وقالت إنها سوف تجيبنى هذا الأسبوع . أى فورد ، يافورد . » وكان يحب أن يتوجه إليهما ويضربهما على وجههما ضرباً شديداً مرة بعد أخرى .

وكان هنرى فستر يقول : نعم إنى حقاً أنصح لك أن تجربها .

— خذوا مثالا ميلاد الأطفال بغير حمل . لقد رسم بفتسنر وكواجوشى الطريقة الفنية لذلك كاملة . ولكن هل أعارتها الحكومة اهتماماً ؟ كلا . فلقد كان هناك شىء اسمه المسيحية . وكان النساء يرغمن على أن يبقين من الكائنات التى تتناسل بالحمل .

قالت فانى : ما أقبحه !

— ولكنى أحب ملامحه .

« وهو صغير الحجم جداً . » وقطبت فانى وجهها . لأن صغر الحجم كان دليلا على انحطاط النوع وبشاعته .

قالت لننا : أظن ذلك محبباً نوعاً ما . فالمرء يحس بالميل إلى تدليله ، كأنه قط .

وكانت تلك صدمة لفانى . قالت : يقولون إن أحد العمال أخطأ معه وهو ما يزال فى القارورة — حسبه من (ح) ووضع الكحول فى دمه وهذا هو السبب فى نقص نموه .

فقالت لنينا حانقة : ما هذا الهراء !

— كان التعلم أثناء النوم محرماً بالفعل فى انجلترا . وكان هناك شىء اسمه الحرية . وأصدر البرلمان — إن كنتم تعرفون ما هو — قانوناً ضدها . وما زالت السجلات باقية . لدينا خطب عن حرية الموضوع . والحرية فى أن تكون عاجزاً بائساً . والحرية فى أن يضع المرء نفسه موضعاً شاذاً .

وربت هنرى فستر على كتف مساعد مدير المصائر وقال : ولكن أؤكد لك يا عزيزى أنك سوف تلقى ترحيباً . وعلى كل حال فان كل فرد يتعلق بكل فرد آخر .

وفكر برنارد ماركس وهو متخصص فى التعلم أثناء النوم (هبنوبيديا) فى التكرار مائة مرة ثلاث مرات فى الأسبوع لمدة أربع سنوات . إن التكرار ٦٢٤٠٠ مرة يكوّن حقيقة واحدة . يا لهم من بلهاء !

— أو نظام الطبقات . كانوا يقترحونه دائماً ، وينبذونه دائماً . وكان هناك شىء اسمه الديمقراطية . كأن الناس كانوا متساويين فى ناحية أخرى غير مساواتهم الجثمانية الكيمائية .

— كل ما أستطيع أن أقوله إنى سوف أقبل دعوته .

وكان برنارد يمقتها كل المقت . ولكنهما اثنان ، عظيمان ، قويان .

— بدأت حرب السنوات التسع عام ١٤١ ف .

— إن ذلك لن يكون حتى لو صدق ما قيل عن الكحول فى دمه .

— فسجين وكلوروبكرين واثيليود وا كيتيت وديفينيلكيانارسين وتركلور ميثيل كلورفورميت وكلوروثيل سلفايد . ولا داعى لذكر حامض هيدرو كيانك .

واختتمت لينينا الحديث قائلة : وهو مالا أصدقه .

— الضجة التى تحدثها أربعة عشر ألف طائرة تتقدم بنظام صريح ولكن فى كورفرستندام وارندسمنت الثامن ، لا يكاد صوت انفجار قنابل الحجرة يعلو على فرقعة كيس من الورق منفوخ .

— ذلك لأنى أحب أن أرى أحد الأماكن المخصصة للمتوحشين .

كن٣ ك٦ يد٢ (زا٢) + ر (كزا٢) = ماذا ؟ جحر كبير فى الأرض ، وكومة من البناء ، وقطع من اللحم والمخاط ، وقدم لا زالت تلبس الحذاء . تطير فى الهواء ثم تسقط على الأرض ، وتحدث صوتاً وسط نباتات إبرة الراعى — القرمزى منها خاصة . لقد كان معرضاً فاخراً فى ذلك الصيف !

— لا رجاء منك يا لينينا . لقد يئست منك .

— وكانت الطريقة الروسية الفنية لافساد موارد المياه طريقة فريدة تدل على النبوغ .

واستمرت فانى ولينينا فى التغيير صامتتين ، وقد ولت كل منهما الأخرى ظهرها .

— حرب السنوات التسع ، والانهيار الاقتصادى الكبير . كان الناس أمام أمرين : إما السيطرة على العالم أو دماره . إما الاستقرار أو . . .

وقال مساعد مدير المصائر : إن فانى كراون فتاة جميلة كذلك .

انتهى الدرس الأول فى شعور الطبقات فى حجرات الأطفال ، وكانت الأصوات توائم بين الطاقة والامداد الصناعى فى المستقبل . وتهمس قائلة : أحب الطيران ، أحب الطيران ، أحب الحصول على الملابس الجديدة ، أحب . . .

— ماتت الحرية بالطبع من أثر قنبلة الجمرة . ولكنك مع هذا لا تستطيع أن تفعل شيئاً بالقوة .

— ليست هوائية كلينينا .

واستمر الهمس الذى لا يفتر يقول : ولكن الملابس العتيقة رديئة جداً . إننا دائماً نطرحها جانباً . الاستغناء عنها خير من إصلاحها . الاستغناء عنها خير من إصلاحها . الاستغناء عنها خير . . .

— الحكم يتم بالجلوس لا بالضرب . فأنت تحكم بالعقل والارداف ، ولا تحكم بقبضة اليد . فكان هناك مثلا تجنيد الاستهلاك .

قالت لينينا : « أنا مستعدة . دعنا نقيم الصلح يا عزيزتى فانى . » ولكن فانى بقيت صامتة متحولة عنها .

— كل رجل وكل امرأة وكل طفل يرغم على استهلاك قدر معين كل عام . وذلك لمصلحة الصناعة . والنتيجة الوحيدة . . .

— الاستغناء خير من الاصلاح . كلما زاد الرتق قلت الثروة . كلما زاد الرتق . . .

قالت فانى مؤكدة فى نغمة محزنة : سوف يشكل عليك الأمر فى يوم من الأيام .

— اعتراض الضمير الحى بدرجة هائلة . أى شىء لا يستهلك . عود إلى الطبيعة .

— إنى أحب الطيران . إنى أحب الطيران .

— عود إلى الثقافة . نعم إلى الثقافة فعلا . إنك لا تستهلك كثيراً إذا جلست صامتاً وأخذت تقرأ الكتب .

وسألت لينينا : « هل أنا حسنة المظهر ؟ » وكانت سترتها مصنوعة من قماش حامض الزجاج الأخضر وعلى سوارها وبنيقتها فراء لزج .

— إن ثمانمائة رجل ممن يعيشون عيشاً بسيطاً حصدتهم المدافع الآلية عند جولدرز جرين .

— الاستغناء خير من الاصلاح . الاستغناء خير من الاصلاح .

سراويل قصيرة من المخمل المخطط الأخضر وجوارب بيضاء من الصوف اللزج مطوية إلى أسفل تحت الركب .

— ثم جاءت مجزرة المتحف البريطانى الشهيرة . ألفا مروحة ثقافية مزودة بغاز دكلورثل سلفايد .

وكانت تظلل عينى لينينا قبعة خيّال ملونة بالأخضر والأبيض . وحذاءها أخضر لامع ، شديد الصقل .

قال مصطفى مند : أدرك المراقبون فى النهاية أن القوة لا تفيد . إن طريقة التناسل بغير حمل والتكييف على طريقة بافلوف الجديدة والتعلم أثناء النوم أبطأ ولكنها آكد جداً . . .

وأدارت حول خصرها حزاماً موشى بالفضة أخضر اللون مصنوعا من جلد كجلد مراكش ، يبرز منه المدد المقرر من المواد التى تمنع الحمل (لأن لينينا لم تكن خنثى) .

— إن مكتشفات بفستر وكاواجوشى أُنتفع بها أخيراً . والدعاية الكبيرة ضد التناسل بالحمل . . . .

وصاحت فانى متحمسة : « ما أجملك ! » إنها لم تستطع مرة من المرات أن تقاوم سحر لينينا طويلا . ثم قالت : وما أحلى هذا الحزام المالتسى !

— مصحوبة بحملة ضد الماضى ، وباغلاق المتاحف ، وتحطيم الآثار التاريخية (ولحسن الحظ تحطم أكثرها فى حرب السنوات التسع) ، وباعدام كل الكتب التى نشرت قبل عام ١٥٠ ف .

قالت فانى : لا بد لى من الحصول على واحد مثله .

— كانت هناك — مثلا — أشياء تسمى الأهرام .

— إن حزامى القديم الأسود اللامع . . .

— ورجل يسمى شيكسبير . إنكم بالطبع لم تسمعوا بهم .

— إن حزامى هذا شائن لى جداً .

— هذه هى مزايا التربية العلمية الحقيقية .

— كلما زاد الرتق قلت الثروة . كلما زاد الرتق قلت . . .

— إن إدخال نموذج فورد الأول رقم (ت) . . .

— إنه عندى منذ ثلاثة أشهر تقريباً .

— اختير بداية لتأريخ العهد الحديث .

— الاستغناء خير من الاصلاح . الاستغناء خير . . .

— وكان هناك — كما قلت من قبل — شيء اسمه المسيحية .

— الاستغناء خير من الاصلاح .

— إن قواعد الأخلاق والفلسفة التى تتعلق بنقص الاستهلاك . . .

— أحب الملابس الجديدة ، أحب الملابس الجديدة ، أحب . . .

— كانت ضرورية جداً عندما كان الانتاج ناقصاً . أما فى عصر الآلات وتثبيت النتروجين — فهى قطعاً جريمة ضد المجتمع .

— لقد أعطانى إياه هنرى فستر .

— لقد أزيلت رؤوس الصلبان جميعاً فأصبحت كالحرف T . وكان هناك شيء يسمى الله .

— إنه من جلد مراكش الجديد الأصلى .

— عندنا الآن حكومة عالمية . وعندنا الاحتفالات بيوم فورد ، وأغانى الجماعة ، وصلوات التماسك .

وكان برنارد ماركس يفكر ويقول لنفسه : وحق فورد إنى لأمقتهما أشد المقت !

— وكان هناك شىء اسمه السماء . ولكنهم كانوا برغم ذلك يشربون كميات كبيرة من الكحول .

— مثل اللحم ، مثل كمية من اللحم .

— وكان هناك شىء اسمه الروح . وشىء اسمه الخلود .

— اسألى هنرى من أين أتى به .

— ولكنهم كانوا يتعاطون المورفين والكوكايين .

— ومما يزيد الأمر سوءاً أنها تحسب نفسها كاللحم .

— وفى عام ١٧٨ ف أعين بالمال ألفا عالم من علماء العقاقير وعلماء الكيمياء الحيوية .

قال مساعد مدير المصائر مشيراً إلى برنارد ماركس : إنه عابس .

— وبعد ست سنوات أصبحوا ينتجون هذه العقاقير كاملة التركيب ويعرضونها فى السوق .

— دعنا نغريه .

— مخدر سار يبعث على اختلاط العقل .

« إن ماركس عابس كالح الوجه » ، وقد نبهته ضربة على الكتف فنظر إلى أعلى ، فاذا بذلك الرجل القاسى هنرى فستر يقول : إنك بحاجة إلى جرام من السوما . (١)

— كل مزايا المسيحية والكحول . ولا شىء من عيوبهما .

« وحق فورد أنى أتمنى أن أقتله » ! ولكنه أكتفى بقوله : « كلا . أشكرك . » ونبذ أنبوبة الأقراص التى قدمت له .

— تأخذ من الواقع عطلة كلما أردت وتعود بغير صداع أو خرافة .

وألح هنرى فستر قائلا : خذها . خذها .

— لقد تأكد الاستقرار عملياً .

قال مساعد مدير المصائر مردداً عبارة من الحكم الهبنوبيدية المألوفة : إن سنتيمتراً مكعباً واحداً تشفى عشراً من العواطف الحزينة .

— ولم يبق إلا أن نتغلب على الشيخوخة .

وصاح برنارد ماركس قائلا : تباً لك .

— على رسلك .

(١) السوما هى المخدر الذى يتناوله أبناء العالم الجديد كلما أصابهم حزن أو غضب .

— هرمونات جونادال Gonadal ، ونقل دم الشباب ، وأملاح المغنزيوم . . .

« أذكر أن الجرام خير من التباب » ، ثم انصرفوا ضاحكين .

— إن كل الوصمات الجثمانية للشيخوخة قد أزيلت وزالت معها بالطبع . . .

قالت فانى : لا تنسى أن تسأليه عن ذلك الحزام المالتسى .

— وزالت معها كل الخصائص العقلية عند الشيوخ . فالشخصية تبقى ثابتة طوال الحياة .

— . . . بقى شوطان من جولف الموانع نتمها قبل الظلام . لا بد أن أطير .

— العمل واللعب — إن قوانا وذوقنا تبقى فى الستين على ما كانت عليه فى السابعة عشرة . لقد اعتاد الشيوخ فى الأيام السالفة السيئة أن يبتعدوا ، ويعتزلوا ، ويتدينوا ، وينفقوا الوقت فى القراءة والتفكير — التفكير !

وكان برنارد ماركس يقول لنفسه وهو يسير فى الممر صوب المصعد: يا لهم من حمقى خنازير !

— نعم هذا هو التقدم . الشيوخ يعملون ، والشيوخ ينكحون . إن الوقت لا يتسع للشيوخ . فهم لا يفرغون من المتعة . ولا يجدون لحظة واحدة يجلسون فيها للتفكير — وإذا سنحت لهم — لسوء حظهم

فرجة من الوقت تشق لهوهم المتصل ، فهناك السوما اللذيذة . يتناولون منها نصف جرام لعطلة نصف اليوم ، وجراماً لعطلة نهاية الأسبوع ، وجرامين لرحلة إلى بلاد الشرق العظيمة ، وثلاثة لرحلة أزلية مظلمة فى القمر . ثم يعودون من فراغهم آمنين مطمئنين إلى عملهم اليومى المستقر و إلى لهوهم ، يفرون من دار من دور الصور المحسة إلى آخر ، ومن فتاة إلى أخرى هوائية . ومن شوط من الجولف المغطس الكهربائى إلى . . . »

وصاح المدير غاضباً : انصرفى أيتها الفتاة الصغيرة . انصرف أيها الغلام ! ألستما تريان أن صاحب السيادة منهمكا فى العمل ؟ انصرفا وتلهيا بالحب فى مكان آخر .

وقال المراقب : يا لهم من أطفال مساكين .

وسار الحمالون مبطئين متعاظمين ، مصحوبين بدوى الآلات الخفيف ، يقطعون ثلاثة وثلاثين سنتيمتراً فى الساعة . وتألق فى الظلام الأحمر عدد من الياقوت لا يحصى .

الفصل الرابع

١

كان المصعد يغص بالرجال من حجرات (أ) للتغيير ، وقد قوبلت لينا عند دخولها بالايماء الودى والابتسام تحية لها . فلقد كانت فتاة محببة إلى الجميع ، قضت مع كل منهم تقريباً ليلة فى وقت من الأوقات .

وقالت لنفسها وهى ترد التحية إنهم أولاد أعزاء . لهم سحر وفتنة ! وبرغم هذا فكم كانت تود لو لم تكن أذنا جورج ادزل بهذا الحجم الكبير (ربما أعطى نقطة أكثر مما ينبغى من پارائيرويد عند المتر ٣٢٨) . ونظرت إلى بنتو هوفر فلم يسعها إلا أن تذكر أنه حقاً يبدو كثيف الشعر عندما يخلع ملابسه .

والتفتت إلى إحدى الزوايا بعين حزينة لذكرى شعر بنتو الأسود الجعد فرأت برنارد ماركس بجسمه الصغير النحيل ووجهه المكتئب الحزين .

فتوجهت نحوه وقالت : « برنارد ! لقد كنت أبحث عنك . » ورن صوتها فى وضوح وعلا على دوى المصعد وهو يرتفع . والتفت الآخرون مستطلعين الخبر . قالت : « كنت أود أن أتحدث معك عن خطة المكسيك الجديدة التى وضعناها . » واستطاعت أن ترمق بطرف عينها بنتو هوفر وهو فاغر فاه من الدهشة . فساءها انفراج فمه . وقالت لنفسها : « يدهشنى أنى لم أتوسل إليه أن أرافقه مرة أخرى ! » ثم

رفعت عقيرتها بالكلام مرة أخرى وقالت بحرارة لم تألفها : « إنى أحب أن أرافقك أسبوعاً فى شهر يوليه . (وكانت على أية حال تبرهن علانية على خيانتها لهنرى . وينبغى أن تسر فانى لذلك ، حتى إن كانت الخيانة مع برنارد .) وابتسمت له لينا ابتسامة حلوة لها معناها وقالت : هذا إن كنت لا تزال تحب رفقتى .

فتدفق الدم فى وجه برنارد الشاحب . وساءلت لينا نفسها متعجبة مندهشة : « ما الذى يدعو إلى ذلك ؟ » ولكنها فى الوقت نفسه تأثرت لهذه الاستجابة العجيبة لنفوذها .

وقال برنارد وهو يتلجلج : « ألا يجدر بنا أن نتحدث فى ذلك فى مكان آخر ؟ » وبدا عليه عدم الارتياح بصورة مزعجة .

وقالت لينا لنفسها : كأننى أتحدث عن شئ منفر . لا أحسب أنه يشمئز أكثر من ذلك لو أنى تفكهت بنكتة قذرة — كأن أسأله من تكون أمه ، أو ما شابه ذلك .

وارتبك واضطرب ثم قال : أقصد ، أنه مع وجود كل هؤلاء حولنا ...

وضحكت لينا ضحكة صريحة لا تنم عن شئ من الحقد وقالت : « يا لك من رجل مضحك » وكانت بالفعل تحسبه رجلا مضحكا . وقالت بنغمة أخرى : إنك سوف تنذرنى قبل الموعد بأسبوع على الأقل . أليس كذلك ؟ أظن أننا سوف نستقل الصاروخ الهادى الأزرق . هل يبدأ من برج شارنج ـ ت أو من هامستد ؟

وقبل أن يستطيع برنارد الاجابة وقف المصعد .

ونادى صوت له صرير : السطح !

وكان عامل المصعد مخلوقاً صغيراً كالقرد ، يرتدى قميصاً أسود من قمصان أنصاف المعتوهين من نوع (— هـ) .

— السطح !

وفتح الأبواب على مصاريعها . وقد ارتعد قليلا واهتزت جفونه عندما التقت عيناه بضياء الشمس الدانئ الرائع بعد ظهر ذلك اليوم . فكرر لفظة «السطح !» فى صوت المبتهج . وكأنه تنبه فجأة من سبات مهلك مظلم فسر لذلك كثيراً وصاح : السطح !

وابتسم فى وجه الراكبين ابتسامة المترقب المعجب . فبرزوا إلى الضياء وهم يتكمون ويتضاحكون . وكان عامل المصعد يرعاهم وهم يخرجون .

وقال مرة أخرى متسائلا : هذا هو السطح ؟

ثم دق أحد الأجراس ، وكان بسقف المصعد مكبر للصوت أخذ يصدر أوامره بصوت ناعم ثابت .

قال الصوت : اهبطوا . اهبطوا . الطابق الثامن عشر . اهبطوا. اهبطوا الطابق الثامن عشر . اهبطوا . . .

وأغلق عامل المصعد الأبواب محدثاً صوتاً عالياً ، ثم مس بيده أحد الأزرار ، وهبط المصعد فى الحال فى فجوة تدوى بالطنين . وعاد العامل إلى ضوء كالشفق ، هو ضوء السبات الذى ألف .

وكان الجو على السطح دافئاً مضيئاً . وكانت ساعة الأصيل فى فصل الصيف تبعث على النعاس لما يتردد فيها من طنين السيارات الطائرة helicopters . والدوى الشديد الذى تحدثه الطائرات الصاروخية وهى تخترق السماء اللامعة بسرعة غير مرئية على ارتفاع خمسة أميال أو ستة كان أشبه ما يكون بملاطفة الهواء اللين . وشهق برنارد ماركس شهيقاً عميقاً . ورفع بصره نحو السماء وحول الأفق الأزرق ثم فى النهاية إلى وجه لينينا .

وقال بصوت مرتعش : أليس هذا جميلا !

فتبسمت له معبرة عن إدراكها لما يعنيه مع عطفها الشديد عليه.

وأجابت وهى فى نشوة من السرور : «الجو أصلح ما يكون للعبة جولف الموانع . والآن لا بد لى من أن أطير يا برنارد . إن هنرى يغضب إذا خليته منتظراً . أخبرنى فى الوقت المناسب عن التاريخ . » ثم لوحت بيدها وجرت إلى الجانب الآخر من السطح الفسيح المستوى صوب حظائر الطائرات . ووقف برنارد يرقب بريق الجوارب البيضاء وهى تعود القهقرى ، والركبتين المحترقتين من حرارة الشمس وهما تنثنيان ثم تستقيمان بنشاط بالغ مرة بعد أخرى ، والسراويل القصيرة المخملية المخططة الملتصقة بجسمها وهى تدور برفق تحت سترتها التى هى فى خضرة القوارير . وارتسمت على وجهه ملامح الألم .

وسمع خلفه صوتاً مرتفعاً مبتهجاً يقول : لا بد لى أن أعترف بجمالها.

فتنبه برنارد وتلفت حوله ، فاذا بوجه بنتو هوفر الأحمر المنتفخ يشرق عليه بشئ من الاخلاص البادى . وكان بنتو معروفاً بطبعه الطيب ، مؤاخذاً عليه . ويقول عنه الناس إنه يستطيع أن يشق طريقه فى الحياة دون أن يمس السوما . ولم يصب قط بالحقد وحدة المزاج التى تصيب غيره من الناس فيستأجزونها . وكانت الحقيقة تسطع دائماً لبنتو مشرقة كالشمس .

قال بنتو : « هو هو انى أيضاً ، ولكن كيف كان ذلك ! » وبنغمة أخرى قال : «ولكنى أراك مكتئباً ! إنك فى حاجة إلى جرام من السوما.» ودفع يده فى الجيب الأيمن من سرواله ، وأخرج منه قنينة ، ثم قال : إن سنتيمتراً واحداً مكعباً يشفى عشرة مكتئبين . . . ولكن اسمع يا . . .

والتفت برنارد فجأة ثم انطلق .

وتابعه بنتو بالنظر محدقاً فيه وقال متعجباً : « ماذا عسى أن يكون بهذا الرجل ؟ » ثم هز رأسه ، وقرر أن قصة صب الكحول فى دم هذا المسكين لا بد أن تكون صادقة . ثم قال : أظن أنه مس ذهنه .

ثم أعاد قنينة السوما إلى جيبه وأخرج صندوقاً صغيراً من لبان الهرمونات الجنسية ، وملأ أحد شدقيه بقطعة منه وسار متباطئاً نحو حظيرة الطائرات ، وهو يمضغ اللبان .

وكانت طائرة هنرى فستر قد أخرجت على عجلاتها من مخبأها ، وكان وقتما وصلت لينينا معتلياً مكان السائق منتظراً .

ولما اتخذت مكانها إلى جانبه لم يزد على قوله : « لقد تأخرت أربع دقائق .. » ثم سير الآلات وأعد طائرته للتحليق . فاندفعت الآلة رأساً فى الفضاء . وزاد هنرى من سرعتها . وتحول طنين المحرك من صوت الدبور الكبير إلى صوت الدبور الصغير ثم إلى صوت الناموسة . وأظهر مقياس السرعة إنهما كانا يرتفعان ما ينيف عن الكيلومترين فى الدقيقة وتضاءلت لندن تحت بصريهما . وأصبحت المبانى ذات السطوح المستوية — بعد بضع ثوان — كحوض من نبات الفطر هندسى الشكل ينبت وسط خضرة البساتين والحدائق . ووسط تلك المبانى كان برج شارنج ـ ت وهو كساق نبات الفطر الدقيق غير أنه أطول منها وأرق — يرفع صوب السماء قرصاً من الخرسانة اللامعة .

وانطلقت فى السماء الزرقاء فوق رؤوسهم كسف من السحاب كاللحم المترهل وهى أشبه ما تكون بجذوع الرياضيين الخياليين ذات الأشكال الغامضة .

قال هنرى : « ذلك هو الصاروخ الأحمر . قدم الآن من نيويورك . ونظر إلى ساعته وهز رأسه قائلا : لقد تأخر سبع دقائق . هذه

الطائرات التى تعبر الاطلانطيق تخلف مواعيدها بدرجة مشينة .

ورفع قدمه عن محرك السرعة ، فهبط دوى اللوالب فوق رأسه ثمانى درجات صوتية ونصف ، فسمع مرة أخرى صوت كصوت الدبور الصغير فالدبور الكبير فالنحلة فالخنفساء . وهبطت سرعة الاندفاع إلى أعلى . وبعد لحظة كانا معلقين فى الفضاء بلا حراك . ودفع هنرى أحد الروافع ، فسمعت طقطقة . وبدأ المحرك يدور أمام أعينهما ، فى حركة بطيئة أول الأمر ، ثم أخذ يسرع شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح كالضباب المستدير . وأخذت الريح تهب من سرعة الانطلاق الأفقى وتصفر فى الحواجز ويعلو صفيرها شيئاً فشيئاً . وثبت هنرى نظره فى عداد الدورات . فلما مست الابرة العلامة التى تدل على ١٢٠٠ أوقف لوالب الطائرة . ولكن الآلة كانت تحتفظ بقوة اندفاع تكفى طيرانها بغير محرك .

ونظرت لينينا إلى أسفل خلال النافذة السفلية بين قدميها . فعرفت أنهما كانا يطيران فوق منطقة الستة كيلومترات من الحدائق التى تفصل وسط لندن عن الحلقة الأولى من ضواحيها التابعة لها . وقد بدت الأحياء فوق الخضرة كالديدان لبعدها عن النظر . وكانت العمدان المتكاثفة للعبة التنس الجديدة تتألق بين الأشجار . وعند شجيرة الراعى كان ألفا شخص من طراز (ـ ب) يختلطون أزواجاً أزواجاً ويلعبون تنس ريمان . واصطف فى الطريق الرئيسى من نتنج هل إلى ولزدن صف مزدوج من نوع خاص من الدرج المتحرك . وفى ملعب إيلنج عرض لألعاب جماعة من طراز (د) وغناء جمعى .

وقالت لنتا : « ما أقبح اللون الكاكى » مرددة ما أوحى إلى أبناء طبقتها بطريقة التعلم أثناء النوم .

وكانت مبانى مسرح هاونسلو للصور المحسة تغطى سبعة هكتارات ونصف[١] . وإلى جوارها جيش من العمال يرتدون الأسود والكاكى منهمكين فى إعادة تزجيج سطح طريق الغرب الكبير . وكانت إحدى البوتقات الضخمة تُقرع وهما يطيران فوقها . ويصب الحجر المنصهر فى مجرى يعبر الطريق من جانب إلى آخر ويتوهج توهجاً يبهر العين . واسطوانات الاسبستس (وهو مادة لا تحترق) تتحرك جيئة وذهاباً وفى ذيل عربة للرى معزولة كانا يريان البخار يرتفع على هيئة سحب بيضاء .

وعند برنتفورد بدا مصنع شركة التلفزيون كالمدينة الصغيرة .

قالت : لا شك أنهم يغيرون الدور .

وتجمع البنات من طراز (جـ) اللائى كن فى خضرة أوراق الشجر ، والنصاف المعتوهين السود ، حول الداخل كما تتجمع الندوات العسلية أو النمال . ووقف بعضهن فى صفوف كى تأخذ كل منهن مكانها بدورها فى عربات الترام التى تسير على قضيب واحد . أما الأشخاص من طراز (— ب) الذين كانوا فى لون التوت فكانوا يسيرون جيئة وذهاباً بين الجمهور المحتشد . وكان سقف البناء الرئيسى يموج بحركة الصعود فى طائرات الهلكبتر والرحيل على متنها .

قالت لننا : كم أنا مسرورة لأنى لست من الطراز (جـ) .

وبعد عشر دقائق بلغوا ستوك بوجز وبدأوا الشوط الأول من لعبة جولف الموانع .

---

(١) الهكتار يساوى عشرة آلاف متر مربع .

٢

أسرع برنارد إلى الجانب الآخر من السطح ، وعيناه فى أكثر الوقت منكستان . وإذا وقعتا على زميل ما تحولا عنه بغتة وخلسة . وكأنه رجل مطارد ، يقتفى أثره أعداء لا يحب أن يراهم خشية أن يظهروا له أشد عداوة مما كان يحسب . وخشية أن يزيد إحساسه بالإثم وبالعزلة التى ليس له فيها معين .

هناك مثلا بنتو هوفر ، ذلك الرجل البشع . كان رجلا حسن النية . ولكن ذلك كان يزيد الأمر سوءاً من ناحية ما . فان أولئك الذين حسنت نياتهم كانوا لا يختلفون فى سلوكهم عن أولئك الذين ساءت نياتهم . ولقد كان يقاسى حتى من ليننا . وتذكر تلك الأسابيع التى لازمه فيها الجبن والتردد ، حينما كان يتطلع ويتشوق ولكنه يائس من التشجع على سؤالها . هل كان يجرؤ على مواجهة الخطر الذى ينشأ عن إذلاله برفض مشوب بالأزدراء ؟ ولكنها إن قالت نعم شاع فى قلبه السرور . والآن هاهى ذى تقول نعم ، ولكنه لايزال بائساً حزيناً لأنها رأت مساء ذلك اليوم خير الأمسية للعبة جولف الموانع ، فهرولت للقاء هنرى . ولأنها حسبته رجلا غريب الأطوار لأنه لم يرد أن يتحدث علناً فى أخص شئونهما . إنه — بعبارة أخرى — بائس لأنها سلكت كما تسلك أية فتاة انجليزية صحيحة البدن ، ولم تسلك سلوكا آخر شاذاً غير عادى .

وفتح باب محبسه ونادى خادمين مسترخيين من طراز (— د) وطلب إليهما أن يدفعا طائرته إلى الخارج فوق السطح . وكان يقوم بالعمل فى حظائر الطائرات جماعة بوكانوفسكية واحدة ، والرجال

هناك توائم ، متشابهون ، صغار الحجوم ، سود يبعثون التقزز والاشمئزاز . وألقى برنارد أوامره فى نغمة حادة تشف عن الاستعلاء بل والاعتداء ، وهى النغمة التى يتحدث بها الرجل إذا لم يكن مطمئناً إلى سموه على غيره . وكان برنارد دائماً يشعر بالضيق الشديد عند التعامل مع أفراد الطبقات الدنيا . لأن تركيبه الجثمانى — لسبب ما — لم يكد يتفوق على التركيب الجثمانى للفرد المتوسط من طراز (حـ) . (ويحتمل جداً أن تكون الاشاعة السائدة عن وجود الكحول فى دمه صحيحة ، لأن أمثال هذه الحوادث قد تقع .) كان طوله ينقص ثمانى سنتيمترات عن رجل أصيل من الطراز (ا) . وكان نحيفاً نسبياً . وكان اتصاله بالأفراد من الطبقات الدنيا دائماً يذكره بهذا النقص الجثمانى ويؤلمه . وكان يردد فى نفسه هذا القول : « وددت لو لم أكن كما أنا » . وكان إحساسه بنفسه شديداً وباعثاً على الضيق . وكلما التقى برجل من طراز (د) ورأى أنهما فى مستوى واحد ، وأنه لا ينظر إليه من عل ، أحس بالذلة والخنوع . وتساءل هل يعاملنى هذا المخلوق بالاحترام الواجب لأبناء طبقتى؟ وكان هذا السؤال يؤرقه فى كل حين . وله فى ذلك المعذرة . لأن (حـ ، د ، هـ) قد تكيفوا إلى حد ما على ربط ضخامة الجسم بعلو المكانة الاجتماعية . وفى الحق إن شيئاً من الاعجاب بالضخامة كان شائعاً من أثر الايحاء أثناء النوم . ومن ثم كان النساء اللائى يتقرب إليهن يسخرن منه ، واضرابه من الرجال يهزأون به . فكان من أثر السخر يحس بأنه رجل غريب . ويدفعه هذا الاحساس إلى أن يسلك سلوك الغريب ، فكان ذلك يزيد من التحيز ضده ويقوى الاحتقار والازدراء والعداوة التى تثيرها عيوبه الجثمانية . وهذا بدوره يزيد من إحساسه بالغرابة والعزلة ، وتولد لديه خوف دائم من استخفاف

الناس به فكان يتحاشى أضرابه ، ويقف ممن دونه موقف الرجل لايفارقه الاحساس بكرامته . وكان شديد الحسد للرجال من أمثال هنرى فستر وبنتو هوفر — أولئك الذين لا يشعرون بضرورة الصياح للناس من طراز (هـ) كى يطاع لهم أمر ، أولئك الذين لايفكرون فى مراكزهم ، أولئك الذين يتحركون وسط هذا النظام الطبقى كما تتحرك السمكة فى الماء . فهم مطمئنون أشد الاطمئنان حتى إنهم لا يدركون وجود أنفسهم ، ولا يدركون العناصر النافعة المريحة التى نشأوا فى أحضانها .

وظن برنارد أن الخادمين التوأمين أخرجا طائرته إلى السطح على عجلاتها متباطئين متمنعين .

فقال ثائراً : « أسرعوا ! » فرمقه أحدهم بنظرة . وهل كان مايراه فى أعينهم الرمادية التى لايرتسم عليها شئ ضرباً من ضروب الاحتقار الدنىء؟ فعلا صوته بالصياح قائلا : « أسرعوا ! » وكان بصوته خشونة قبيحة .

واعتلى الطائرة ، وحلق بها بعد دقيقة واحدة جنوباً صوب النهر .

كان مقر مكاتب الدعاية المختلفة وكلية هندسة العواطف فى بناء واحد من ستين طابقاً فى شارع فليت . وكنت ترى بالدور السفلى وفى الطوابق الدنيا مطابع ومكاتب صحف لندن الثلاثة الكبرى وهى : « راديو الساعة » ، وهى صحيفة للطبقة العليا ، « والغازيت (حـ) » ذات اللون الأخضر الشاحب ، « والمرآة (د) » وهى صحيفة لونها كاكى وكل كلماتها من مقطع واحد . وتأتى بعد ذلك على التتابع مكاتب الدعاية بالتلفزيون ، وبالصور المحسة ، وبالصوت الصناعى والموسيقى — وهى تشغل اثنين وعشرين طابقاً . وتعلوها معامل البحث والحجرات المبطنة التى يؤدى فيها كتاب الشارات الصوتية والمؤلفون الصناعيون

عملهم الدقيق . أما الطوابق الثمانية عشر العليا فكانت تشغلها كلية هندسة العواطف .

وهبط برنارد بطائرته على سطح بيت الدعاية ثم نزل منها .

وأمر حمالا من طراز (+ ه) أن يدق الجرس لمستر هلمهلتز واطسن و يخبره أن برنارد ماركس بانتظاره فوق السطح .

ثم جلس وأشعل لفافة تبغ .

وكان هلمهلتز واطسن يكتب حينما بلغته الرسالة .

فرد قائلا : « قل له إنى آت فى الحال » ثم علق السماعة .

والتفت إلى سكرتيرته وقال لها محتفظاً بنغمة الكلام الرسمية غير الشخصية : « سأتركك لتحفظى أشيائى هذه » وتجاهل ابتسامتها المشرقة ونهض وسار بهمة نحو الباب .

كان رجلا قوى البنية ، واسع الصدر ، عريض المنكبين ، ضخما غير أنه سريع الحركة ، خفيف لدن العود ، ويرتكز فوق عمود رقبته القوى المستدير رأس جميل التكوين . شعره أسود مجعد ، وملامحه واضحة القسمات . شديد الأناقة ، قوى التأثير فى الناظر إليه . وكل سنتيمتر منه يدل على أنه (+ ١) كما تقول سكرتيرته وتكرر القول بغير كلال . مهنته محاضر بكلية هندسة العواطف (قسم الكتابة) وفى فترات تتخلل أعماله التعليمية يشتغل كمهندس للعواطف . وكان يكتب بانتظام فى « راديو الساعة » ويؤلف صوراً للسينما المحسة ، بارعاً أشد البراعة فى صياغة كلمات الشعار ونظم عبارات الايحاء الهبنوبيدى .

يحكم عليه رؤساؤه أنه « قدير . وربما كانت قدرته أشد مما ينبغى . »

• ويقولون عنه ذلك وهم يهزون رؤوسهم و يخفضون أصواتهم تخفيضا له مغزاه .

أجل لقد كانت قدرته أشد مما ينبغى . ولقد أصابوا فيه الحكم . وقد أحدث التفوق العقلى فى هلمهلتز واطسن اثاراً شديدة الشبه بما أحدثه النقص الجثمانى فى برنارد ماركس . كان برنارد قليل العظام كثير العضلات فانعزل عن قرنائه . ولما كان هذا الاحساس بالعزلة بكل المعايير السائدة تفوقاً عقلياً فقد أصبح بدوره سبباً فى زيادة الاعتزال . وكذلك شدة اقتدار هلمهلتز جعلته شديد الاحساس بنفسه وبعزلته بدرجة مقلقة . فكان الرجلان يشتركان فى العلم بأنهما فريدان بين أضرابهما — كان برنارد ذو العيب الجثمانى يعانى طوال حياته من إحساسه بالعزلة ، ولكن هلمهلتز واطسن لم يدرك تفوقه العقلى إلا منذ عهد قريب جداً فأصبح كذلك يدرك الخلاف بينه وبين الناس المحيطين به . كان هذا الرجل بطلا فى لعبة السكواش على الدرج المتحرك . كان عاشقاً لا يفتر (يقال إنه اتصل بستمائة وأربعين فتاة مختلفة فى أقل من أربع سنوات) . كان عضواً فى الجماعات يدعو إلى الاعجاب . يتقن الاختلاط . ولكنه أدرك فجأة أن الألعاب والنساء والنشاط الاجتماعى بالنسبة إليه مزايا ثانوية . أما فى الواقع وفى حقيقة الأمر فقد كان يهتم بشئ آخر . ولكن بماذا ؟ تلك هى المشكلة التى أتى برنارد ليناقشه فيها — أو قل إنه أتى ليستمع الى صديقه مرة أخرى وهو يناقشها ، لأن هلمهلتز كان دائماً يقوم وحده بالحديث .

والتقى به وهو يخرج من المصعد ثلاث فتيات فاتنات من مكتب الدعاية بالصوت الصناعى .

فتعلقن به وتوسلن إليه قائلات : عزيزنا هلمهلتز ، رجاؤنا أن ترافقنا إلى أكسمور وتتناول معنا طعام العشاء .

فهز رأسه وشق طريقه وسطهن قائلا : كلا ، كلا .

— إننا لن ندعو رجلا اخر .

ولكن هلمهلتز لم يهتز حتى بعد هذا الوعد الجميل . فأجاب قائلا: « كلا . إننى مشغول . » وواصل سيره فى عزم شديد ، فتعلق البنات بأذياله . ولم ييئسن من متابعته إلا بعدما اعتلى فعلا طائرة برنارد وأغلق بابها . ولم يخل من تأنيبهن .

وارتفعت الطائرة فى الفضاء وهو يقول : « عجباً لهؤلاء النسوة ! » وهز رأسه وقطب جبينه . ثم قال : « ما أشد إزعاجهن » ووافقه برنارد نفاقاً ودهاناً ، متمنياً — وهو يتفوه بالكلام — أن يكون له من البنات ما لهلمهلتز وبقليل من المشقة مثله . ثم استولت عليه فجأة رغبة ملحة فى الزهو بنفسه فقال : « إننى سوف أصطحب لينينا كراون إلى المكسيك الجديدة » وقد تكلف أن يكون الحديث عرضياً غير مقصود .

ولم يهتم هلمهلتز البتة لذلك فقال : « أفهذا صحيح ؟ » وصمت برهة ثم قال : « لقد انقطعت خلال الأسبوع أو الأسبوعين السابقين عن جمعياتى وفتياتى جميعاً . ولا تستطيع أن تتصور الضجة التى أحدثوها فى الكلية من أجل ذلك . ولكن الأمر كان يستدعى ذلك فيما أظن . والنتائج . . . » وهنا تردد فى الكلام ثم قال : ماذا أقول؟ إنها عجيبة جداً .

إن النقص الجثمانى قد يسبب فيض النشاط العقلى . والظاهر أن العكس صحيح ، فالنشاط العقلى المتوفر يجوز — لأغراضه الخاصة — أن يؤدى بصاحبه إلى عزلة مقصودة يتكلف فيها العمى والصمم ، كما يؤدى إلى الزهد الذى يتصنع فيه العجز المطلق .

ولبثا بقية الرحلة الهوائية القصيرة صامتين . ولما بلغا غرفة برنارد واستلقيا مسترخيين فوق الأرائك الهوائية عاد هلمهلتز إلى الحديث فقال فى بطء شديد : « هل أحسست مرة كأن شيئا بداخلك ينتظر منك أن تتيح له الفرصة كى ينطلق ؟ ضرباً من ضروب القوة الفائضة التى لا تستخدمها — كالماء الذى يتدفق من المساقط بدلا من أن يتخلل الآلات البخارية . » وألقى على برنارد نظرة المستفهم .

— تقصد العواطف التى يحس بها المرء حينما تسير الأمور على غير ما يهوى ؟

فهز هلمهلتز رأسه وقال : « ليس هذا بالضبط ما قصدت إليه . إنما أقصد ذلك الشعور العجيب الذى ينتابنى أحياناً ، وهو الشعور بأن لدىّ أمراً هاماً أريد أن أعبر عنه ، كما أن لدىّ القدرة على التعبير غير أنى لا أدرى ما هو ، فلا أستطيع أن أستفيد من قدرتى على التعبير . لو كانت هناك طريقة أخرى للكتابة . . . أو لو كان هناك شئ آخر أكتب عنه . . . » وسكت عن الكلام لحظة ثم عاد يقول : إننى بارع فى اختراع التعابير — إنك تعرف ذلك الضرب من الكلمات التى تجعلك تثب بغتة كأنك جالس على دبوس . لقد بلغت هذه الكلمات درجة كبيرة من الجدة والقدرة على الإثارة والتنبية حتى إن كانت تعبر عن شئ واضح من وجهة الايحاء النومى . ولكن هذا لا يكفى . لا يكفى أن تكون العبارات جيدة . وإنما ينبغى كذلك أن تؤدى بها عملا طيباً .

— ولكن أعمالك طيبة يا هلمهلتز ؟

فهز هلمهلتز كتفيه وقال : هى كذلك إلى حد ضئيل . فهى

ليست من الأهمية بمكان . وإنى أحس أننى أستطيع أن أؤدى عملا أكثر من ذلك أهمية ، وأكثر غزارة وأشد عنفاً . ولكن ماذا عسى أن يكون ذلك ؟ وماذا عساى قائل مما هو أكثر أهمية ؟ وكيف يستطيع المرء أن يكون عنيفاً فى الأشياء التى ينتظر منه أن يكتب عنها؟ إن الكلمات يمكن أن تكون كأشعة إكس إذا أحسنت استعمالها — إنها تخترق أى شئ . تقرأها فتطعنك . هذه إحدى الأشياء التى أحاول أن أعلمها تلاميذى : كيف يكتبون كتابة تطعن القارئ . ولكن ما الجدوى من إحساس القارئ بالطعنات من مقال عن الغناء الجمعى أو عن أحدث التحسينات فى أعضاء الشم ؟ ثم هل تستطيع أن تجعل الكلمات طاعنة حقاً — كأقوى أشعة إكس — حينما تكتب عن مثل هذه الأشياء ؟ هل تستطيع أن تقول شيئاً عن لا شئ ؟ هذا ما يؤول إليه الأمر فى النهاية . إنى أحاول وأحاول . . .

وقال برنارد بغتة : « أنصت » ورفع إصبعه منذراً صاحبه . وأصغيا ، ثم همس قائلا : أعتقد أن أحداً ما عند الباب .

فنهض هلمهلتز ، وسار على أطراف أصابعه إلى الجانب الآخر من الغرفة ، وفتح الباب على مصراعيه بحركة حادة سريعة . ولكنه بالطبع لم يجد أحداً .

فقال برنارد وقد أحس بسخفه وبدا عليه هذا الاحساس : آسف . وما أحسب إلا أن أعصابى مضطربة بعض الاضطراب . إذا ارتاب الناس فى أمرك داخلتك الريبة فى أمورهم .

وحرك يده فوق عينيـه ، ثم تنهد ، وقال يبرر نفسـه فى صوت الشاكى : « لو عرفت ما كان ينبغى لى أن أقاسى فى العهد الأخير . لو علمت ذلك . . . » وامتلأت عيناه بالدموع ، وأشفق على

نفسه إشفاقاً أنبثق منه كما تنبثق مياه النافورة إذا أطلقتها بغتة .

واستمع إليه هلمهلتز واطسن وقد أحس بشئ من القلق . وقال محدثاً نفسه : « مسكين برنارد ! » ولكنه أحس فى نفس الوقت بالخجل من أجل صاحبه . وود لو أن برنارد أظهر شيئاً من الكبرياء أكثر من ذلك .

الفصل الخامس

١

لما بلغت الساعة الثامنة أخذ الضوء يتلاشى ، وبدأ مضخم الصوت فى برج نادى ستوك بوجس يعلن انتهاء أشواط اللعب فى صوت أقوى من صوت الانسان . فكفت لينينا وهنرى عن اللعب وسارا عائدين نحو النادى . وسمع خوار آلاف الماشية صادراً من ميادين « إتحاد الأفراز الداخلى والخارجى » ، وهى الماشية التى تمد بهرموناتها وألبانها المواد الخام للمصنع العظيم فى فارنهام الملكى .

وملأ الجو ساعة الأصيل دوى طائرات الهلكبتر الذى لاينقطع . وكان دق الجرس وصياح الصفافير يعلن كل دقيقتين ونصف قيام إحدى القاطرات الخفيفة التى تسير على قضيب واحد حاملة لاعبى الجولف من الطبقات الوضيعة من ميدانهم المنفصل إلى العاصمة .

واعتلت لينينا وهنرى طائرتهما ثم انطلقا . وعلى بعد ثمانمائة قدم مس هنرى المفاتيح ليبطىء سرعة الطائرة . ولبثا معلقين دقيقة أو دقيقتين فوق المناظر الطبيعية المتلاشية . ووقعت أبصارهما على غابة برنام من أشجار الزان وكأنها بركة عظيمة من الظلام تمتد نحو الأفق الغربى المشرق بالضياء . واختفت الشمس الغاربة تحت الأفق القرمزى خلال اللون البرتقالى الذى تعلوه الصفرة فاللون الأخضر الشاحب المائى . وفى الشمال خلف الأشجار وفوقها كان النور الكهربى القوى اللامع

يشع من نوافذ الطوابق العشرين التى يتألف منها مصنع الافرازات الخارجية . وتحتها تقع مبانى نادى الجولف — الثكنات الضخمة للطبقة الدنيا . وعلى الجانب الآخر من حائط فاصل البيوتُ الصغيرة المحجوزة للأعضاء من طراز (ا) و (ب) . واسودتْ مشارف محطة القطار الذى يسير على قضيب واحد بأبناء الطبقة الدنيا الذين كانوا يدبون كالنمال المتكاثرة . ومن تحت القبو الزجاجى اندفع فى الفضاء قطار مضىء ، وسار فى طريقه الجنوبى الشرقى يخترق السهل المظلم ، فانجذبت عيون الناس نحو المبانى الفخمة التى كانت تستخدم كحمأة لاحراق الجثث . وكان لها أربع مداخن طويلة ينعكس عليها الضوء ، وعلى قممها علامات الخطر القرمزية لهداية الطائرات التى تحلق أثناء الليل . فكان المكان علماً من معالم الطريق .

وسألت لينينا قائلة : لماذا وضعت حول المداخن هذه الأشياء التى تشبه الشرفات ؟

فأخذ هنرى يشرح لها فى عبارة موجزة إيجاز البرقيات . قال : « استرداد الفسفور . إن الغازات فى مسيرها إلى أعلى المداخن تمر بأربع عمليات . كان فر٢ا٢ فيما مضى يخرج من الدورة رأساً كلما أحرقوا شخصاً من الأشخاص . أما الآن فهم يستردون أكثر من ٩٨ فى المائة منه . وذلك أكثر من كيلو ونصف من جثة الرجل البالغ . ويكوّن ذلك أكثر من أربعمائة طن من الفسفور كل عام فى انجلترا وحدها » . وكان هنرى يتحدث فى سرور و إعجاب ، مبتهجاً بكل قلبه بهذه النتيجة كأنها نتيجة عمله الخاص . ثم قال : ما أجمل أن نعرف أننا نبقى نافعين للمجتمع حتى بعد الممات . إننا نساعد النبات على النمو .

وكانت لينينا فى تلك الأثناء قد حولت عينيها عن هذا المنظر . وصوبت

نظرها عمودياً إلى أسفل عند محطة القطار الذى يسير على قضيب واحد. وقالت : أجل هذا جميل . ولكن من العجب أن الأفراد من (ا) و (ب) لا ينبتون زرعاً أكثر من أفراد (ح) و (د) و (ه) الصغار القذرين الذين أراهم تحت بصرى .

فقال هنرى موجزا : كل الناس متساوون فى التركيب الطبيعى والكيمائى . ثم إن الأفراد جميعاً حتى من طراز (ه) يؤدون خدمات لا غنى عنها .

وذكّرت هذه العبارة « حتى الناس من طراز (ه) . . . » لينينا فجأة بحادث وقع لها أيام أن كانت طفلة بالمدرسة . وذلك أنها تيقظت مرة فى منتصف الليل وأدركت لأول مرة الهمس الذى كان لا يبارحها كلما نامت. عاد إلى ذاكرتها شعاع القمر ، وصف الأسرة الصغيرة البيضاء ، ورن فى أذنها ثانية ذلك الصوت الناعم الذى كان يردد هذه العبارة « كل فرد يعمل للأفراد الآخرين . أننا لا نستغنى عن أحد . حتى أبناء (ه) نافعون . لسنا بغنى عنهم . كل فرد يعمل للأفراد الآخرين . أننا لا نستغنى عن أحد . . . » (وقد ذكرت الكلمات بنصها . ولم تغب عن ذاكرتها — ولن تغيب — بعد تكرارها عدة ليال طوال .) وتذكرت لينينا أول صدمة من صدمات الخوف والاندهاش ، وتأملاتها خلال نصف ساعة من ساعات اليقظة . ثم تذكرت ما كان يحدث لها تحت تأثير ذلك التكرار الذى لا ينتهى من هدوء عقلى تدريجى ، هدوء يزحف عليها خفية وخلسة . . .

وقالت بصوت مرتفع : أظن أن أفراد (ه) لا يهمهم فعلا أنهم من طراز (ه) .

— طبعاً لا يهمهم ذلك. وكيف يهتمون وهم لا يعرفون كيف يكون

المرء غير ذلك . نحن طبعاً يهمنا الأمر ، ولكن ذلك لأننا تكيفنا بطريقة أخرى . ثم إنا فوق ذلك نبدأ بوراثة تختلف عن وراثتهم .

قالت لينينا وهى واثقة : أحمد الله أنى لست من (ه) .

قال هنرى : « ولو كنت من (ه) لتكيفت على صورة تجعلك تحمدين الله على أنك لست من الألف أو الباء » وأدار المحرك الأمامى ودفع بالطائرة نحو لندن . وكاد يتلاشى خلفهم فى الغرب لون السماء القرمزى والبرتقالى . وزحفت سحب الظلام إلى كبد السماء . وبينما كانا يطيران فوق محرقة الجثث اندفعت الطائرة إلى أعلى فى عمود الهواء الساخن المرتفع من المداخن ، ثم هبطت بغتة عندما مرت بالمنطقة الباردة خلف المداخن .

وضحكت لينينا مسرورة وقالت : ما أعجب هذه الحركة الرجعية !

ولكن هنرى أخذ يتحدث فى اكتئاب فترة وجيزة من الزمن . قال : « هل تعلمين ما هذه الحركة الرجعية ؟ هى كائن بشرى اختفى نهائياً . لقد ارتفع فى دفعة من الغاز الساخن . وإنك لتعجبين من يكون ذلك الشخص — رجل أو امرأة ، من الألف أو الهاء . . . » ثم تنهد وختم حديثه بصوت ينم عن الابتهاج والعزيمة قائلا : على أية حال ، هنالك أمر واحد نستطيع أن نكون منه على ثقة . أياً كان ذلك الشخص فقد كان سعيداً حينما كان على قيد الحياة . فان كل إنسان اليوم سعيد .

ورددت لينينا عبارته قائلة : « أجل إن كل إنسان اليوم سعيد . » فقد سمعا هذه الكلمات تتكرر مائة وخمسين مرة كل مساء مدة اثنى عشر عاماً .

وهبطت الطائرة فوق سطح بيت هنرى ذى الطوابق الأربعين

فى وستمنستر ، فتوجها توا إلى قاعة الطعام حيث تناولا معاً وجبة فاخرة وهما يضيحان من فرط السرور . أخذت لينينا قرصين زنة الواحد منهما نصف جرام ، وأخذ هنرى ثلاثة . ولما بلغت الساعة التاسعة والثلث عبرا الشارع إلى مرقص (كاباريه) وستمنستر آبى الذى افتتح من عهد قريب . وكانت ليلة غير مقمرة صافية مرصعة بالنجوم . ولكن هنرى ولينينا لم يدركا — لحسن الحظ — هذه الحقيقة المقبضة، لأن «علامات السماء » الكهربية أخفت الظلام الخارجى كل الإخفاء . وطالعا هذه العبارة « كالفن ستوبز وفرقته المكونة من ست عشرة عازفاً على السكسوفون » وقد كتبت خارج مرقص آبى الجديد بخط عريض براق يجذب المارين . وطالعا كذلك هذه العبارة : «أجمل أراغين لندن للعطور والألوان . أحدث موسيقى مركبة » .

ودخلا المرقص . وكان الهواء حاراً ساكناً تشم فيه عبير العنبر وخشب الصندل . وعلى قبة سقف الردهة كان أرغن الألوان فى تلك اللحظة يشع ضياء كضياء الشمس الغاربة فى المناطق الحارة ، وكان العازفون على السكسوفون الست عشرة ينشدون الأغنية القديمة المحبوبة التى تبدأ بهذه العبارة « ليس فى العالم كله قارورة مثل قارورتى الصغيرة العزيزة . » وكان بالقاعة أربعمائة زوج يدورون حول أرض الردهة الصقيل وهم يرقصون الرقصة ذات الخمس خطوات . وسرعان ما انضم هنرى ولينينا إلى هذه المجموعة الراقصة . وكانت آلات السكسوفون تنوح كأنها القطط ذات الصوت الرخيم تحت القمر ، وتئن بصوت مرتفع مرة ومنخفض مرة أخرى كأن الموت يقترب منها . والجوقة ذات الصوت المرتجف — وهى غنية بما تعرف عن علم قواعد الألحان — علت نغماتها حتى بلغت القمة . لقد أخذت تعلو ثم تعلو حتى لوّح فى النهاية

رئيس الفرقة بيده ، فانطلقت النغمة الأخيرة للموسيقى الأثيرية وقضت على غيرها من النغم ، وبذا بدد الرئيس الست عشرة عازفاً من البشر العادى من الوجود . وقصف الرعد من أحد المفاتيح . ووسط الضجيج والأضواء ارتفعت بالتدريج نغمة عجيبة ، وأخذت نغمة أخرى فى الانخفاض شيئاً فشيئاً ، وظلت خافتة فترة ما . فكانت مجموعة عجيبة من الأنغام . وأخيراً حدث انفجار فجائى ، صحبه الست عشرة عازفاً منشدين :

قارورتى . كنت دائماً بحاجة إليك !
قارورتى . لماذا أفرغونى منك ؟
السموات بداخلك زرقاء
والجو هناك دائماً جميل
إذ ليس فى العالم بأسره قارورة
مثل قارورتى

وما عتم هنرى ولينينا يرقصان رقصة الخطوات الخمس مع الأربعمائة الآخرين حول وستمنستر آبى ، وكأنهما يرقصان فى عالم آخر . . . عالم إجازة السوما الدفئ الغنى بالألوان ، العالم الودى إلى أقصى الحدود . كان كل امرئ شفيقاً ، جميل المحيا ، مسلياً يبعث على السرور ! « قارورتى ، كنت دائماً بحاجة إليك . . . » ولكن هنرى ولينينا ظفرا بما كانا يطلبان . . . فهما فى الداخل ، فى تلك اللحظة وفى ذلك المكان — مطمئنين فى الداخل مع الهواء العليل ، والسماء ذات الزرقة الدائمة . ولما أنهك الموسيقيون الست عشرة طرحوا سكسفوناتهم جانباً ، وأخذ جهاز الموسيقى المركبة يترنم بأحدث الأنغام والأغانى . حينئذ شعر

هنرى ولينا كأنهما جنينان توأمان يترجحان معاً فوق محيط قنينى من الدم الجديد .

وألقت مضخمات الصوت أوامرها مستترة فى أدب موسيقى بهيج . قالت : عموا مساء يا أصدقائى الأعزاء ، عموا مساء يا أصدقائى الأعزاء ، عموا مساء . . .

وخلّف هنرى ولينا المكان طائعين مع الآخرين جميعاً . وكانت النجوم التى تبعث فى النفوس الضيق قد تقدمت فى مسيرها مسافة طويلة فى السماء . ومع أن الستار الحاجز من « علامات السماء » قد تبدد الآن إلى حد كبير ، غير أن الفتى والفتاة مابرحا ينعمان بجهلهما حقيقة المساء .

وقبل موعد الإغلاق بنصف ساعة كانا قد تناولا الجرعة الثانية من السوما ، فأقامت بين عقليهما وبين العالم الواقعى سداً منيعاً . وعبرا الطريق وهما يحسان كأنهما فى القوارير ، وكذلك اعتليا المصعد إلى حجرة هنرى فى الطابق الثامن والعشرين . كانت لينينا تحس كأنها فى القارورة ، وكانت قد تناولت جراماً ثانياً من السوما . ولكنها برغم ذلك لم تنس أن تتخذ كل احتياط ضد الحمل وفقاً للقواعد المتبعة . وكانت تتخذ هذا الاحتياط بطريقة آلية كلمح البصر من أثر الايحاء أثناء النوم الذى تعرضت له سنوات عدة ومن أثر التدريب المالتسى الذى خضعت له بين الثانية عشرة والسابعة عشرة ثلاث مرات كل أسبوع .

وقالت وهى عائدة من الحمام : إن هذا يذكرنى بأن فانى كراون تريد أن تعرف أنَّى لكِ هذا الحزام الأخضر الجميل المصنوع من جلد كالجلد المراكشى الذى أعطيتنيه .

٣

كانت أيام الخميس الجديدة هى الأيام التى يؤدى فيها برنارد صلاة الجماعة . يتناول عشاءه مبكراً فى الافروديتيم (التى انتخب لها هلمهولتز من عهد قريب وفقاً للبند الثانى) ثم يستأذن صاحبه ، وينادى سيارة أجرة فوق السطح ، ويطلب إلى سائقها أن يطير به إلى بيت الغناء الجمعى لصاحبه فوردسن . فترتفع السيارة مائتى متر ، ثم تتجه رأساً نحو الشرق . وعند دورانها يرى برنارد أمام عينيه بيت الغناء ، وهو بناء ضخم جميل ، من المرمر الأبيض طوله ٣٢٠ متراً ينعكس فوقه الضوء فيشرق فوق لدجيت هلُ متوهجاً كالثلج الناصع . وله رصيف للطائرات ، عند كل ركن من أركانه الأربعة حرف T ضخم يتلألأ باللون القرمزى أثناء الليل . وبالمكان أربعة وعشرون بوقاً ذهبياً كبيراً تتجلجل من أهوائها موسيقى مركبة مقدسة .

ولما وقعت عينا برنارد على « ساعة هنرى الكبيرة » فى بيت الغناء قال محدثاً نفسه : « ألا لعنة الله علىّ ! لقد تأخرت » . ودقت الساعة فعلا وهو يدفع للسائق أجره . ورددت الأبواق الذهبية فى صوت منخفض غليظ هذه الكلمة : « فورد ، فورد ، فورد . . . » وترنمت بها تسع مرات ، وركض برنارد صوب المصعد .

وكانت قاعة الاجتماعات الكبرى التى يقام فيها الاحتفال بعيد فورد كما تلقى فيها الأناشيد الدينية الجمعية فى أسفل البناء . وفوق هذه القاعة سبعة آلاف حجرة ، مائة فى كل طابق ، تستخدمها « فرق الجماعة » فى صلواتهم التى يؤدونها مرة كل أسبوعين . وهبط هنرى إلى الطابق الثالث والثلاثين ، وانطلق فى دهليزه مسرعاً ، ثم وقف

خارج الغرفة رقم ٣٢١٠ برهة من الزمن متردداً . ثم التوى بجسمه وفتح الباب ثم ولج الغرفة .

وحمد برنارد فورد إن لم يكن آخر الداخلين . فقد بقيت ثلاثة مقاعد من الاثنى عشر المنظمة حول المائدة المستديرة فارغة . فدلف إلى أقربها ، وحاول ما استطاع ألا يلحظه أحد ، وتأهب للغضب عند دخول القادمين بعده فى أى وقت يصلون .

والتفتت نحوه الفتاة التى كانت على يساره وسألته : ماذا كنت تلعب بعد ظهر اليوم ؟ الموانع أو المغناطيسية الكهربية ؟

ونظر إليها برنارد ، ولشد ما كانت دهشته لما عرف أنها مرجانة رستشيلد ، واعترف لها فى خجل شديد أنه لم يلعب هذه أو تلك . فحدقت فيه مرجانة فى دهشة شديدة . ثم كانت فترة من الصمت يسودها القلق .

والتفتت بغتة إلى الرجل الرياضى الذى كان إلى يسارها ووجهت إليه الخطاب .

واكتأب برنارد وظن أن تلك اللحظة كانت بداية صالحة لصلاة الجماعة . وارتقب لنفسه الفشل مرة أخرى فى أن يظفر بالتكفير . وكان يود لو أنه أعطى لنفسه الفرصة كى يتلفت حواليه بدلا من الاسراع إلى أقرب المقاعد . كان يستطيع أن يجلس بين فيفى برادلاف وجوانا ديرل . ولكنه استقر إلى جوار مرجانة بغير تفكير . لك الله يامرجانة ! يا لحاجبيها الأسودين — أوحاجبها على الأصح — لأنهما كانا يلتقيان فوق أنفها . عجباً ! وعلى يمينه كلارا دترتدنج . حقاً إن حاجبيها لم يلتقيا ، ولكنها كانت هوائية جداً . فى حين أن فيفى وجوانا كانتا كاملتين من جميع النواحى . كانتا ممتلئتين ، شقراوين ، متوسطتى

الجسم . . . وقد ظفر بالمقعد المتوسط بينهما ذلك الفظ الغليظ توم كاواجوشى .

وكانت ساروجينى انجلز آخر من حضر .

فقال لها رئيس الجماعة فى قسوة شديدة : لقد تأخرت . وأرجو ألا يحدث ذلك مرة أخرى .

فاعتذرت ساروجينى واتخذت لنفسها مقعداً بين جم بوكانوفسكى وهربرت باكونن . واكتملت الفرقة الآن ، وأمست جماعة الصلاة تامة لا يشوبها نقص . وقد جلسوا حول المائدة فى دائرة كاملة ، كل رجل إلى جوار امرأة ، وكل امرأة إلى جوار رجل . كانوا اثنا عشر شخصاً مستعدين لأن يندمجوا فى واحد ، ويرتقبون التماسك والاندماج التام . فيفقد كل منهم مميزاته الشخصية ويتلاشى فى كائن واحد كبير .

ونهض الرئيس على قدميه ، ورسم علامة الحرف T ، وأدار الموسيقى المركبة ، وأطلق دق الطبول المستمر ، وجوقة من الآلات الموسيقية المختلفة ، التى أخذت تردد فى نغمة مثيرة الألحان القصيرة ذات الأثر الشديد فى النفوس من نشيد الجماعة الأول . وتكرر النشيد مرة بعد أخرى ، ولم يستمع الحاضرون إلى نغمة النابض بأذانهم ، وإنما استمعوا إليـه بحجبهم الحاجزة . ولم يؤثر عويل تلك النغمات المتكررة ورنينها فى العقول ، وإنما كان يلعب بعواطف الرحمة والشفقة فى نفوسهم .

ورسم الرئيس حرف T مرة أخرى ثم جلس . وبذلك بدأت الصلاة . وقد وضعت أقراص السوما المهداة وسط مائدة الطعام . ودارت كأس الحب من يد إلى أخرى ، وقد أترعت بعصير الشليك المثلج الممزوج السوما . ونهلوا منها جميعاً مرددين هذه العبارة « أنى أشرب نخب

فنائى » ثم ترنموا جميعاً بنشيد الجماعة الأول على إيقاع جوقة الموسيقى المركبة . وهذا هو النشيد :

أى فورد ، نحن اثنا عشر ، اللهم فاجعل منا واحداً
فنصبح كقطرات الماء يتكون منها تيار الجماعة
اللهم مكنا الآن من أن نجرى معاً
مسرعين كسيارتك الرخيصة اللامعة .

وأنشدوا اثنتى عشرة فقرة فى شغف شديد . ثم دارت عليهم كأس الحب مرة أخرى ، فتناولوها مرددين الآن هذه العبارة : « انى أشرب نخب الكائن العظيم » . وشربوا جميعاً . وأخذت الموسيقى تصدح بغير انقطاع . ودقت الطبول . وعلت النغمات وتضاربت واشتد تأثيرها فى العواطف حتى أشبعتها . وأخذوا يترنمون بنشيد الجماعة الثانى قائلين :

هيا ، أيها الكائن الأكبر ، يا صديق الجماعة
يامن فنينا فيك وحدك نحن الاثنى عشر
إننا نشتهى الموت ، لأن حياتنا الكبرى
لا تبدأ إلا بعد الممات .

وأنشدوا اثنتى عشرة فقرة أخرى . وبعدئذ أخذت السوما تفعل فعلها . فأبرقت العيون ، وتوردت الخدود ، وأشرقت الوجوه ببسمات السعادة والود ، وقد بعثها ضياء الخير العام . حتى أن برنارد نفسه أحس بشئ من النشوة . فلما التفتت إليه مرجانة رستشيلد وأشرقت عليه ، سعى جهده أن يبادلها الاشراق — ولكن حاجبها — ذلك الحاجب المزدوج — كان للأسف مايزال ملحوظاً لا يستطيع تجاهله

مهما حاول ذلك . ولم تبلغ النشوة به حد كبيراً . وربما لو كان جالساً بين فيفى وجوانا . . . وللمرة الثالثة دارت كأس الحب . وقالت مرجانة رستشيلد : « إنى أشرب نخب قرب مجيئه » وقد جاء دورها أن تكون هى من بين أعضاء الدائرة جميعاً هى البادئة بالشعائر . وكان صوتها مرتفعاً متهللا . وشربت وسلمت الكأس لبرنارد فكرر بعدها هذه العبارة : « انى أشرب نخب قرب مجيئه » وقد حاول مخلصاً أن يحس بقرب المجئ . غير أن الحاجب ما عتم متسلطاً على ذهنه . و « المجئ » بالنسبة إليه جد بعيد . وشرب وناول الكأس كلارا دتردنج . وقال محدثاً نفسه : « إنى واثق من فشلى مرة أخرى » ولكنه مابرح يبذل جهده كى يبدو مشرق الجبين .

ودارت كأس الحب دورة كاملة . فأشار الرئيس للجمع رافعاً يده . فصاحت الجوقة فجأة مترنمة بنشيد الجماعة الثالث :

ألا تشعرون كيف يقبل علينا الكائن الأكبر!
ابتهجوا ، حتى تموتوا من شدة الابتهاج !
ولتذب نفوسكم فى موسيقى الطبول !
ذلك لأنى أنا أنت وأنت أنا .

وتلاحقت الفقرات المنظومة ، وأخذت أصواتهم تشف عن التأثر العميق . وكان إحساسهم بقرب المجئ شبيه بالتوتر الكهربى فى الهواء. وأسكت الرئيس الموسيقى ؛ وعند النغمة الأخيرة من الفقرة الأخيرة ساد الصمت الشامل — صمت الارتقاب الطويل الذى يسرى فى النفس ويهزها كأنه الكهرباء . ومد الرئيس يده ، وإذا بصوت مفاجئ يسمعونه فوق رؤوسهم . صوت قوى عميق ، فيه نغم موسيقى لا يتوفر

للصوت الانسانى المجرد ؛ صوت غير بشرى ، غنى ، حار ، يدل على الحب والشوق والرأفة ، صوت عجيب غريب غير مألوف . قال الصوت : «أى فورد ، فورد ، فورد» فى بطء شديد ، وبنغمة تنخفض شيئاً فشيئاً . وشع من الشباك العصبية المعوية إحساس بالدفء أثار كل الأطراف من أجسام المستمعين . وتحدر الدمع فى أعينهم ، وأحسوا كأن قلوبهم وأمعاءهم تتحرك فى داخلهم — كأن بها حياة مستقلة وذابوا وتحللوا عند سماعهم هذه الكلمة « فورد ، فورد » . ثم صدر الصوت مرة أخرى وكأنه من بوق وقال بغتة وبنغمة أخرى تثير الذعر : « أنصتوا ، أنصتوا ! » فأنصتوا . وبعد فترة سكون وجيزة تحول الصوت إلى همس — ولكنه همس أشد نفاذاً من أعلى صياح . وأخذ يكرر هذه العبارة : «هذا وقع أقدام الكائن الأكبر . » ثم كاد الهمس يتلاشى ثم قال : « إن أقدام الكائن الأكبر فوق الدرج . » ثم ساد الصمت مرة أخرى . وكانت الأعصاب قد توترت من الانتظار ، ثم استرخت برهة ، فتوترت الآن مرة أخرى ، وكادت أن تتمزق من شدة التوتر ارتقاباً للقادم . فلقد سمعوا أصوات الكائن الأكبر وهى تدب دباً خفيفاً فوق الدرج ، وتقترب شيئاً فشيئاً فوق السلم غير المرئى . وظلوا ينصتون إلى وقع أقدام الكائن الأكبر ، وأخيراً بلغ بهم التوتر أقصاه ، ووثبت مرجانة رتشيلد على قدميها ، وحملقت بعينيها ، وانفرجت شفتاها . ثم صاحت قائلة :

— إنى أسمعه !

وصاحت ساروجينى انجلز وقالت : إنه آت .

وهب توم كاواجوشى وفيفى برادلاف على الأقدام فى وقت واحد معاً وقالا : أجل إنه آت ؛ وانى لأسمعه .

وأكدت جوانا صدق قولها فى لفظ غير واضح .

وصرخ جم بوكانوفسكى قائلا : إنه آت .

وانحنى الرئيس إلى الأمام ، وبلمسة خفيفة أطلق الأصناج تهذى والآلات النحاسية ترن ، ودقت الطبول كأنها محمومة .

وصاحت كلارا دترنج قائلة : « آه إنه آت . » وكأن أحداً يحز رقبتها .

وأحس برنارد أنه قد حان له أن يفعل شيئاً ما فقفز إلى أعلى وصرخ قائلا : « إنى أسمعه . إنه آت . » ولم يكن صادقاً ، فانه لم يسمع شيئاً ، ولم يكن هناك بالنسبة إليه أحد مقبل ، برغم الموسيقى وبرغم الاضطراب المتزايد . ولكنه هز ذراعيه ، وصاح مع خيارهم ، ولما بدأ الآخرون يرقصون ويدبون ويتنقلون ، رقص وتنقل معهم .

وساروا فى موكب مستدير وهم يرقصون ، وقد وضع كل منهم يديه على مؤخرة الراقص السابق . وأخذوا يدورون فى المكان صائحين معاً ، وهم يدبون على أنغام الموسيقى ، ويرقصون على توقيعها وأيديهم فوق أدبار السابقين . وكانت أيديهم جميعاً تضرب معاً كأنها يد واحدة ، والأدبار ترد صدى الضربات معاً كأنها ألواح . فكان الاثنا عشر شخصاً كأنهم شخص واحد . ثم قالوا معاً : « إنى أسمعه ، إنى أسمع قدومه » وأسرعت الموسيقى ، ودبت الأقدام مسرعة ، وأسرعت الأيدى الموزونة فى وقعها على الأدبار . وانفجرت بغتة نغمة مركبة عظيمة معلنة اقتراب التكفير وبلوغ الاتحاد حده الأقصى ، وقدوم الاثنى عشر موحدين فى فرد واحد ، والكائن الأكبر المجسد .وردد النغم هذه الكلمات: « شولم ، شولم » بينما واصلت الطبول دقها كأنها محمومة :

شولم ، شولم ، يا فورد يا مبعث السرور
قبّل البنات واجعل منهن واحدة .
وانشر السلام فوق البنات والبنين موحدين
شولم ، شولم . إنك تحرر النفوس .

وردد الراقصون هذه العبارات الدينية وكرروها . وبدأت الأضواء تتلاشى مبطئة وهم يغنون — وتلاشت الأضواء وازدادت فى الوقت نفسه دفئاً وغنى وحمرة ، حتى باتوا فى النهاية يرقصون فى الشفق القرمزى الذى يشاهد فى مخزن الأجنة . وفى هذا الظلام الدموى الذى يشبه الضوء فى بيوت الأجنة ، واصل الراقصون دورانهم وظلوا يرقصون على هذا النغم الذى لا يفتر مرددين تلك العبارات الدينية « شولم ، شولم ... » ثم ترنحت دائرتهم وانحلت وانفرط عقدها فوق حلقة الأرائك التى كانت تحيط بالمائدة ومقاعدها الاثنى عشر — دائرة حول أخرى . وتغنى « الصوت » العميق برفق وترنم بالنشيد الدينى مردداً : « شولم ، شولم . . . » وكأن حمامة ضخمة سوداء كانت فى ذلك الشفق الأحمر تنشر جناحى الخير وهى تحلق فوق الراقصين وقد انبطحوا الآن أرضاً واستلقوا على ظهورهم .

كانوا واقفين فوق السطح وقد دقت ساعة هنرى الكبرى الحادية عشرة منذ لحظة . وكان المساء هادئاً دفيئاً .

وقالت فيفى برادلاف : « ألم يكن الأمر جد عجيب ؟ » ونظرت إلى برنارد وفى عينيها نشوة السرور ، ولكنه السرور الذى لا تلمس فيه بارقة من الاضطراب أو التأثر — لأن الاضطراب معناه أن الشخص لا يزال يتطلب المزيد . وأحست بالنشوة الهادئة التى يشعر بها كل من يبلغ مأرباً ،

كما أحست بنوع من الطمأنينة التى لا يبعثها مجرد الاشباع أو الفراغ ، وإنما تلك الطمأنينة التى تبعثها الحياة المتزنة ، والنشاط المستقر المعتدل . وهى طمأنينة قوية حية . لأن صلاة الجماعة قد أعطتهم بمقدار ما أخذت ، وسحبت من نفوسهم لتعيد امتلاءها . فكانت ممتلئة النفس ، كاملة ، وما برحت تحس كأنها أكبر من نفسها . وأصرت على سؤالها السابق لبرنارد وهو : « ألست تظن أن الأمر كان عجيباً ؟ » وحدقت فى وجهه بعينين لامعتين خارقتين للطبيعة .

وقال كاذباً : « أجل ، لقد ظننت الأمر عجيباً » ثم أشاح بوجهه . وكان منظر وجهها الذى تغيرت ملامحه تهمة له بانفصاله ومذكراً ساخراً بذلك . وأحس حينئذ بعزلة البائس كما أحس بها عندما بدأت الصلاة ، بل لقد أحس بزيادة العزلة من جراء فراغ نفسه الذى لم يمتلىء وشبعه القاتل . كان منفصلا بذاته لم يشعر بغفران ذنوبه ، فى حين أن الآخرين قد اندمجوا فى الكائن الأكبر . أحس بالعزلة حتى وهو بين أحضان مرجانة — بل أشد عزلة من أى عهد سبق له فى حياته ، وشعر بأنه لم يتغير بتاتاً فشاع اليأس فى نفسه . ولقد خرج من ذلك الشفق القرمزى إلى الضوء الكهربى العام وقد تعزز شعوره بنفسه إلى حد الايلام . كان بائساً كل البؤس ، وربما كانت تلك غلطته الشخصية (وقد اتهمته بذلك عيناها البراقتان) . وكرر قوله : « كان الأمر عجيباً جداً » . ولكنه لم يفكر إلا فى حاجب مرجانة .

الفصل السادس

١

لقد حكمت لينينا على برنارد ماركس بالشذوذ الخارق . وقد بلغ به الشذوذ أنها ساءلت نفسها خلال الأسابيع التالية أكثر من مرة هل لا تستطيع أن تغير رأيها فى عطلة المكسيك الجديدة ، وتستبدل بها رحلة إلى القطب الشمالى مع بنتو هوفر . ولم يقلقها إلا أنها كانت تعرف القطب الشمالى ، وأنها زارته مع جورج إدزل فى الصيف الماضى ، وأنها — فوق ذلك — وجدته مكاناً شديد العبوس . لم تجد هناك ما يشغلها ، والفندق قديم الطراز جد عتيق . ولم يكن بحجرات القوم تلفزيون . ولم يكن هناك أرغن العطور ، ولم تسمع غير الموسيقى المركبة الفاسدة . ولم يكن هناك أكثر من خمسة وعشرين ملعباً للعبة « سكواش السلم المتحرك » لأكثر من مائتى زائر . كلا . لقد قر رأيها على أنها لاتستطيع أن تجابه القطب الشمالى مرة أخرى . ثم إنها — فوق ذلك — لم تزر أمريكا غير مرة واحدة . وحتى تلك الزيارة لم تكن كافية . لقد زارت نيويورك فى عطلة من عطلات نهاية الأسبوع الرخيصة ، ولم تذكر إن كانت تلك الزيارة برفقة جين جاك حبيب الله أم بوكانوفسكى جونز. غير أنها كانت — على أية حال — عديمة الأهمية . فكان الأمل فى الطيران غرباً مرة أخرى مدة أسبوع كامل شديد الإغراء لها . ثم إنها — فوق ذلك — سوف يقضيان مالا يقل عن ثلاثة أيام من هذا الأسبوع

فى الأماكن المخصصة للمتوحشين . ولم يَزُرْ هذه الأمكنة أكثر من ستة أشخاص فى المركز كله . وكان برنارد بوصفه عالم نفس من درجة (+ ١) أحد الرجال القلائل الذين يستطيعون — فيما تعلم — الحصول على التصريح بالزيارة . وكانت تلك فرصة نادرة للينينا. ولكن شذوذ برنارد كذلك نادر جداً ، حتى لقد ترددت فى انتهاز الفرصة ، وفكرت فعلا فى المخاطرة بزيارة القطب الشمالى مرة أخرى مع بنتو الصديق المضحك القديم . فلقد كان بنتو على الأقل رجلا طبيعياً فى حين أن برنارد . . .

وكانت فانى تعلل شذوذه بوجود الكحول فى دمه . ولكن هنرى شبّه برنارد المسكين بوحيد القرن ذات مساء وهو فى الفراش مع لينينا عندما تباحثا معاً بشأنه فى شغف شديد لأنه كان عشيق لينينا الجديد .

قال هنرى بأسلوبه الموجز القوى : « إنك لا تستطيعين أن تعلّمى وحيد القرن حيلة جديدة . ومن الرجال من يشبه هذا الحيوان ، فهم لا يستجيبون استجابة صحيحة لعملية التكييف . مساكين أمثال هؤلاء ، و برنارد واحد منهم . ولكنه — لحسن حظه — ممتاز فى عمله ، و إلا لما احتفظ به المدير » . ثم قال معزياً : ولكنى أظن — على أية حال — أنه عديم الأذى .

ربما كان عديم الأذى ، ولكنه كان كذلك شديد الازعاج . فعنده أولا ذلك الجنون الذى يحبب إليه العمل وهو منعزل . ومعنى ذلك عملياً أنه لا يعمل البتة شيئا ، لأن المرء لا يستطيع أن يؤدى عملا وهو وحيد (إذا استثنينا طبعاً ساعات النوم ، ولا يستطيع أن يقضى فيها المرء عمره) . أجل لم يكن هناك ما يستطيع المرء أن يؤديه وحيداً إلا القليل النادر . وكان أول يوم خرجت فيه لينينا مع برنارد ساعة الأصيل معتدلا جميلا . فاقترحت لينينا أن يسبحا فى نادى توركى الريفى

ثم يتناولا العشاء فى اتحاد اكسفورد . ولكن برنارد خشى كثرة الزحام . فاقترحت لينا شوطاً من لعبة الجولف المغناطيسى المكهرب فى سنت أندروز . ولكن برنارد رفض مرة أخرى ، لأنه كان يعتبر هذه اللعبة مضيعة للوقت .

فسألته لينا فى شئ من الاندهاش : وما فائدة الوقت إذن ؟

الوقت عنده — على ما يبدو — ينبغى أن ينفق فى النزهة سيراً على الأقدام فى منطقة البحيرات . وقد اقترح ذلك الآن . وأراد أن يهبطا فوق قمة سكدو ثم يسيران ساعتين فوق العشب فى العراء . « معك وحدك يا لينا . »

— ولكننا سنقضى الليل كله وحدنا يا برنارد .

فاحمر برنارد خجلا وأشاح بوجهه . وتمتم قائلا : إنما قصدت أننا سنكون وحدنا نتحدث .

« نتحدث ؟ فيم ؟ » المشى والحديث — تلك طريقة شاذة جداً فى قضاء اليوم بعد الظهر .

وأغرته فى النهاية — برغم إرادته — على أن يطيرا إلى أمستردام ليشهدا المباراة الشبيهة بالنهائية بين النساء لبطولة المصارعة بين ربات الوزن الثقيل .

وتذمر قائلا : « هذا زحام كالمعتاد » . وبقى طيلة عصر ذلك اليوم مكتئباً معانداً . لم يتحدث إلى أصدقاء لينا (وقد قابلا منهم عشرات فى مقصف السوما الممزوجة بالقشدة المثلجة بين أشواط المصارعة) . و برغم بؤسه رفض رفضاً باتاً أن يتناول نصف الجرام من كاساتا التوت الذى قدمته له قائلا : إنى أوثر أن أكون أنا نفسى ، فى اكتئابى ، على أن أكون شخصاً آخر مهما يكن مرحاً .

فأجابت لينا قائلة : « إن الجرام الواحد فى حينه يغنيك عن تسعة إذا فات الأوان » . وهى فى هذا التعبير إنما تستعيد ثروتها القيمة من الحكمة التى لقنتها أثناء النوم .

ولكن برنارد أبعد الكوب الذى قدم إليه وقد عيل صبراً .

فقالت له : لا تحتد ، واذكر أن سنتيمتراً واحداً مكعباً يشفى عشراً من العواطف الحزينة .

فصاح بها : وحق فورد لتسكتن .

فهزت لينا كتفيها وقالت : إن الجرام خير دائماً من ضيق النفس .

وختمت حديثها محتفظة بكرامتها ، وشربت الكساتا بنفسها .

وأصر برنارد وهما فى طريقهما عائدين فوق القنال الانجليزى ، أن يوقف محرك طائرته وأن يحلق باللوالب على ارتفاع مائة قدم من الموج ؛ لأن الجو قد ساء ، وعصفت ريح جنوبية غربية ، وتكاثفت السحب فى السماء .

وقال آمراً : أنظرى !

قالت لينا : « الجو مريع » ثم انكمشت وراء النافذة . فلقد راعها فراغ الليل المقبل ، والمياه التى رقش سطحها الزبد المكفهر وهى تجيش تحت بصريهما ، ووجه القمر الشاحب وقد بدا تحت السحب المسرعة نحيلا مشتتاً . ثم قالت : « هيا بنا نفتح الراديو بسرعة ! » ومدت يدها نحو المفتاح فوق اللوحة الأمامية وأدارته حيثما اتفق .

فاذا بستة عشر صوتاً أجش مذبذباً تذيع : « . . . السموات زرقاوات بداخلكم ، أما الجو فدائماً . . . »

ثم أعقب ذلك فواق (زغطة) وصمت . وأوقف برنارد تيار

الاذاعة . وقال : إنى أحب أن أنظر إلى البحر وأنا هادئ مطمئن . إن المرء لا يستطيع أن ينظر إليه وسط هذا الضجيج المزعج .

— ولكنه ممتع ، وأنا لا أحب أن أنظر إلى البحر .

« ولكنى أحب . ويجعلنى ذلك كأنى . . . » وتردد قليلا باحثاً عن الكلمات التى يعبر بها عن نفسه ، ثم قال : كأنى أكثر مما أنا — إذا كنت تفهمين ما أعنى . أكثر من نفسى على ألا تتغير طبيعة نفسى ، ولا أقصد أن أكون جزءاً من شئ آخر مختلف عنى كل الاختلاف ، لا أحب أن أكون خلية فى جسم المجتمع فحسب . ألا يبعث فيك هذا المنظر شعورا كهذا يا لينينا ؟

ولكن لينينا مابرحت تصيح مرددة : « إنه مزعج ، إنه مزعج » . ثم قالت : وكيف تستطيع أن تبوح بحديث كهذا وتقول إنك لا تحب أن تكون جزءاً فى جسم المجتمع ؟ ألا ترى أن كل فرد يعمل لكل فرد آخر . إننا لا نستغنى عن أحد . حتى « الهاء » . . .

قال برنارد بازدراء : أجل إنى أعلم ذلك ، وأعرف (أن « الهاء » نفسها نافعة !) بل حتى أنا . وكم وددت لو لم أكن .

وصعقت لينينا لهذا الكفران ، واحتجت عليه بصوت ينم عن الدهشة والضيق . قالت : برنارد ، كيف تستطيع ذلك ؟

وقال متفكراً وفى صوت مختلف مردداً عبارتها : كيف أستطيع ؟ كلا . إن المشكلة الحقيقية هى هذه : كيف لا أستطيع . أو بعبارة أخرى (لأنى أعرف تمام المعرفة لماذا أستطيع) كيف تكون حالى لو استطعت ، ولو كنت حراً غير مستعبد لما كيفت عليه .

— برنارد إنك تصرح تصريحات خطيرة .

— ألست تتمنين أن تكونى حرة يا لينينا ؟

— لست أدرك ما تعنى . إننى حرة . وأستطيع لو شئت أن أقضى وقتاً سعيداً . كل فرد سعيد فى هذه الأيام .

فضحك وقال : أجل «إن كل فرد سعيد فى هذه الأيام .» ونحن نعلم الأطفال هذه الحقيقة وهم فى الخامسة . ولكن ألا تحبين يا لينينا أن تكون لك الحرية فى أن تسعدى بطريقة أخرى ؟ ولتكن تلك مثلا طريقتك الخاصة ، لا طريقة كل فرد آخر .

وكررت قولها : « لست أدرك ما تعنى » . ثم التفتت إليه وقالت متوسلة إليه : هيا بنا نعود يا برنارد . إنى أمقت هذا المكان مقتاً شديداً .

— ألا تحبين رفقتى ؟

— إنى طبعاً أحب ذلك يا برنارد ! ولكنى أمقت هذا المكان المريع .

— ظننت أننا نكون ألصق رفقة هنا — وليس حولنا إلا البحر والقمر . هنا نكون ألصق صحبة منا وسط الزحام ، أو حتى فى حجراتى . ألست تفهمين ذلك ؟

فأجابت مصممة : «لست أفهم شيئاً ! » وقد اعتزمت أن تحتفظ بعدم إدراكها بغير مساس . وواصلت حديثها بنغمة أخرى . قالت : « لست أفهم شيئاً ، وبخاصة لماذا لا تتناول السوما عندما تساورك هذه الأفكار المزعجة . إنك لو فعلت لنسيتها بتاتاً . ويحل المرح الشديد فى نفسك محل الشقاء . » ثم انفرجت شفتاها عن ابتسامة قصدت من ورائها أن تداهنه وترغبه وتثير شهوته ، برغم ما كان يجول فى عينيها من القلق والحيرة .

ونظر إليها صامتاً بوجه لم يتأثر بها ، عليه سيما الجد . وحدق فيها ،

وبعد بضع ثوان حولت لينينا عنه عينيها . وصدرت منها ضحكة يسيرة عصبية ، وحاولت أن تفكر فى موضوع تتحدث فيه فلم تستطع . وامتد بهما الصمت زمناً .

وأخيراً تكلم برنارد بصوت منخفض متعب . قال : « سوف نعود كما أردت » وداس مفتاح السرعة بشدة فانطلقت الطائرة فى الهواء . وعند رقم أربعة آلاف أدار المحرك . وطارا صامتين دقيقة أو اثنتين . ثم بدأ برنارد يضحك بغتة . وكان الضحك فى رأى لينينا شاذاً ، ولكنه ضحك على كل حال .

ثم تجرأت ووجهت إليه هذا السؤال : « هل أنت الآن أحسن شعوراً ؟ » وبدلا من أن يجيبها على ذلك رفع إحدى يديه من الآلات التى تسير الطائرة ووضع ذراعه حول خصرها وبدأ يداعب ثدييها .

فقالت لنفسها : أحمد الله . لقد اطمأن ثانية .

وبعد نصف ساعة كانا فى حجراته . وابتلع برنارد أربعة أقراص من السوما دفعة واحدة ، وأدار الراديو والتلفزيون وبدأ يخلع ملابسه .

ولما تقابلا فى عصر اليوم التالى فوق السطح سألته لينينا فى مكر شديد قالت : هل تظن أننا تمتعنا بالأمس ؟

فأومأ لها برنارد برأسه . ثم اعتليا الطائرة ، وبعد هزة خفيفة انطلقت بهما .

وقالت لينينا مفكرة ، وهى تربت على ساقيها : يقول الناس جميعاً إنى هوائية جداً .

قال هنرى : « جداً » وفى عينيه تعبير عن الألم . ودار بخلده أنها « كاللحم » . ورفعت بصرها فى قلق شديد وقالت : « ولكن لعلك لا ترانى سمينة جداً ! » فهز رأسه . وكانت فى نظره كاللحم المكتنز .

قالت : « هل ترانى صالحة ؟ » فأومأ بالايجاب . . . قالت : من جميع النواحى ؟

فقال بصوت مرتفع : « أنت كاملة » . ثم فكر فى نفسه : إنها تحب نفسها كذلك ، وأنها لا يهمها أن تكون كاللحم .

وابتسمت لينينا ابتسامة الظافر . غير أن رضاها كان سابقاً لأوانه .

وبعد فترة سكون واصل الحديث قائلا : ولكنى — برغم ذلك — كنت أحب أن ينتهى الأمر على خلاف ما حدث .

« على خلاف ما حدث ؟ » هل هناك نهايات أخرى ؟

ففسر ما قصد إليه قائلا : لم أر أن ينتهى الأمر بذهابنا إلى الفراش .

فذهلت لينينا .

— لا يكون ذلك بغتة ، ولا يكون فى اليوم الأول .

— وإذن فماذا . . . ؟

فشرع يتحدث حديثاً لا معنى له خطراً غير مفهوم . وبذلت لينينا جهدها محاولة ألا تستمع إلى الحديث أو تتفهمه . ولكنه كان بين الفينة والفينة يصر على أن يلقى عبارته بدرجة مسموعة . سمعته يقول: « . . . كى أجرب أثر كبح دوافعى » وكأن هذه الكلمات مست زنبركا فى عقلها .

فقالت جادة : لا تؤجل إلى الغد ما تستطيع اليوم من لهو .

فلم يجب على ذلك بأكثر من قوله : « التكرار مائتى مرة ، مرتين كل أسبوع ، من الرابعة عشرة إلى السادسة عشرة والنصف » . وهكذا واصل كلامه الجنونى السئ بغير انقطاع .

وسمعته يقول : أحب أن أعرف ما الهوى . أحب أن أحس بشئ ما إحساساً قوياً .

ونطقت لينينا هذه العبارة : إذا أحس الفرد ، ترنحت الجماعة .

— ولماذا لا تترنح قليلا ؟

— برنارد !

ولكن برنارد لم يشعر بالخزى .

واستمر يقول : الكبار من الناحية العقلية وأثناء ساعات العمل ، والصغار فيما يمس مشاعرهم ورغباتهم .

— إن إلـٰهنا فورد قد أحب الصغار .

وتجاهل برنارد هذه المقاطعة وواصل حديثه . قال : لقد طرأ لى فجأة ذات يوم أنه من الجائز أن يبقى الانسان راشداً كل الوقت .

وقالت لينينا بصوت ثابت : إنى لا أفهم .

— أعرف أنك لا تفهمين . ومن أجل هذا ذهبنا أمس إلى الفراش معاً — كالاطفال — بدلا من أن نبقى راشدين فننتظر .

قالت لينينا : ولكننا تمتعنا . أليس كذلك .

فأجاب بقوله : « أجل ، لقد كانت متعة كبرى » ولكن صوته كان حزيناً وقسمات وجهه جد بائسة ، حتى أن لينينا أحست أن كل انتصارها قد تبخر فجأة . ربما وجدها سمينة جداً .

ولما عادت لينينا وأسرت لفانى بمكنون صدرها ، قالت لها فانى : لقد قلت لك ذلك . إنه الكحول الذى وضعوه فى دمه .

فأجابت لينينا : « ولكنى برغم ذلك أحبه . ما أجمل يديه . وما أرقه حينما يحرك كتفيه — إنه حينئذ يجذبنى جذباً شديداً . » وتنهدت ثم قالت : ولكنى أود لو لم يكن شاذا كما هو .

٢

وقف برنارد لحظة خارج غرفة المدير ، ثم تنفس نفساً عميقاً ورفع كتفيه ، واستعد للقاء البغضاء والرفض داخل الغرفة . وقرع الباب ثم دخل .

وقال وهو مبتهج قدر استطاعته : « هذا تصريح لتوقع عليه أيها المدير . » ثم وضع الورقة على المكتب .

ورمقه المدير بنظرة مريرة . ولكنه لمح فى أعلى الورقة ختم « مكتب المراقب العالمى » وفى أسفلها توقيع مصطفى مند بخط أسود كبير . وكان كل شئ على أتم نظام . فلم يكن للمدير بعد هذا خيار ، فوقع اسمه بالقلم الرصاص . وتوقيعه عبارة عن حرفين صغيرين باهتين حقيرين تحت توقيع مصطفى مند . وأوشك أن يرد الورقة بغير تعليق وبغير السرعة الفوردية الطبيعية ، لولا أن جذبت عينه كلمة مسطورة خلال عبارة التصريح .

قال : « إلى المنطقة المكسيكية الجديدة ؟ » وقد بدا فى صوته وفى وجهه الذى رفعه إلى برنارد نوع من الاضطراب والاندهاش .

ودهش برنارد لدهشته وأومأ برأسه ، ثم ساد الصمت .

واستند المدير إلى كرسيه مقطبا جبينه وقال وكأنه يحدث نفسه ولا يخاطب برنارد : « مذ متى كان ذلك ؟ أظن أنه كان منذ عشرين عاماً ، أو قرابة الخمسة وعشرين عاماً . لابد أنى كنت فى مثل سنك . . . » ثم تنهد وهز رأسه .

وأحس برنارد بالقلق الشديد . وتعجب كيف أن رجلا كهذا المدير محافظاً على التقاليد ، مستقيما إلى درجة الوسوسة ، يخلط هذا الخلط

فى الكلام ! فكان برنارد يود لو أخفى وجهه أو يخرج من الغرفة مسرعاً لا لأنه كان هو شخصياً يعترض على حديث الناس عن الماضى فى حد ذاته ، فان ذلك كان من الأهواء الايحائية التى خيل لنفسه أنه تخلص منها بتاتاً . وإنما الذى أخجله هو أنه أدرك أن المدير رفض الطابع . وبرغم هذا الرفض كان هو نفسه قد ارتكبَ هذا الأمر المحرم . ولكن تحت أى دافع باطنى يا ترى ؟ لقد أنصت له برنارد بشغف وهو فى قلق شديد .

كان المدير يقول : « لقد طرأت لى مثلك هذه الفكرة بعينها . وأردت أن أشاهد المتوحشين . وحصلت على تصريح لزيارة المكسيك الجديدة ، وقضيت هناك عطلة الصيف مع الفتاة التى كنت أرافق فى ذلك الحين . وكانت (— ب) وأظن (وهنا أغمض عينيه) أنها كانت ذات شعر أصفر . وكانت على أية حال هوائية جداً . وانى لأذكر ذلك جيداً . ذهبنا معاً إلى هناك وألقينا على المتوحشين نظرة وركبنا الخيل وطفنا بالمكان وما إلى ذلك . وبعدئذ — وكان ذلك فى آخر يوم من أيام عطلتى — ضلت سبيلها . لقد صعدنا راكبين أحد تلك الجبال الثائرة . وكان الجو شديد الحرارة ثقيلا ، ثم استغرقنا فى النوم بعد الغداء . أو على الأقل استغرقت وحدى ، ولا بد أن تكون قد خلفتنى ومشت وحدها . وعلى كل حال فانى لم أجدها إلى جوارى عندما تيقظت. وقد بدأت تهب علينا أشد عاصفة شهدت فى حياتى . وأمطرت السماء وأرعدت وأبرقت ، وانحلت الخيل وانطلقت وحدها . وحاولت أن ألحق بها ولكنى تعثرت وآذيت ركبتى وتعسر علىّ المسير . غير أنى لم أكف عن البحث والصياح ، ولكنى لم أعثر لرفيقتى على أثر . فرجحت أنها عادت وحدها إلى الاستراحة . فدلفت إلى الوادى واتبعت الطريق

الذى سلكناه عند مجيئنا . وكانت ركبتى تؤلمنى أشد الايلام . وكنت قد فقدت ماعندى من السوما . فاستغرق الطريق منى ساعات ، ولم أبلغ الاستراحة إلا بعدمنتصف الليل . غير أنى لم أجدها . لم أجدها . » ثم ساد الصمت .

واستأنف الحديث أخيراً قائلا : « وفى اليوم التالى واصلنا البحث. ولكننا لم نجدها ، ورجحنا أنها وقعت فى أحد الخنادق فى مكان ما ، أو ربما التهمها سبع جبلى . والعلم عند فورد . كان الأمر عجيباً وقد أزعجنى كثيراً فى ذلك الحين . أزعجنى أكثر مما ينبغى لأنه حادث قد يقع لأى انسان . وجسم الجماعة بالطبع باق كما هو مهما تغيرت الخلايا التى يتركب منها . » ولكن يظهر أن هذا العزاء الذى تلقنه أثناء النوم لم يكن شديد الأثر . فهز رأسه وواصل حديثه بصوت منخفض، قال: « إنى — فى الواقع — أحلم بهذا الحادث أحياناً. أحلم كأنى أستيقظ على قصف ذلك الرعد فلا أجدها، وأحلم كأنى أبحث عنها تحت الأشجار . » ثم استرسل فى صمت الذكريات .

قال برنارد وهو يكاد يحسده : أحسب أنها كانت صدمة شديدة لك.

ولما قرع صوته مسمع المدير تنبه إلى موقفه وأحس كأنه آثم ، فرمق برنارد بنظرة سريعة ثم حول عنه عينيه وأظلم وجهه خجلا . ثم عاود النظر إليه بشىء من الريبة المباغتة ، وغضب لكرامته وقال: « لا تتصور أنى كنت على صلة خبيثة مع هذه الفتاة . لم نتبادل العواطف ولم نتعمق فى العلاقات . إنما كانت الصلة بيننا طيبة طبيعية إلى كل حد . » ثم سلم برنارد الجواز قائلا : « إنى لست أعرف حقاً لماذا ضايقتك بهذه القصة التافهة . » وثار على نفسه لأنه أفشى سراً مشيناً فانفجر فى برنارد غاضباً . واتقدت عيناه بالشر الصريح ، ثم قال :

« وإنى لأحب أن أنتهز هذه الفرصة يامستر ماركس كى أذكر لك أنى لست راضياً البتة عن التقارير التى وردت إلىّ عن سلوكك فى غير ساعات العمل . قد تقول إن هذا ليس من شأنى ، ولكنى أقول لك إنه . فان سمعة المركز تهمنى ، ولا بد أن يترفع عمالى عما يثير الريب وبخاصة إن كانوا من الطبقات الراقية . فنحن نكيف أبناء طبقة (ا) بحيث لا يضطرون إلى تكلف السلوك الصبيانى فى عواطفهم . ويقتضيهم ذلك أن يبذلوا جهداً خاصاً فى العمل وفقاً لما نريد . إن من واجبهم أن يكونوا كالأطفال ، حتى إن كان ذلك ضد ميولهم . ولذا فلست أظلمك إن أنا أنذرتك يا مستر ماركس . »

واهتز صوت المدير هزة الغضب . وكان فى غضبه عادلا غير متحيز — فهو يعبر عن عدم رضا المجتمع نفسه . ثم قال : « فلو نمى إلىّ مرة أخرى أنك انحرفت عن المستوى الصحيح للسلوك الصبيانى فسوف أطلب نقلك إلى مركز فرعى — وإنى عندئذ أختار لك ايسلنده . والآن اذهب مع سلامة الله . » ثم استدار فى كرسيه ، وأمسك بالقلم وشرع يكتب .

وقال محدثاً نفسه : « هذا درس له . » ولكنه أخطأ فيما زعم لأن برنارد خرج من الغرفة مترنحاً ثم أغلق الباب محدثاً خلفه صوتا عالياً ، وهو مغتبط لأنه يقف وحده فى كفاحه ضد النظم القائمة ، نشوان لأنه ثمل من إحساسه بأهمية شخصيته المستقلة وخطرها . حتى أن فكرة الاضطهاد نفسها لم تزعجه ، بل لقد أكسبته قوة أكثر مما أكسبته انقباضاً . وأحس بالقدرة الكافية على ملاقاة المصائب والتغلب عليها ، وعلى أن يواجه أى شئ حتى ايسلنده . وقد عزز هذه الثقة فى نفسه لأنه لم يعتقد لحظة أنه سيدعى فعلا لملاقاة أى خطر . إن النـاس

لا ينقلون لمثل هذه الأسباب . وليست ايسلنده سوى وعيد وتهديد . وهو وعيد منبه للنفس وباعث على الحياة . وسار فى الردهة وهو يصفر فعلا .

وكان كالأبطال ذلك المساء وهو يروى ما دار بينه وبين المدير . وختم الرواية قائلا : « ولذا فقد طلبت إليه أن يعود إلى الماضى السحيق ، ثم تركت الغرفة ، وهذا كل ما حدث . » ونظر إلى هلمهلتز واطسن يترقب منه ما يستحق من عطف وتشجيع وإعجاب جزاء له على ما فعل . ولكن هلمهلتز لم ينبس ببنت شفة ولبث صامتاً محدقاً فى أرض الغرفة .

كان يحب برنارد ، وكان شاكراً له لأنه الصديق الوحيد الذى يستطيع أن يتحدث معه فى الموضوعات التى يؤمن بأهميتها . ولكن برنارد — برغم ذلك — كانت له صفات لا يحبها . منها — مثلا — هذا الزهو ، وما يستتبعه من تحمسه فى إشفاقه على نفسه إشفاقاً شديداً . ومنها تعوده الجرأة عقب كل حادث ، وحضور بديهته بدرجة غير مألوفة وهو بعيد عن ذلك الحادث وهى عادة ممقوتة . كان يكره منه هذه الصفات لأنه كان يحبه . ومرت الثوانى وما فتئ هلمهلتز يصوب نظره نحو الأرض ، واحمر برنارد خجلا ثم انصرف بغتة .

٣

لم يقع أثناء الرحلة حادث ما . وبلغت طائرة الباسفيك الأزرق الصاروخية نيو اورليانز مبكرة دقيقتين ونصف ، وضيعت أربع دقائق فى العاصفة التى هبت على تكساس ، ولكنها طارت فى تيار هوائى ملائم عند خط الطول ٩٥ غرباً ، واستطاعت أن ترسو عند سانتا فيه وقد تأخرت أقل من أربعين ثانية عن الموعد المقرر .

قال : « أربعون ثانية فى رحلة جوية دامت ست ساعات ونصف . لا بأس . » وأذعنت له لينينا .

وناما تلك الليلة فى سانتا فيه فى فندق فاخر ، لا يقاس إليه البتة — مثلا — فندق أورورا بورا بالاس المربع الذى عانت فيه لينينا كثيراً فى الصيف السابق . كل غرفة هنا مزودة بالهواء السائل ، والتلفزيون وبآلة التدليك المفرغة المذبذبة ، والراديو ، ومحلول الكافيين المغلى ، وأدوية حارة ضد الحمل ، وثمانية أنواع مختلفة من العطور . وكانت آلة الموسيقى المركبة تعزف عندما دخلا القاعة الكبرى ، ولم يبق لهما ما يشتهيان . وقرآ فى المصعد إعلاناً بأن الفندق به ستون ملعباً لسكواش السلم ، وأن جولف الموانع والجولف المغناطيسى المكهرب يمكن كلاهما أن يلعبا فى الحديقة .

فصاحت لينينا قائلة : ما أجمل هذا . وددت لو أقمنا هنا . ستون ملعباً لسكواش السلم . . .

فأنذرها برنارد قائلا : ولكنك لن تجدى فى منطقة المتوحشين ملعباً واحداً . ولن تجدى هناك عطوراً أو تلفزيون بل ولا ماء ساخناً . فان كنت تعتقدين أنك لا تحتملين ذلك فالبثى هنا حتى أعود .

فامتعضت لينينا وقالت : أستطيع بالطبع أن أحتمل ذلك . وإنما قلت إن المكان جميل هنا لأن . . . لأن التقدم جميل . أليس كذلك؟

فأجاب برنارد وكأنه يحدث نفسه من شدة الانهاك : التكرار خمسمائة مرة كل أسبوع من الثالثة عشرة حتى السابعة عشرة .

— ماذا تقول ؟

— قلت إن التقدم جميل . ومن ثم فلا ينبغى لك أن تأتى إلى منطقة المتوحشين إلا إن كنت حقاً تحبين ذلك .

— إنى لأحب ذلك .

فقال لها برنارد وكأنه يهددها : حسنا . وليكن ذلك .

وكان جوازهما يقتضى توقيع حارس المنطقة ، فقدما له نفسهما فى مكتبه فى الوقت المناسب فى اليوم التالى . وتسلم بطاقة برنارد بواب زنجى من طراز (+ ه) . وسمح لهما بالدخول فوراً .

وكان الحارس رجلا أشقر اللون ، صغير الرأس ، من نوع (— ا) ، قصيراً متورداً ، وجهه كالقمر ، عريض المنكبين ، ذا صوت قوى مرتفع ، يلائم أشد الملاءمة النطق بحكم الايحاء أثناء النوم . وكانت لديه ثروة من المعارف التى لا تتصل بالموضوع ، يسدى النصيحة الطيبة دون أن يطلب ذلك إليه أحد . وإن بدأ أخذ يتدفق بصوت كقصف الرعد .

— . . . خمسمائة وستون ألف كيلومتر مربع مقسمة إلى مناطق فرعية منفصلة ، يحيط بكل منها سور من الأسلاك الشديدة التوتر .

وفى هذه اللحظة ولغير ما سبب واضح تذكر برنارد فجأة أنه ترك صنبور الكولونيا فى حمامه مفتوحاً يتصبب منه العطر .

— . . . وتستمد التيار من محطة المجرى المائى الكهربى الكبير .

ورأى برنارد بمخيلته الابرة فوق مقياس العطر تتقدم تدريجاً بسرعة النملة ولكنها لا تفتر . فقال : إن ذلك يكلفنى ثروة طائلة حتى أعود فخابروا هلمهلتز تلفونياً على عجل .

— . . . أكثر من خمسة آلاف كيلومتر من الأسوار بقوة ستين ألف فولت .

فقالت لينينا : « لا تقل ذلك » ولم تدرك البتة ما قاله الحارس ولكنها فهمت ما يعنى تلميحاً من سكوته الذى كان يحاكى سكوت المثلين . وكانت قد ابتلعت نصف جرام من السوما دون أن يراها

أحد قبلما يشرع الحارس فى الكلام بصوته المجلجل . فكانت النتيجة أنها استطاعت الآن أن تجلس هادئة غير مصغية ، لا تفكر فى شئ مطلقاً ، وعيناها الزرقاوان الواسعتان محدوقتان فى وجه الحارس كأنها متنبهة مشغوفة .

وقال الحارس جاداً : ومن يلمس السور يمت فى الحال . وليس من منطقة المتوحشين مفر .

وقد أوحت هذه الكلمة الأخيرة « مفر » لبرنارد أن ينهض قليلا ويقول : « يجب أن نفكر فى الانصراف الآن » وقد تخيل الابرة الصغير السوداء دائبة فى مسيرها ، كالحشرة تأكل ما له قضما مع كر الساعات .

فرده الحارس إلى كرسيه وكرر قوله : « لا مفر » وحيث أنه لم يوقع بعد على الجواز فلم ير برنارد بداً من الطاعة . ثم قال الحارس : «إن أولئك الذين يولدون فى المنطقة لا بد لهم أن يموتوا فيها . » ثم قال وقد نظر إلى لينا شزراً ورمقها بنظرة فاحشة وتحدث فى همس غير مألوف : « أذكرى يا آنستى العزيزة أن الأطفال لا يزالون يولدون فى المنطقة . أجل إنهم ليولدون ، وقد يبدو لك ذلك أمراً منفراً . . . » (وكان يأمل أن تخجل لينا هذه الاشارة إلى موضوع مخجل . ولكنها اكتفت بالابتسام وتكلفت الإدراك وقالت : «لا تقل ذلك .» فشعر الحارس بالخذلان .)

لا بد أن يموتوا . . . عشر لتر من الكولونيا كل دقيقة . أى ستة لترات فى الساعة . فحاول برنارد الكلام مرة أخرى . قال : يجب أن نفكر فى . . .

وانحنى المدير إلى الأمام وقرع المائدة بسبابته وقال : « تسألوننى

كم من الناس يعيش فى المنطقة ، وأجيبكم أنى لا أعرف ، لكنى أستطيع أن أحدس . » وأحس باحساس الرجل الظافر .

— لا تقل ذلك .

— آنستى العزيزة . إنى أقول ذلك .

٦ × ٢٤ ، بل ما يقرب من ٦ × ٣٦ . فاستولى القلق على برنارد وشحب وجهه وارتجف . ولكن جلجلة الحارس استمرت بغير انقطاع .

— . . . ما يقرب من ستين ألف هندى ومولّد . . . فى منتهى التوحش . . . ومفتشونا بين الفينة والفينة يزورون . . . وإلا انقطعت كل صلة لهم بالعالم المتمدن . . . لا يزالون يحتفظون بعاداتهم وطبائعهم المنفرة . . . الزواج ، إن كنت تفهمين ما أعنى يا آنستى العزيزة ، والعائلات . . . وعدم التكييف . . . والخرافات الشنيعة . . . والمسيحية والطوطمية (١) وعبادة الأسلاف . . . واللغات البائدة مثل لغة زونى والاسبانية والاثباسكانية . . . والسبع الجبلى والقنافد والحيوانات المفترسة الأخرى . . . والأمراض المعدية . . . والقسس . . . والسحليات السامة . . .

— لا تقل ذلك !

وانصرفا أخيراً . فأسرع برنارد إلى التلفون ، ولكنه استغرق ما يقرب من خمس دقائق حتى استطاع أن يتصل بهلمهلتز واطسن ، وشكا قائلا : ربما كنا الآن بين المتوحشين بالفعل . ألا قاتل الله العجز !

---

(١) الطوطم حيوان أو نبات يقدسه الهنود الامريكان لأنهم يعتبرونه شعارا للأسر والقبائل التى ينتمون اليها.

واقترحت عليه لينينا أن يتناول جراماً .

ولكنه رفض وآثر أن يبقى غاضباً . وأخيراً حمد فورد لأنه استطاع أن يتصل بهلمهلتز فشرح له ما حدث . ووعده هلمهلتز أن يذهب رأساً إلى الصنبور فيغلقه . ولكنه انتهز هذه الفرصة وبلغه ما قاله المدير علناً مساء الأمس . . .

فقال برنارد فى صوت ينم عن الألم : « ماذا ؟ لعله يبحث عن أحد يحله محلى . وهل انتهى الأمر على ذلك ؟ هل ذكر أيسلنده ؟ تقول إنه ؟ يا لله ! أيسلنده . . . » ثم علق السماعة والتفت إلى لينينا . وكان وجهه شاحبا وعلى وجهه سيما الحزن الشديد .

فسألته : ما الأمر ؟

وأجابها : « الأمر أننى سوف أبعث إلى أيسلنده. » ثم خر على أحد المقاعد متثاقلا .

ولطالما تعجب فى الماضى ماذا يكون إحساس المرء إذا أصابته محنة أو ألم أو تعرض لاضطهاد (وهو لا يتناول السوما ، ولا يعتمد إلا على موارده الباطنية) بل لقد كان يود لو أصابته إحدى الملمات . ومنذ أسبوع واحد فقط ، وهو فى مكتب المدير ، تخيل أنه سوف يقاوم بشجاعة وسوف يتقبل المصيبة هادئاً دون أن يتفوه بكلمة واحدة . وقد جعله تهديد المدير يحس بعلو النفس فعلا ، ويشعر كأنه أعظم من الحياة نفسها . ولكنه أدرك الآن أنه إنما أحس بذلك لأنه لم يتلق التهديد جاداً . ولم يعتقد أن المدير سوف يبرم أمراً عندما يتحرج الموقف . والآن حينما أدرك برنارد أن المدير سوف ينجز بالفعل ما هدد به من قبل أصابه ذعر شديد . ولم تبق بنفسه بارقة من ذلك الهدوء الذى كان يتخيله أو تلك الشجاعة النظرية .

ثار فى وجه نفسه — يا له من أحمق ! — وثار ضد المدير — إنه لم يكن عادلا لأنه لم يعطه الفرصة الأخرى التى لم يشك الآن فى أنه كان دائماً يعتزم انتهازها . ثم إن أيسلنده ، أيسلنده . . .

وهزت لينينا رأسها وقالت : لقد جعلتنى وسوف تجعلنى عليلة . سأتناول جراماً وأعود كما كنت .

وفى النهاية أغرته أن يبتلع أربعة أقراص من السوما . وبعدخمس دقائق اختفت الجذور والثمار (١) ، ولم تبق إلا زهرة الحاضر متوردة متفتحة . ثم بلغهما حارس الباب رسالة من الحارس فحواها أن حارساً من حراس المنطقة قد وصل بطائرته وهو بانتظارهما فوق سطح الفندق فصعدا فى الحال . وحياهما رجل يجرى فيه بعض دم الزنوج و يرتدى زياً أخضر كزى طبقة (ح) ثم شرع يتلو برنامج الصباح .

نظرة عاجلة لعشر قرى أو اثنتى عشرة قرية من قرى الزنوج الكبرى ، ثم يهبطان للغداء فى وادى مالبى فى بيت مريح . وفى تلك القرية يحتمل أن يكون المتوحشون محتفلين بعيد الصيف . ويكون ذلك الاحتفال إذن خير مكان يقضيان فيه المساء .

واتخذا مكانهما من الطائرة وانطلقا . وبعد عشر دقائق كانا يعبران الحدود التى تفصل المدنية من الهمجية فى الأودية وفوق التلال ، وعبروا الصحراوات الملحية والرملية ، وخلال الغابات ، وفى أعماق الأخاديد البنفسجية اللون ، وفوق القمم والصخور الناتئة والهضاب المستوية وكأنه الخط المستقيم أو الرمز الهندسى الذى يدل على قوة الإرادة الإنسانية التى لا تقاوم . وعند سفح السور ، هنا وهناك ، كانت العظام البيضاء الشبيهة بالفسيفساء ، والجثث التى لم تتعفن بعد الملقاة

(١) أى ما كان وما سيكون .

على الأرض التى لفحتها الشمس، تدل على أن الغزلان والعجول والسباع والقنافذ والذئاب وذكور الباز الشرهة قد جذبتها رائحة الجيف وكأن العدالة الإلهية قد ثارت سخطها فاقتربت جداً من الأسلاك المهلكة .

قال السائق ذو الزى الأخضر : « إنهم لا يتعلمون أبداً . » وأشار إلى الهياكل الملقاة على الأرض تحت أبصارهم. ثم قال : «ولن يتعلموا ! » وضحك كأنه انتصر شخصياً على الحيوانات التى قتلتها الكهرباء .

وضحك برنارد كذلك . وكان قد تناول جرامين من السوما فتصور أن النكتة طيبة لسبب ما . ضحك ثم غلبه النعاس فى الحال ، وحلق وهو نائم فوق تاوز وتسك ، وفوق نامب وبكيورس بوجوك ، وفوق سيا وكوشيتى ، وفوق لاجونا واكوما وميزا المسحورة ، وفوق زونى وكيبولا وأوجو كالينتيد ، ثم تيقظ أخيراً فألفى الطائرة واقفة فوق الأرض ولينينا تحمل حقائب الملابس فى بيت صغير مربع ، والحارس الذى يجرى فيه الدم الزنجى والذى يرتدى زى (د) الأخضر يتحدث حديثاً غير مفهوم مع رجل هندى شاب .

وقال قائد الطائرة حينما كان برنارد خارجاً منها : « نحن فى مالبى ، وهذه هى الاستراحة . وفى عصر هذا اليوم رقص فى قرية الزنوج . » وأشار إلى الرجل الهمجى الشاب المكتئب قائلا : « إنه سوف يصحبك إلى هناك . » ثم قال متجهماً : « إنه مضحك . وكل ما يفعله الناس من أمثاله يثير الضحك . » ثم نزل فى الطائرة وأدار المحركات وقال : «سأعود غداً . » ثم قال للينينا مؤكداً عليها : « واذكرى أنهم فى منتهى الألفة . إن هؤلاء الهمج لن يصيبوك بأذى . إن لديهم تجارب كافية عن القنابل الغازية فهم يدركون أن العبث لا يجوز . » وحرك لوالب الطائرة وهو ما يزال يضحك ، وزاد من سرعتها ، ثم اختفى .

الفصل السابع

كانت الهضبة شبيهة بسفينة راسية فى بوغاز من رمال لونها كلون الأسد . والقنال يلتوى بين السواحل الرأسية . وينحرف من حائط إلى آخر عبر الوادى شريط أخضر — وذلك هو النهر وما حوله من حقول . وفى مقدمة تلك السفينة الصخرية وسط المضيق كانت تقع قرية مالبى للزنوج وكأنها جزء من المقدمة ، وهى نتوء صخرى عار ذو شكل هندسى . وكنت ترى البيوت سامقة طابقاً فوق طابق ، وكل طابق أصغر مما تحته ، كأنها أهرام مدرجة مبتورة تناطح السماء الزرقاء . وتقع عند سفوحها مبان منخفضة متناثرة ، وهى عبارة عن مجموعة من الحوائط المتقاطعة. وجوانب الهضبة من ثلاث جهات تنحدر رأساً فى قلب الوادى. وكانت بعض أعمدة الدخان ترتفع رأساً فى الهواء الساكن ثم تختفى .

فقالت لينينا : « يا للعجب ، يا للعجب ! » وقد اعتادت هذه الكلمات إذا سخطت على شئ . ثم قالت : « إنى لا أحب هذا المنظر ، ولا أحب ذلك الرجل » . وأشارت إلى المرشد الهندى الذى عين لمرافقتهما إلى القرية . وكان من الجلى أن الرجل يبادلها مقتاً بمقت . حتى إن ظهره وهو يتقدمهم كان ينم عن العداوة والازدراء والغم الشديد .

وأخفضت صوتها وقالت : وفضلا عن ذلك فان له لرائحة كريهة .

ولم يحاول برنارد أن ينكر ذلك . ثم تابعا المسير .

وشعرا فجأة كأن الهواء قد تحرك ، ونبضت عروقهما بحركة الدم

التى لا تفتر . وكانت الطبول تدق فى مالبى . فوقّعا بأقدامهما على ذلك النغم العجيب . ثم أسرعا الخطى . وأدى بهما الطريق إلى سطح الجرف . وكانت جوانب الهضبة تعلوهما وترتفع ثلثمائة قدم .

قالت لينا وقد نظرت باستياء شديد إلى سطح الصخر المرتفع الأجرد : وددت لو أنا أحضرنا معنا الطائرة ، فانى أكره المشى ، كما أن المرء يشعر بصغره الشديد وهو على الأرض عند سفح التل .

وسارا معاً مسافة ما فى ظل الهضبة ، ودارا حول نتوء صخرى فاذا بهما عند أخدود شقته المياه ، فأخذا يصعدان الدرج المرافق وكان الطريق إلى أعلى شديد الانحدار يلتوى من جانب إلى آخر فوق سطح الأخدود . وكان دق الطبول حيناً ضعيفاً غير مسموع ، وحيناً قوياً كأنه على مقربة شديدة منهما .

ولما بلغا منتصف الطريق إلى أعلى طار إلى جانبهما نسر ، وكان قريباً منهما جداً حتى أن الريح التى حركتها جناحاها هبت باردة على وجهيهما . وفى فجوة من فجوات الصخر شاهدا كومة من العظام وكان كل شئ جد عجيب ، ورائحة الهندى الكريهة تشتد شيئاً فشيئاً ، وخرجا أخيراً من الأخدود إلى ضوء الشمس القوى . وكانت قمة الهضبة سطحاً مستوياً من الصخور .

فقالت لينا : « ما أشبهه ببرج شارنج ـ ت » غير أن الفرصة لم تتح لها كى تستمتع بهذه المشابهة القوية طويلا . فقد سمعا وقع أقدام لينة فالتفتا إليه ، فاذا باثنين من الهنود يركضان فوق الطريق ، وهما عاريان من العنق إلى السرة ، وجسماهما الأسمران القاتمان ملونان بخطوط بيضاء (وقد شبهتهما لينا فيما بعد بملاعب التنس الأسفلتية) ، ووجهاهما أسودان كالحديد ملطخان باللوثات القرمزية ، فهما لا يشبهان

الوجوه البشرية ، وشعرهما الأسود مضفور بفراء الثعلب والفانلة الحمراء . وتتطاير فوق أكتافهما عباءة من ريش الديكة الرومية ، ويتوجان رأسيهما بأكاليل الريش الضخمة الزاهية . وأساورهما الفضية وعقودهما الثقيلة المصنوعة من العظم ومن حبات الفيروز تجلجل وتخشخش كلما خطوا إلى الأمام . وتقدما صامتين ، وأسرعا هادئين فى أخفاف من جلد الغزال . وأمسك أحدهما بفرجون من الريش ، وحمل الآخر فى كلتى يديه أشياء بدت على بعد كأنها ثلاث قطع أو أربع من الحبال . وأحد هذه الحبال يلتوى بعسر شديد ، وأدركت لينا بغتة أن هذه الحبال إن هى إلا ثعابين .

واقترب الرجلان ، وحدقا فيهما بعيونهما السود ، ولكن دون أن تصدر منهما إشارة تدل على معرفتهما ، أو أية علامة تشير إلى أنهما قد رأياها فعلا أو أدركا وجودها . وارتخى الثعبان الملتوى مرة أخرى وتدلى على بقية الثعابين . ثم مر الرجلان .

قالت لينا : إننى لا أحب هذا المنظر بتاتاً .

وكانت أشد مقتاً لما لقيته عند مدخل القرية حيث خلّفهما المرشد ودخل البلد كى يتلقى الأوامر . تقززت لينا أولا من القاذورات ومن أكوام النفايات والتراب والكلاب والذباب . فتجعد وجهها والتوى اشمئزازاً . ورفعت منديلها إلى أنفها .

وانفجر صوتها حانقة لا تكاد تصدق ما ترى وقالت : كيف يمكنهم العيش هنا ؟ (ولقد كان العيش بالفعل مستحيلا فى ذلك المكان) .

وهز برنارد كتفيه متفلسفاً وقال : على أية حال . إنهم عاشوا هنا حتى الآن خمسة آلاف عام أو ستة آلاف . ولذا فإنى أظن أنهم الآن متعودون .

وأصرت لنينا قائلة : ولكن النظافة من الايمان .

واستمر برنارد قائلا : « نعم والمدنية تعقيم . » مردداً فى سخرية الدرس الايحائى الثانى من مبادئ علم الصحة . ثم قال : ولكن هؤلاء الناس لم يسمعوا بفورد وهم غير متمدنين ، ولذا فلا يهم . . .

وقبضت على ذراعه مذعورة وقالت : أنظر !

وكان حينذاك رجل هندى عاركه تقريباً يهبط على السلم المتنقل مبطئاً من ردهة الطابق الأول فى المنزل المجاور وأمسك بالقضيب تلو القضيب وهو يرتجف من الحرص كأنه شيخ عجوز . وكان وجهه أسوداً عميق التجاعيد كأنه قناع من الصخر اللامع . وانفرج ثغره عن فم بغير أسنان . وفى طرفى شفتيه وعلى جانبى ذقنه أبرقت بضع شعرات خشنة طويلة بيضاء وسط البشرة السوداء . وتدلى شعره الطويل غير مضفور فى خصل رمادية حول وجهه . وقد احدودب ظهره وهزل جسمه حتى برزت عظامه وتغضن لحمه . وهبط فى بطء شديد ، وكان يقف عند كل قضيب من قضبان السلم قبل أن يجرؤ على الهبوط درجة أخرى .

فهمست لينا قائلة : « ما علته ؟ » وقد انفرجت عيناها فزعاً ودهشة .

فأجابها برنارد بقدر ما استطاع من إهمال قائلا : « كل ما فى الأمر أنه عجوز ! » وقد أصابه هو كذلك الذعر ، غير أنه بذل الجهد فى إخفاء تأثره .

فرددت لفظه قائلة : عجوز ؟ إن المدير عجوز ، وكثير من الناس عجائز ، ولكنهم ليسوا كهذا الرجل .

— ذلك لأننا لا نسمح لهم أن يظهروا بهذا المظهر ، فنحن نحميهم

من الأمراض ، ونحفظ لهم إفرازهم الداخلى بطريقة صناعية على حاله كما كان أيام الشباب . إننا لا نسمح لما عندهم من مغنزيوم الكلسيوم أن يهبط نسبته إلى أقل مما كانت عليه فى الثلاثين . إننا ننقل إليهم دماء الشباب . وكذلك نقوى فيهم دائماً القدرة على تجديد ما يستهلكون من أبدانهم . ولذا فهم بالطبع لايظهرون بهذا المظهر . ويرجع ذلك — إلى حد ما — إلى أن أكثرهم يموتون قبل أن يبلغوا سن هذا المخلوق العجوز . إنهم يحتفظون بفتوة الشباب كاملة حتى الستين ثم تنتهى حياتهم فجأة .

ولكن لينينا لم تصغ اليه بل كانت ترقب الرجل العجوز وقد هبط فى بطء شديد ومست قدماه الأرض ثم التفت . ولمعت عيناه ببريق غير معهود وهما غائرتان فى محجريهما ، وصوبهما نحوها برهة طويلة ، لا يدلان على شئ ، ولا يعبران عن دهشة ، كأنها لم تكن هناك . ثم أخذ يحجل متباطئاً إلى جوارهما ببطء شديد وبظهر محدودب . ثم اختفى .

فهمست لينا قائلة : « إنه مريع . إنه مخيف . وما كان ينبغى لنا أن نأتى إلى هذا المكان . » وفتشت فى جيبها عن السوما — فوجدت أنها تركت الزجاجة فى الاستراحة سهواً وهو ما لم يحدث لها من قبل . وكذلك كانت جيوب برنارد فارغة .

ولبثت لينا فى مالبى تواجه الفزع بغير معين . وقد تكاثرت أسباب الفزع حولها وتلاحقت . أخجلها مشهد سيدتين فى سن الشباب وقد قدما أثداءهما لصغارهما فاشاحت عنهما بوجهها . إنها لم تر فى حياتها منظراً بشعاً كهذا . ومما زاد الطين بلة أن برنارد بدلا من أن يتجاهله بلباقة بدأ يعلق صراحة على هذا المنظر المنفر الذى يدل على

التناسل بطريقة غير طريقة التفريخ . وكان أثر السوما قد زال ، فأحس بالخجل من الضعف الذى أبداه فى الفندق ذلك الصباح ، وأراد أن يظهر قوته وعدم تقيده بالأصول المرعية .

وقال فى ثورة متكلفة : ما أجمل تلك العلاقة وما أحبها إلى النفوس ، وما أغزر ذلك الشعور الذى تولده هذه العلاقة ! لطالما جال بخاطرى أن المرء يفقد شيئاً ما إذا لم تكن له أم . ولربما فقدت الكثير يا لينينا لأنك لم تكونى أماً . تصورى نفسك جالسة هناك ومعك طفلك الصغير الخاص . . .

وقالت : « كيف تجرؤ على هذا القول يا برنارد . » ثم صرفها عن غضبها مرور امرأة عجوز مصابة بالرمد و بمرض جلدى .

ثم قالت : دعنا ننصرف . إنى لا أحب هذه المناظر .

وعندئذ عاد مرشدهما وأشار إليهما أن يتقفيا أثره ، ثم تقدمهما وسار نحو الطريق الضيق الذى يقع بين البيوت . وساروا جميعاً حول أحد الأركان . وأبصرا كلباً ميتاً ملقى على كومة من المخلفات القذرة ، وامرأة تضخمت غدتها الدرقية تبحث عن القمل فى شعر فتاة صغيرة . ثم وقف المرشد عند أسفل أحد السلالم المتنقلة ، ورفع يده عمودية ثم دفعها أفقية إلى الأمام . وفعلا ما أمرهما به بالإشارة دون الكلام ، فتسلقا السلم ، وولجا الباب الذى يؤدى السلم إليه ، فاذا بهما فى غرفة طويلة ضيقة ، مظلمة تنتشر فيها رائحة الدخان والدهن المطبوخ والملابس البالية القذرة . وكان فى الطرف الآخر من الغرفة باب آخر ينفذ منه شعاع من ضوء الشمس وضجيج الطبول القريبة .

ووطأت أقدامهما عتبة الباب فألفيا نفسهما فى دهليز فسيح وتحت أبصارهما ميدان القرية تتحوطه المنازل المرتفعة من جميع النواحى و يموج بالهنود . فلمحوا الأردية البراقة ، والريش فى الشعر الأسود ،

ولألاءة الفيروز ، والجلود السوداء التى تلمع وتشع الحرارة . فوضعت لينينا منديلها على أنفها مرة أخرى . وكان بالفضاء الذى يقع وسط الميدان رصيفان مستديران مشيدان من الصلصال المضغوط — ومن الواضح أن تلك كانت سطوح حجرات تحت الأرض ، لأنهما شاهدا وسط كل رصيف باباً مفتوحاً يخرج منه سلم يبرز من الظلام السفلى . وطرق أسماعهما صوت مزمار يعزف فى باطن الأرض ، غير أنه يكاد يتلاشى فى دق الطبول الثابت المتصل الذى لم يعبأ بأحد .

وكانت لينينا تحب دق الطبول . فانغمضت عينيها واسترسلت مع ذلك الصوت المتكرر الذى يشبه قصف الرعد ، ومكنته من أن يتغلغل فى شعورها و إحساسها شيئاً فشيئاً حتى لم يبق فى العالم فى نهاية الأمر سوى نبضات الطبل الشديدة المتوالية . وذكرها ذلك الصوت تذكيراً قوياً بالضوضاء المصطنعة التى تحدث فى صلاة الجماعة وفى الاحتفال بعيد فورد . فدمدت قائلة : « شولم ، شولم . » إذ أن الطبل الذى طرق سمعها كان يدق على هذا النغم .

ثم تفجر الغناء بغتة فتنبهت لينينا . كانت أصوات المئات من الذكور تصيح معاً بشدة وكأنها رنين المعدن الغليظ . وأنشد المغنون بضع نغمات طويلة ثم صمتوا ، وبقيت الطبول وحدها تجلجل كالرعد . ثم أجاب النسوة بصوت حاد كأنه الصهيل المرتفع . ثم عادت الطبول إلى دقها ، وعاد الرجال المتوحشون إلى غنائهم بصوت عميق يؤكد رجولتهم . عجيب حقاً . كان ذلك المكان عجيباً ، وكذلك كانت الموسيقى . وكذلك كانت الأزياء والغدد الدرقية المتضخمة والأمراض الجلدية والشيوخ المسنون . أما الأداء نفسه فلم يكن فيه ما يستدعى العجب بصفة خاصة .

وقالت لبرنارد : يذكرنى هذا بالغناء الجمعى للطبقات الوضيعة .

ولكن بعد فترة قصيرة لم يعد هذا الغناء يذكرها — كما كان يفعل من قبل — بغناء الطبقات الفقيرة الذى لايعود على أحد بالضرر . إذ أنها شهدت بغتة جماعة شاحبة اللون من أولئك المتوحشين تخرج من تلك الحجرات السفلية وتتجمهر . وكان أفراد تلك الجماعة يبدون فى هيئة زرية يختلفون عن البشر فى مظهرهم كل الاختلاف . وقد بدأوا يدبون حول الميدان وهم يرقصون رقصة غريبة مرتخية . وأخذوا يدورون حول الميدان مرة بعد أخرى مغنين وهم يرقصون — وكانوا يسرعون فى كل رقصة عن الرقصة السابقة . وتغير دق الطبول وأسرع فى النغم ، حتى أصبح مسمعها كنبض الحمى فى الآذان . وشرعت الجماهير تغنى مع الراقصين . وعلا غناؤهم . وقد صاحت إحدى النسوة ، ثم تبعتها ثانية فثالثة كأنهن يُقتلن . وبعدئذ خرج عن الصف بغتة قائد الفرقة الراقصة واندفع نحو صندوق خشبى كبير قائم فى طرف من أطراف الميدان ، ثم رفع الغطاء وأخرج ثعبانين أسودين . فانفجرت الجماهير صائحة ، وجرى بقية الراقصين نحوه ومدوا له أيديهم . فألقى الثعبانين على أول القادمين ثم أدخل يده فى الصندوق ليخرج غيرهما . وتكاثرت الثعابين . منها الأسود ومنها البنى ومنها المرقش — وقد طوحها جميعاً . ثم بدأ الرقص مرة أخرى على نغمة أخرى . فداروا حول الميدان يحملون الثعابين ويتلوون مثلها ، ويتماوجون تماوجاً خفيفاً عند الركب والارداف . ثم أشار لهم قائدهم ، فألقيت الثعابين واحداً بعد الآخر وسط الميدان ، وظهر حينئذ رجل عجوز من تحت الأرض ونثر فوقها دقيق الحنطة ، وخرجت من الفتحة الأخرى امرأة رشت فوقها الماء من وعاء أسود . وعندئذ رفع

الشيخ يده فصمت الجميع مذعورين خائفين . وكفت الطبول عن الدق وكأن الحياة قد انعدمت من كل شئ . وأشار الشيخ صوب الفتحتين اللتين تؤديان إلى العالم السفلى . وقد برز من إحداهما تمثال نسر ملون رفعته فى بطء شديد أياد مختفية . وبرز من الفتحة الأخرى تمثال رجل عار مسمر فوق صليب . وبقيا هناك معلقين وكأن كلا منهما يقيم نفسه ، وكأنهما يرقبان . وصفق الشيخ بيديه . وتقدم من الجمع الحاشد غلام فى الثامنة عشرة من العمر تقريباً عارى الجسد لا يتستر إلا بقطعة يسيرة من القماش عند ردفيه ، ووقف أمام الشيخ ، ويداه متصالبتان فوق صدره ، ورأسه منحن . فرسم الشيخ فوقه علامة الصليب ثم انصرف . فشرع الغلام يسير مبطئاً حول كومة الثعابين الملتوية . وبعد ما أتم الدورة الأولى وقطع من الثانية نصفها تقدم نحوه من بين الراقصين رجل طويل القوام يتقنع بجلد الذئب ويمسك فى يده سوطاً من الجلد المضفور . فتحرك الغلام كأنه لا يعلم بوجود الرجل . فرفع الرجل المستأذب سوطه . وتعلقت الأنفاس لحظة طويلة فى ارتقاب ما عساه يحدث ، ثم تحرك الرجل حركة سريعة أعقبها صفير السوط وهو يهبط وصوته الضخم وهو يمس جسد الغلام . واهتز جسم الصبى ، ولكنه لم يحدث صوتاً ، بل واصل سيره محتفظاً بخطوته البطيئة الثابتة . وأخذ الرجل المستأذب يضربه مرة بعد أخرى . وعند كل ضربة يعلو من الجمهور اللهاث الذى يعقبه الأنين العميق . وظل الغلام يدور للمرة الثانية ، فالثالثة ، فالرابعة ، والدم يتدفق منه . ثم دار للمرة الخامسة فالسادسة . فحجبت لينينا لفورها وجهها بيديها ، ثم أجهشت بالبكاء . وقالت متوسلة : « أوقفوهم ، أوقفوهم . » ولكن السياط توالت بغير انقطاع . ودار الغلام دورته السابعة ، ثم ترنح وخر على وجهه صريعاً

دون أن ينبس ببنت شفة . فانحنى فوقه الشيخ ومس ظهره بريشة طويلة بيضاء . ثم رفع الريشة ليراها الناس ، فاذا بها قرمزية اللون ، ثم هزها ثلاث مرات فوق الثعابين . وسقطت بضع قطرات ، ثم شرعت الطبول تدق مرة أخرى مسرعة تثير الرعب . وسمعت صيحة عالية فاندفع الراقصون إلى الأمام والتقطوا الثعابين وجروا بعيداً عن الميدان. وتبعهم الرجال والنساء والأطفال وكل الجمع المحتشد . وبعد دقيقة خلا الميدان ولم يبق به غير الغلام منكفئاً على وجهه ساكناً حيث خر. وخرج ثلاث من النسوة العجائز من أحد المنازل ورفعنه فى شئ من المشقة ثم أدخلنه الدار . وبقى النسر والرجل المصلوب برهة يحرسان القرية الخاوية . ثم هبطا مبطئين خلال الفتحتين واختفيا فى العالم السفلى وكأنهما اكتفيا بما شاهدا .

وما برحت لينينا تبكى وتكرر قولها : « هذا شئ مريع ! تلك الدماء ! » ولم يجدها عزاء برنارد نفعاً ، وارتعدت رعباً وفزعاً ثم قالت : وددت لو تناولت السوما .

وسمع فى الغرفة الداخلية وقع أقدام . فلم تتحرك لينينا ، بل لبثت مكانها ووجهها بين يديها ، فى عزلة عن العالم ، لا ترى شيئاً . والتفت برنارد وحده .

وبرز إلى الدهليز شاب فى زى الهنود ، غير أن شعره المضفور كان فى لون القش ، وعيناه زرقاوان شاحبتان ، وجلده أبيض برنزى .

قال هذا الرجل الغريب فى لغة انجليزية عجيبة برغم خلوها من الخطأ : أهلا . عموا غداً . انكم قوم متمدنون . أليس كذلك ؟ أتيتم من العالم الآخر خارج هذه المنطقة .

فدهش برنارد وبدأ الكلام بقوله : من ذا عسى أن يكون. . .

فتنهد الشاب وهز رأسه وقال : « إنه رجل بائس ! » ثم أشار إلى لوثات الدم وسط الميدان وقال : « هل ترون تلك البقعة اللعينة ؟ » وقد تهدج صوته من شدة العطف .

وقالت لينينا من خلف يديها بطريقة آلية : جرام واحد خير من اللعنة . وددت لو تناولت السوما !

واستمر الشاب فى كلامه . قال : « كان ينبغى أن أكون هناك . لِمَ لم أكن ضحيتهم ؟ إذن لاستطعت أن أدور عشر مرات — بل اثنتى عشرة ، بل خمسة عشر ، أما بالوهتوا فلم يَعْدُ السبع . كانوا يستطيعون أن يظفروا من دمى بضعف ما ظفروا منه . يظفرون ببحار واسعة من الدم القانى . » ومد ذراعيه بحركة عنيفة ، ثم أرخاهما قانطاً وقال : « ولكنهم لم يرضوا بى . إنهم يمقتوننى من أجل بشرتى . وقد كانوا كذلك دائماً ، دائماً . » .وتجمع الدمع فى مقلتيه فخجل وانصرف .

وأنسى الذهول لينينا حرمانها من السوما . ثم كشفت عن وجهها وألقت على الغريب أول نظرة وسألته : هل تعنى أنك كنت تريد أن تضرب بذلك السوط ؟

وكان الشاب منصرفاً عنها ولكنه أشار بالايجاب وقال : « من أجل القرية — كى تهطل الأمطار وينمو القمح . ولكى يرضى بوكونج ويسوع . ولكى أبرهن أنى أستطيع أن أتحمل الألم بغير بكاء . » وتغيرت نغمة صوته ، وأدار منكبيه معجباً ورفع ذقنه متحدياً متشامخاً وقال : « كى أبرهن على رجولتى . » وشهق ثم صمت وفغر فاه . لقد كانت تلك أول مرة فى حياته يشهد فيها فتاة وجهها ليس كالشكولاته أو جلد الكلب لوناً ، وشعرها مصفر دائم التموج ، وملامحها تنم عن الخير ، وذلك شئ عجيب غير مألوف . وابتسمت له لينينا ، وقد أعجبت أشد

الإعجاب بحسن مظهره وجمال قوامه . فتدفق الدم فى وجنتى الشاب . وأرخى جفنيه ، ثم رفعهما بعد لحظة فوجد أنها ما تزال تبتسم له ، فغلبه الخجل والتفت إلى وجهة أخرى وتظاهر بالتحديق فى شئ ما فى الجانب الآخر من الميدان .

وأنقذ برنارد الموقف بما وجه إلى الشاب من أسئلة : من يكون ؟ وكيف ؟ ومتى؟ ومن أين ؟ وثبت الشاب نظره فى وجه برنارد (لأنه كان يتحرق شوقاً ليرى لينينا وهى تبسم حتى إنه لم يجرؤ على مجابهتها بالنظر) وحاول أن يشرح حقيقة أمره . كان هو وأمه لندا (وقد بدا القلق على لينينا عندما سمعت لفظة الأم) غريبين فى تلك المنطقة . فلقد أتت لندا قبل مولده مع أبيه من العالم الآخر وهنا رفع برنارد أذنيه مصغياً . ثم قال الشاب إن أمه تجولت فى تلك الجبال وحدها ، وسارت نحو الشمال ، ثم سقطت من مكان مرتفع شديد الانحدار وآذت رأسها . (قال برنارد متهيجاً : « أسرع ، أسرع ! » فوجدها بعض الصيادين من مالبى وصحبوها إلى القرية . ولم تر لندا أباه بعد ذلك الحين . وكان اسمه توماكين (وتوماس هو الاسم الأول للمدير). ولا بد أن يكون قد عاد طائراً إلى العالم الآخر بغير الأم — لقد كان سئ الخلق قاسياً شاذاً .

وختم حديثه قائلا : « وهكذا ترون أننى ولدت فى مالبى . » ثم هز رأسه .

ما أقذر ذلك المنزل الصغير الذى يقع فى ضاحية من ضواحى القرية!

كانت تفصله عن القرية أرض فضاء تغطيها الرمال والغابات . وكان لدى كومة القاذورات عند الباب كلبان جائعان ينبحان نباحاً

فاحشاً . ولما ولجوا الدار فاجأتهم رائحة كريهة وطنين الذباب .

وصاح الشاب منادياً : لندا !

فأجابته من الغرفة الداخلية بصوت نسائى أجش قائلة : إنى آتية .

وانتظروا ، ووقعت أبصارهم على بقايا وجبة أو وجبات عديدة من الطعام فى الأوانى الملقاة فوق الأرض .

وانفتح الباب . فاذا بامرأة من الهنود الأمريكيين ، بدينة شقراء تطأ العتبة ، ثم تقف ناظرة إلى الغريبين محدقة فيهما ، فاغرة فاها لا تصدق ما ترى . وتقززت لينينا عندما لاحظت أن المرأة كان ينقصها اثنتان من الأسنان الأمامية ، وأن لون ما بقى لها من أسنان . . . واقشعر بدنها . لقد كانت أسوأ من الشيخ ، بدينة ، وجهها مجعد ، مترهلة ، متغضنة . وقد تجوف خداها وتلطخا بلوثات أرجوانية اللون وظهرت الحمرة فى عروق أنفها ، والتهبت عيناها . وما أقبح جيدها ، وذلك القماش الغليظ الذى غطت به رأسها ، ما أقذره وما أشد تمزيقه . وقد برزت بطنها وردفاها وثدياها تحت ذلك الرداء البنى الذى يشبه الجوال . حقاً لقد كانت أسوأ من الرجل العجوز ! وتفجر هذا المخلوق فجأة بتيار جارف من الكلام ، ثم اندفعت نحوها بذراعين ممدودتين . يا لله ، يا لله ! لقد كانت منفرة جداً ، ولو بقيت لحظة أخرى لخرت لينينا عليلة . ثم التصق بها نتوء بطنها وثدييها وقبلتها . يا لله ! أفتقبلها . وقد سال لعابها وانتشرت منها الرائحة الكريهة ! لا شك أنها لم تستحم قط . وكانت تفوح منها رائحة تلك المادة الكريهة التى توضع فى قوارير (د) ، (ه) (وليس صحيحاً ما يقال عن برنارد) . وتنتشر منها رائحة الكحول . فحاولت لينينا أن تفر بأسرع ما استطاعت . فالتقت بوجه شائه باك ، فقد كانت المرأة تبكى بصوت مرتفع .

وأخذت العجوز تتدفق فى الكلام وهى تبكى . وقالت : « عزيزتى لو عرفت مقدار سرورى — بعد كل هذه السنوات — لرؤية وجه متمدن ، وزى متمدن . لقد كنت أحسب أنى لن أرى قطعة من حرير الحامض مرة أخرى . » ثم لمست بأصبعها كم قميص لينينا . وكانت أظافرها سوداء . ثم قالت : « وهذه السراويل القصيرة الباهرة من المخمل اللين ! هل تعلمين يا عزيزتى أنى ما زلت أحتفظ فى أحد الصناديق بملابسى القديمة التى قدمت فيها أول مرة . وسوف أطلعك عليها فيما بعد وإن تكن الخروق قد كثرت فى الحرير الحمضى . ولكن ما أجمل حزام الكتف الأبيض ، وإن كنت أقر بأن حزامك المراكشى الأخضر أجمل منه . غير أنى لم أفد كثيراً من حزامى » . وبدأ الدمع ينحدر من عينيها ثانية ، ثم قالت : « أحسب أن جون قد أخبرك . لقد عانيت كثيراً — ولم يكن عندى جرام واحد من السوما . لم يكن لدى سوى شراب المسكال أتناول منه الفينة بعد الفينة ، كلما أتانى به بوبى . وبوبى هذا ولد عرفته . ولكن هذا الشراب له أثر سيئ على الحس فيما بعد . إنه يصيب شاربه بمرض البيوتل . وهو فوق ذلك يبعث فى الشارب فى اليوم التالى إحساساً شديداً بالخجل . ولقد خجلت جداً . هل تتصورون أنى حملت وأنا من (ب) . ضعوا أنفسكم مكانى (وهذه الاشارة المجردة أصابت لينينا بالرعدة) . ولكنى أقسم لكم أن الخطأ لم يكن منى ، لأنى ما زلت أجهل كيف حدث هذا ، وقد قمت بالتدريب المالتسى كله — وهو بالعدد كما تعلمون : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — وأقسم أنى ما قصرت ، ولكن الحادث برغم ذلك قد وقع . وبالطبع لم يكن هنا مركز للاجهاض . وبهذه المناسبة ، هل لا يزال مركز الاجهاض فى شلسى (فأجابتها لينينا بالايجاب) وهل لا تزال تنعكس فوقه الأضواء أيام الثلاثاء والجمعة

(فأجابت لينينا بالايجاب مرة أخرى) ما أجمل ذلك البرج الزجاجى القرنفلى ! » ورفعت لندا المسكينة رأسها ، وبعينين مغمضتين أعادت إلى مخيلتها — وهى مذهولة — صورة ذلك البرج اللامع . ثم قالت فى همس : « وما أبدع النهر فى المساء ! » وتسرب الدمع الغزير على مهل من بين جفنيها المغمضين . ثم قالت : « وأذكر أنا كنا نعود بالطائرة مساء من ستوك بوجس ، ثم نأخذ حماماً ساخناً ونستخدم آلة التدليك المذبذبة المفرغة . . . ولكن كفى كفى ! » وتنهدت تنهداً عميقاً ، وهزت رأسها ، وفتحت عينيها ثانية ، واستنشقت مرة أو مرتين ، ثم أفرغت مخاط أنفها فوق أصابعها ومسحته فى الجزء الأسفل من ردائها ، وكشرت لننا اشمئزازاً وهى لا تشعر ، فأجابتها لندا قائلة : « إنى آسفة وما كان ينبغى لى أن أفعل ذلك . إنى آسفة . ولكن ماذا يفعل المرء إذا لم يكن لديه منديل ؟ أذكر كيف كنت أتقزز من مثل هذه القذارة . وليس عندى مطهر . ولقد أصبت بجرح كبير فى رأسى عندما أتوا بى هنا أول مرة . وإنك لا تتصورين المادة التى وضعوها عليه : قذارة ، وليس غير . وكنت دائماً أقول لهم : « المدنية تعقيم . » وأخذت أنشدهم — كأنهم أطفالى — محببة إلى نفوسهم النظافة والحمامات والمراحيض . ولكنهم بالطبع لم يفقهوا قولى . وكيف يفقهون ؟ ولكنى أعتقد أنى اعتدت طبائعهم فى نهاية الأمر . وعلى أية حال ، كيف يستطيع المرء أن يحتفظ بنظافة الأشياء إذا لم يكن لديه ماء ساخن . ثم انظرى إلى هذه الملابس . إن هذا الصوف الخشن ليس كالحرير الحمضى . إنه يتحمل كثيراً ، وعلينا أن نرتقه إن تمزق . ولكنى من (ب) وكنت أعمل فى حجرة التلقيح ، ولم أتعلم شيئاً مثل هذا ، فلم يكن من عملى . ثم إنى تعلمت أن رتق الملابس ليس من الصواب

فى شئ . كنا نرميها إذا ظهرت فيها الخروق ونشترى غيرها ، ومبدأنا « إذا كثر الاصلاح قل الثراء » أليس كذلك ؟ فاصلاح الأشياء ليس أمراً اجتماعياً . ولكن الأمور هنا تسير على غير ذلك . وكأننا نعيش مع المجانين . كل ما يفعلونه يدل على الجنون . » ثم تلفتت حولها . وعرفت أن جون و برنارد قد تركاها وأخذا يسيران جيئة وذهاباً فى التراب والقاذورات خارج البيت ، ولكنها برغم ذلك أخفضت صوتها وأسرت إلى لينينا وقد مالت عليها والتصقت بها حتى إن هبوب دخان سم الجنين قد هز الشعر فوق خدها (وقد تصلبت لينينا وانكمشت) وهمست بصوت خشن قائلة : « خذى مثلا علاقة أحدهم بالآخر هنا . إنهم مجانين كما قلت لك ، بل وفى منتهى الجنون . نحن نعلم أن كل فرد يتعلق بكل فرد آخر . أليس كذلك ؟ » ثم جذبت كم لينينا وهى تتحمس فى كلامها . فحولت لينينا عنها رأسها وأومأت إيجاباً ، ثم أطلقت نفسها المكتوم واستطاعت أن تتنفس تنفساً آخر غير ملوث نسبياً . وواصلت الأخرى حديثها قائلة : « أما هنا فان الفرد لا يتعلق بأكثر من فرد واحد . فاذا كانت علاقة أحد الأفراد بالآخرين كما عهدنا ، ظنه الناس شريراً يعادى المجتمع . وكرهوه وازدروه . وقد حدث مرة أن جماعة من النسوة أتين إلى وتشاجرن لأن رجالهن قد أتونى . ولماذا لا يأتون ؟ واندفعن نحوى ، وكان منظراً مريعاً ، لا أستطيع أن أحدثك عنه . » وغطت لندا وجهها بيديها وارتعدت فرائصها ، ثم قالت : إننى أمقت النساء هنا أشد المقت . إنهن مجنونات قاسيات . وهن بالطبع لا يعرفن شيئاً عن تدريب مالتس ، أو القوارير ، أو التفريغ ، أو ما شابه ذلك . ولذا فهن يلدن دائماً — كالكلاب . وهو شئ منفر . و إنى لأصعق حينما أذكر أنى . . . يا لله ، يالله ! ومع

ذلك فلقد كان لى فى جون عزاء جميل . ولست أدرى ماذا كنت أصنع بغيره . وذلك رغم أنه يرتبك أشد الارتباك كلما رأى رجلا . . . حتى حينما كان طفلا صغيراً . ولقد حاول مرة — لما شب قليلا ما — أن يقتل وايهو سيده المسكين — أو لعله كان بوبى — لأنه كان يتردد على بين الحين والحين . وذلك لأنى لم أستطع قط أن أفهمه أن ذلك هو ما ينبغى للمتمدنين أن يفعلوا . و إنى أعتقد أن الجنون معد . ويظهر أنه انتقل من الهنود إلى جون . لأنه كان يرافقهم كثيراً . وذلك رغم قسوتهم عليه وحرمانه من أداء ما يفعل غيره من الصبيان . وكان ذلك حسناً من ناحية ، لأنه يسر لى تكييفه إلى حد ما ، و إن كنت لا تتصورين ما لاقيت فى ذلك من مشقة . وكثير من الأمور لا يعلمه المرء . ولم يكن من شأنى أن أعلم به ، وأعنى أن الطفل يسألك كيف تسير الطائرة أو من خلق الدنيا ؟ فماذا تجيبين إن كنت من (ب) تشتغلين دائماً فى حجرة التلقيح ؟ بماذا تجيبين ؟

الفصل الثامن

كان برنارد وجون يسيران مبطئين جيئة وذهاباً خارج البيت فى التراب وفوق القاذورات . (وكانت الكلاب عندئذ أربعة) .

قال برنارد : « يشق على كثيراً أن أدرك أو أن أتصور . لكأننا نعيش فوق كوكب آخر وفى قرن غير هذا القرن . ما معنى الأمهات ، وهذه القاذورات ، والآلهة ، والشيخوخة ، والمرض . . . » ثم هز رأسه وقال : تلك أشياء لا يكاد يتصورها العقل . ولن أفهم حتى تشرح لى .

— اشرح ماذا ؟

« هذا » وأشار إلى القرية و « ذلك » مشيراً إلى المنزل الصغير خارج القرية . « اشرح لى كل شئ . وفسر لى حياتك كلها . »

— ولكن ماذا عساى قائل ؟

— أبدأ من أول الأمر ، وعد بذاكرتك إلى الماضى على قدر ما تستطيع .

فقطب جون جبينه مردداً : « سأعود بذاكرتى إلى الماضى على قدر ما أستطيع » ثم كان صمت طويل .

كان الجو حاراً وقد تناولا قدراً كبيراً من خبز المكسيك ومن الحنطة الحلوة . وقالت لندا : « تعال أيها الطفل وارقد » واستلقت إلى جانبه فوق السرير الضخم . وأخذت تتغنى بنشيد من أناشيد الأطفال

فيه حث على النظافة وفيه إشارة إلى التفريغ . ثم انخفض صوتها شيئاً فشيئاً .

وعلا الضجيج فاستيقظ ابنها مذعوراً . وإذا برجل ضخم مربع يقف إلى جوار السرير . وكان يلقى بحديث إلى لندا ، ولندا تضحك . وكانت لندا قد رفعت غطاءها حتى ذقنها ، فجذب الرجل الغطاء إلى أسفل . وكان شعره كحبلين أسودين ، وحول ذراعه سوار فضى جميل مرصع بالأحجار الزرقاء . وقد أعجب السوار ابنها ولكنه ذعر برغم ذلك فأخفى وجهه فى جسم لندا . ووضعت لندا يده فوقه فأحس بالطمأنينة . ووجهت إلى الرجل كلاماً لم يدركه كل الادراك . قالت : « لا تفعل وجون هنا . » فوجه الرجل إليه بصره ، ثم وجهه إلى لندا ، وأسر إليها ببضع كلمات بصوت ناعم . فأجابته لندا بقولها : « لا » . غير أن الرجل انحنى على السرير نحوه ، وكان وجهه ضخماً مربعاً . وقد مس الغطاء بشعره الأسود المضفور . فكررت لندا قولها «لا » وأحس الولد بيدها تضغط عليه بشدة وهى تقول : « كلا ، كلا ! » ولكن الرجل قبض على إحدى يديه ، وآلمته فصاح . وأخرج الرجل يده الأخرى ثم رفعه إلى أعلى . وما برحت لندا ممسكة به ، وهى تقول : « كلا، كلا » وتفوه الرجل غاضباً بكلمات موجزة وأبعد يديها بغتة . فركله الطفل بقدميه وتلوى قائلا : « لندا ، لندا » ، لكن الرجل حمله إلى الباب فى جانب الغرفة الآخر وألقى به أرضاً وسط الغرفة الأخرى ثم انصرف بعدما أغلق خلفه الباب . فنهض الولد ، وركض نحو الباب ، ووقف على أطراف أصابعه حتى استطاع أن يبلغ المزلاج الخشبى الكبير . فرفعه ودفع الباب ولكنه لم ينفتح . فصاح : « لندا ، لندا » ولكنها لم تجبه .

وتذكر غرفة ضخمة حالكة الظلام ، تحتوى على أشياء خشبية كبيرة ترتبط بحبال رفيعة ، وتقف حولها ثلة من النساء — تصنعن الأغطية كما تقول لندا . وطلبت إليه لندا أن يجلس فى ركن الغرفة مع الأطفال الآخرين كى تذهب هى إلى النسوة وتمد إليهن يد المعونة. وظل يلعب مع الأطفال مدة طويلة ، ثم بدأ الناس يتحدثون فجأة بصوت مرتفع . ودفع النسوة لندا بعيداً عنهن ، فصاحت وتوجهت نحو الباب فتبعها . وسألها فيم غضبهن ، فأجابت : « لأنى كسرت شيئاً . » ثم غضبت هى كذلك وقالت : « كيف أعرف أن أنسج مثلهن . هؤلاء الهمج المتوحشون » . فسألها ما تعنى بالمتوحشين . ولما عادا إلى البيت كان بوبى بانتظارهما لدى الباب ، فدخل معهما . وكانت معه جرة كبيرة ملأى بمادة تشبه الماء وليست به . هى مادة ذات رائحة كريهة تحرق فم الشارب وتجعله يسعل . وقد تناولت منها لندا قليلا ، كما تناول بوبى . ثم قهقهت لندا بالضحك وتكلمت بصوت مرتفع . ثم رافقت بوبى إلى الغرفة الأخرى . ولما انصرف بوبى ، توجه إلى الغرفة فألفى لندا فى الفراش مستغرقة فى النوم ولم يستطع إيقاظها .

واعتاد بوبى أن يتردد على البيت . وقال إن المادة التى كانت تحتويها الجرة تسمى « مسكال » ولكن لندا قالت إنها يجب أن تسمى سوما ، غير أنها تصيب الشارب بالمرض . وكان الولد يكره بوبى . بل كان يكره كل الرجال الذين يأتون لزيارة لندا . وفى عصر ذات يوم يذكر أنه كان بارداً وأن الثلوج كانت تعم الجبال — اشترك مع الأطفال الآخرين فى اللعب ثم عاد إلى البيت وسمع فى غرفة النوم أصواتاً غاضبة . وكانت أصوات جماعة من النسوة يتفوهن بكلمات لم يفقه لها معنى ، ولكنه عرف أنها كلمات مريعة . وإذا بشئ يتقلب فجأة

ويحدث صوتاً عاليا فهاج الناس وماجوا . ثم حدث الصوت مرة أخرى ، وأعقبه ضجيج كضجيج البغل قليل العظام حين يضرب . وصاحت لندا : « لا تفعلوا ، لا تفعلوا ، لا تفعلوا ! » وجرى نحو الصوت فاذا بثلاث نساء متشحات بإزار أسود . وكانت لندا على فراشها ، وإحدى النساء تمسكها من معصميها ، والأخرى ترقد فوق ساقيها وتمنعها من الركل بقدميها . والثالثة تضربها بالسوط . وقد ضربتها ثلاث ضربات ضجت منها لندا بالعويل . فتعلق الولد بذيل رداء هذه المرأة وأخذ يصيح قائلا : « أرجوك وأتوسل إليك ! » فدفعته بعيداً عنها بيدها الطليقة . وهبط السوط مرة أخرى فولولت لندا ثانية . فأمسك بين يديه بيد المرأة وهى يد ضخمة سمراء اللون ، وعضها بكل قوته . فصاحت وخلصت يدها ودفعته دفعة قوية خر لأثرها طريحاً فوق الأرض . وضربته بالسوط ثلاث ضربات وهو مستلق فوق الأديم . وشعر بألم لم يشعر بمثله من قبل — كأنه النار . ثم نهض ، ووقع عليه السوط مرة أخرى فخر ثانية ، ولكن لندا هى التى صاحت هذه المرة .

وسألها فى تلك الليلة : « لماذا أرادوا إيذاءك يا لندا ؟ » وكان يبكى لأن علامات السياط الحمراء فوق ظهره ما برحت شديدة الإيلام . ولكنه كان كذلك يبكى لأن الناس متوحشين ظالمين إلى حد كبير ، ولأنه طفل صغير لم يستطع أن يفعل بهم شيئاً . وكانت لندا كذلك تبكى . أجل لقد كانت كبيرة ولكنها لم تبلغ من الضخامة حداً يمكنها من العراك مع ثلاثة أشخاص . لقد ظلمها النسوة . وكرر الولد سؤاله : لماذا أرادوا إيذاءك يا لندا ؟

« لست أدرى ، وكيف أدرى ؟ » وكان من العسير أن تسمع ما تقول ، لأنها كانت مستلقية على بطنها ووجهها مطمور فى الوسادة .

وواصلت الحديث قائلة : « إنهن يزعمن أن أولئك الرجال رجالهن . » وكأنها لم تكن تتحدث إلى الصبى ، بل كأنها تتحدث مع إنسان بداخلها . وألقت حديثاً طويلا لم يفقه له معنى ، وأخذت فى النهاية تصرخ صراخاً عالياً ليس لها به عهد .

— لا تصرخى يا لندا ، لا تصرخى .

وضمها اليه . وطوق جيدها بذراعه . فصاحت فى وجهه لندا : « مهلا ، مهلا . كتفى ! أوه ! » ودفعته بشدة بعيداً عنها ، فاصطدم رأسه بالحائط . ثم صاحت : « يا لك من غر أحمق ! » وبدأت تصفعه فجأة ، وتوقع عليه الصفعات واحدة تلو الأخرى .

فصاح قائلا : لندا . أماه . لا تفعلى .

— لست أمك . ولن أكون لك أماً .

« ولكن يا لندا . . . » فصفعته على خده وصاحت : لقد انقلبت امرأة همجية، لى صغار كالحيوان. لولاك لذهبت إلى المفتش ولاستطعت الفرار . ولكنى لن أفر ومعى طفل . إن هذا لعار كبير .

ولاحظ أنها تهم بضربه ثانية فرفع ذراعه يحمى بها وجهه ، وقال : بربك لا تفعلى يا لندا .

فجذبت ذراعه إلى أسفل وانكشف وجهه وقالت له : أيها الوحش الصغير .

فأغمض عينيه وقال لها : « لا تفعلى يا لندا ! » وقد توقع أن تضربه . ولكنها لم تفعل . وبعد برهة فتح عينيه ثانية ولاحظ أنها كانت تنظر إليه . وحاول أن يبتسم لها . وطوقته بذراعها بغتة وانهالت عليه بالقبلات .

وكانت لندا أحياناً تلزم الفراش أياماً عدة وهى حزينة . وأحياناً

تتعاطى شيئاً من المادة التى أحضرها بوبى وتضحك كثيراً ثم تستغرق فى النوم . وأحياناً تنتابها العلة . وكثيراً ما كانت تنسى أن تغسل ابنها ، ولم يكن لديه ما يأكله سوى الخبز المكسيكى البارد . وتذكر المرة الأولى التى وجدت فيها تلك الحيوانات الصغيرة فى شعره وتذكر كيف صاحت حينئذ وعلا صياحها .

وكانت أحب الأوقات إلى نفسه تلك التى كانت تحدثه فيها عن العالم الآخر فسألها : وهل يستطيع المرء حقاً أن يطير حيثما شاء ؟

« أجل حيثما شاء . » ثم تحدثه عن الموسيقى الحلوة التى تصدر عن صندوق ، وعن الألعاب الجميلة كلها التى يستطيع أن يلعبها الإنسان ، وما لذ من مأكل ومشرب ، وعن الضوء الذى يظهر عندما يضغط المرء على شئ صغير فى الحائط ، وعن الصور التى تسمع حديثها وتحسها وتشم رائحتها ، كما تستطيع أن تراها ، وعن الصندوق الذى يصنع الروائح العطرة ، وعن المنازل القرنفلية والخضراء والزرقاء والفضية التى تبلغ الجبال طولا . وكل امرئ سعيد ، لا يحزن ولا يغضب ، وكل فرد يتعلق بكل فرد آخر ، وتحدثه عن الصناديق التى ترى فيها وتسمع ما يحدث فى الجانب الآخر عن العالم ، وعن الأطفال فى القوارير الجميلة النظيفة . وكل شئ بالغ النظافة . لا تشم رائحة كريهة ، ولا تقع العين على قذارة . هناك لا يشكو الناس العزلة ، بل يعيشون معاً فى سرور وسعادة ، كما ترى الناس هنا فى مالبى أيام الرقص فى الصيف ، بل أسعد كثيراً ، لا تفارقهم السعادة فى يوم من الأيام .

وكان يصغى لها ساعات متواليات . وأحياناً عندما يمل اللعب مع

الأطفال الآخرين — يحدثهم أحد شيوخ القرية فى لغة عجيبة عن المحوِّر الأكبر للدنيا، وعن الصراع الطويل بين اليد اليمنى واليد اليسرى، وبين الرطوبة والجفاف، وعن أونا ولونا الذى أوجد حوله وهو يفكر فى أثناء الليل ضباباً كثيفاً ومن هذا الضباب الكثيف خلق العالم بأثره، ويحدثهم عن الأرض أماً والسماء أباً، وعن أهايوتا ومارسليما وهما توأما الحرب والصدفة، وعن يسوع وبوكونج، وعن مريم واتساناتلهى، وهى المرأة التى تستطيع أن ترد الشباب إلى نفسها، وعن الحجر الأسود عند لاجونا والنسر الأكبر وسيدتنا الأكومية وكلها قصص عجيبة، يزيدها عجباً أنها تحكى بتلك اللغة الغريبة فلا يفهمها تمام الفهم. وحينما يستلقى فى الفراش يفكر فى السماء وفى لندن وفى سيدتنا الأكومية وفى الصفوف العديدة من الأطفال المحفوظين فى القوارير النظيفة وفى يسوع وهو يطير ولندا وهى تطير وفى المدير الأكبر لمعامل التفريخ وفى أوناولونا.

وجاء لزيارة لندا رجال عديدون. وبدأ الصبية يشيرون إليها بأصابعهم، وفى لغتهم الغريبة قالوا إن لندا امرأة سيئة، ونبذوها بشتائم لم يفهم لها معنى، ولكنه أدرك أنها شتائم. وأخذوا ذات يوم يرددون أغنية بشأنها. فقذفهم بالحجارة، وقذفوه، فجرح خده حجر حاد وتدفق الدم وتلوث به.

وعلمته لندا القراءة. ورسمت على الحائط صوراً بقطعة من الفحم. رسمت حيواناً قابعاً وطفلا داخل قارورة. ثم سطرت بعض الحروف. وكتبت « القط فوق الحصير. والطفل فى الإناء. » وتعلم الولد بسرعة وسهولة. ولما استطاع أن يقرأ كل الكلمات التى كتبتها على الحائط، فتحت لندا صندوقها الكبير الخشبى وأخرجت من تحت

السراويل الصغيرة العجيبة الحمراء التى لم تلبسها قط كتاباً صغيراً هزيلا. ولطالما وقعت عيناه على هذا الكتاب من قبل. وكانت تقول له: « تستطيع أن تقرأه عندما تكبر ». وها هو ذا الآن كبير، وبنفسه فخور. ولكنها تقول له: « أخشى ألا تجده شيقاً. » ثم تنهدت وقالت: « ولكن ليس عندى سواه. آه لو شهدت آلات القراءة الجميلة التى كانت لدينا فى لندن! » ثم بدأ يقرأ: « تكييف الأجنة الكيمائى والبكتريولوجى. إشارات عملية لعمال مخزن الأجنة من النوع (ب) ». واستغرق ربع ساعة فى قراءة العنوان وحده. ثم ألقى الكتاب على الأرض وقال: « ما أشنع هذا الكتاب. » ثم بدأ يصيح.

وما برح الصبية ينشدون نشيدهم المريع عن لندا. وكانوا كذلك أحياناً يسخرون من ثيابه الرثة. وكانت لندا لا تعرف كيف تصلح ملابسه إذا تمزقت، وتقول له إن الناس فى العالم الآخر ينبذون الملابس ذات الخروق ويستبدلون بها الجديد. واعتاد الصبية أن يسخروا منه بقولهم: « الخرق البالية، الخرق البالية. » ويقول لنفسه: « ولكنى أستطيع أن أقرأ وهم لا يستطيعون. بل إنهم لا يعرفون ما القراءة. » وكان من اليسير عليه — إذا أنعم الفكر فى القراءة — أن يتظاهر بعدم الاهتمام بسخريتهم منه. فطلب إلى لندا أن تعيد إليه الكتاب.

وكلما تمادى الصبية فى الإشارة إليه وفى الغناء أمعن فى القراءة. وسرعان ما أتقن قراءة الكلمات كلها حتى أطولها. ولكنه سأل لندا عن معناها، غير أن المعنى لم يتضح له حتى حينما كانت لندا تستطيع الإجابة. وكانت فى الجملة تعجز عن الإجابة بتاتاً.

سألها : ما هى المواد الكيمائية .

قالت : هى مواد مثل أملاح المغنزيوم ، والكحول الذى يجعل طبقة (ء) و (ه) صغيرة متأخرة ، وكربونات الكلسيوم للعظام ، وماشابه ذلك .

— ولكن كيف تصنعون المواد الكيمائية يا لندا ؟ ومن أين تأتى؟

— لست أعرف . أنها تستخرج من القوارير . وعندما تفرغ القوارير نرسلها إلى مخزن المواد الكيمائية للمزيد . وأحسب أن الموظفين فى المخزن هم الذين يصنعون هذه المواد الكيمائية ، أو ربما يطلب موظفو المخزن هذه المواد من المصنع . لست أعرف ، ولم أشتغل بالكيمياء يوماً ما ، ولقد كان عملى دائماً يختص بالأجنة .

وكذلك كان الأمر فى كل سؤال وجهه إليها . وكأن لندا لم تعرف شيئاً . وكان عند شيوخ القرية إجابات أشد من ذلك قطعاً .

— بذور الناس وبذور المخلوقات جميعاً ، وبذور الشمس وبذور الأرض وبذور السماء — كل ذلك خلقه أو ناولونا من ضباب التكاثر . وللعالم أربعة أرحام . وقد وضع البذور فى أحط هذه الأرحام الأربعة . وبدأت البذور تنمو تدريجاً . . .

وذات يوم (حسبه جون فيما بعد وعلم أنه لابد أن يكون عقب ميلاده الثانى عشر) عاد إلى البيت وألفى كتاباً لم يره من قبل ملقى على الأرض فى غرفة النوم . وكان كتاباً غليظاً عليه سيما القدم ، وقد أكلت الفيران جلده ، وتفككت بعض صفحاته وتغضنت . فالتقط الكتاب ونظر إلى صفحة العنوان وقرأ عليها مايأتى : « مجموعة مسرحيات وليم شيكسبير » .

وكانت لندا مستلقية على فراشها ترشف من الكأس شراب المسكال ذا الرائحة الكريهة الشنيع . قالت : « لقد أحضره بوبى . » وكان صوتها غليظاً خشناً كأنه صوت شخص آخر، ثم قالت : « كان هذا الكتاب ملقى فى أحد صناديق انتلوب كيفا ، والمفروض أنه لبث هناك مئات السنين . وأحسب ذلك صحيحاً لأنى تصفحته وبدا لى كأنه ملىء بالخرافات . إنه كتاب همجى، ولكنه يصلح لتدريبك على القراءة . » ثم تناولت من الكأس الجرعة الأخيرة ، وألقتها على الأرض إلى جانب الفراش ، وانقلبت على جنبها ، وشهقت مرة أو مرتين ثم استغرقت فى النوم . وفتح الغلام الكتاب حيثما اتفق وقرأ فيه مايلى :

« عجباً كيف يعيش المرء فى عرق كريه على فراش رث، يدب فيه الفساد ، وكيف ينعم ويعشق فى بيت قذر كبيوت الخنازير . . . »(١)

ودارت هذه الكلمات العجيبة فى رأسه . ورنت فى أذنه كالرعد إذا تكلم ، أو كالطبل فى رقصات الصيف إذا استطاعت الطبول أن تتحدث ، أو كالرجال وهم يتغنون بنشيد الحصاد . كان رنينها فى الأذن رائعاً ؛ تدفع السامع إلى الصياح . كأنها حديث من حديث متسما العجوز ، ينطق بكلمات السحر وهو يتزين بالريش ويمسك بالعصى المنقوشة وبقطع من العظام والحجارة — ويتفوه بألفاظ لا معنى لها . غير أن الألفاظ التى قرأها خير من ألفاظ متسما السحرية ، لأنها تدل على معان أكثر منها ، ولأنها تحدثه ، وتتحدث بشكل يدعو إلى الإعجاب ولا تُفهم كل الفهم . هذه كلمات سحرية جميلة مريعة عن لندا وهى هناك على فراشها تغط فى نومها ، وإلى جوار فراشها كأس فارغة ملقاة على الأرض . هذه كلمات عن لندا وبوبى .

(١) هذه الأسطر مقتبسة من شيكسبير.

واشتد مقته لبوبى . وأدرك أن المرء قد لا يفتر ثغره عن الابتسام وهو وضيع دنىء . ياله من وغد ميت الضمير خائن ، داعر غير رفيق . ومامعنى تلك الكلمات التى قرأ ؟ أنه أدركها إدراكا ناقصاً . غير أن سحرها قوى ، ومافتئت ترن فى أذنه ، وأحس كأنه لم يكره بوبى من قبل قط . لم يكرهه لأنه لم يستطع يوماً أن يعبر عن مقدار كرهه له . أما الآن فلديه هذه الألفاظ التى تشبه الطبل والغناء والسحر . هذه الكلمات وتلك القصة العجيبة التى اقتُبست منها (إنه لم يفهم للقصة مغزى ، ولكنها برغم ذلك عجيبة جداً) بررت له كره بوبى ، وجعلت كرهه له أمراً حقيقياً ، بل جعلت بوبى نفسه شخصاً أكثر واقعية فى عينيه .

وعاد ذات يوم من اللعب وألفى باب الغرفة الداخلية مفتوحاً ، ووجدهما مستلقيين على الفراش معاً ومستغرقين فى نومهما — لندا البيضاء ، وبوبى إلى جانبها يكاد يكون أسود اللون ، وإحدى ذراعيه تحت كتفيها ، واليد الثانية السوداء على صدرها ، وإحدى ضفائر شعره الطويل ملقاة حول عنقها كأنها حية سوداء تحاول خنقها ، وجرة بوبى وإحدى الكؤوس ملقاة على الأرض إلى جانب السرير ، ولندا تغط فى نومها .

وكأن قلبه اختفى وخلف مكانه ثغرة . كان فارغاً بارداً وكأنه عليل به دوار ، فاستند إلى الحائط كى يعتدل . وجال بخاطره أن الرجل ميت الضمير ، خائن ، داعر . . . .وتذكر تلك الألفاظ التى تشبه الطبل ، أو تشبه نشيد الحصاد ، أو السحر . وأخذت الكلمات تدور فى رأسه مرة بعد أخرى . واستحالت برودته بغتة إلى حرارة . واحترقت وجنتاه من الدم المتدفق ، وعامت الغرفة أمام عينيه وأظلمت.واصطكت

أسنانه . وردد قوله : « سوف أقتله ، سوف أقتله » . وتذكر فجأة هذه الكلمات :

« حينما يكون مستغرقاً فى نومه ثملا ، أو فى ثورة من الغضب ، أو فى متعة الفراش زانياً مع امرأة لا يجوز له أن يقترن بها . . . »

إن هذا السحر يشد أزره . وهو سحر يفسر له ما غمض ويصدر له الأوامر بما يصنع . فتقهقر إلى الغرفة الخارجية ، وردد هذه العبارة : « حينما يكون مستغرقاً فى نومه ثملا . . . » وكانت سكين اللحم ملقاة على الأرض إلى جانب النار ، فالتقطها وسار على أطراف أصابعه نحو الباب ثانية . وردد مرة أخرى : « حينما يكون مستغرقاً فى نومه ثملا. . . » وعبر الغرفة على عجل وطعن الرجل . ياللدماء ! ثم طعنه مرة أخرى . وتحرك بوبى من نومه فرفع يده كى يطعنه طعنة ثالثة، ولكن يداً قبضت على معصمه وأمسكت بها ولوتها لياً شديداً. فلم يستطع أن يتحرك ، ووقع فى الشراك . ورأى عينى بوبى الصغيرتين السوداوين المتقاربتين وهما تحدقان فى عينيه ، فصرف عنه البصر . ورأى جرحين فى كتف بوبى اليسرى . وصاحت لندا قائلة : « أنظروا إلى الدماء . أنظروا إلى الدماء ! » ولم تستطع يوماً أن تحتمل رؤية الدماء . ورفع بوبى يده، الأخرى كى يضربه— كما ظن جون. فتصلب استعداداً للقاء الضربة،ولكن اليد التى ارتفعت عادت به تحت ذقن الرجل ولوت وجهه بحيث لم يسعه إلا أن يحدق فى عينى بوبى . وبقى على ذلك ساعات طوالا . ثم لم يسعه بعدئذ إلا أن ينفجر بالبكاء. فقهقه بوبى ضاحكا وقال له باللغة الهندية العجيبة : « اذهب يا أهايوتا . إنك شجاع . » فانطلق إلى الغرفة الأخرى كى يخفى دموعه.

وقال له متسما العجوز باللغة الهندية : أنت فى الخامسة عشرة

من عمرك ، وأستطيع الآن أن أعلمك كيف تشتغل بالصلصال .

وجلسا القرفصاء على شاطىء النهر وأخذا يشتغلان معاً .

وتناول متسما بين يديه قطعة من الصلصال المبتل وقال : «لنعمل أولا قمراً صغيراً . » وصنع الرجل العجوز من كتلة الصلصال قرصاً ، ثم ثنى أطرافه إلى أعلى ، فأصبح القمر كأساً ضحلة .

وقلد جون حركات الرجل العجوز الدقيقة ببطء وبغير مهارة .

وطرق متسما قطعة أخرى من الصلصال وصنع منها أسطوانةطويلة لينة ، ثم صنع منها حلقة مستديرة ولصقها على حافة الكأس قائـلا : « قمر فكأس فثعبان ، ثم آخر فآخر . » وهكذا كون متسما جـوانب الوعاء من تكرار الحلقات . وكان أسفله ضيقاً ، ثم انتفخ ثم ضاق ثانية عند العنق . وظل متسما يكوّر ويدحو ، ثم يربت ويكشط حتى تكوّن الوعاء وأضحى فى شكله كجرة الماء المألوفة فى مالبى ، غير أنه فى بياض القشدة بدلا من السواد ، ناعم الملمس . و إلى جوار الوعاء الذىصنعه متسما وعاء آخر يغايره شكلا خشن غير مستقيم ، وهو من صنع جون . فنظر إلى الوعاءين ولم يسعه إلا أن يضحك . ثم قال : « سيكون الثانى خيراً من هذا . » وشرع يبلل قطعة أخرى من الصلصال .

وأحس بنشوة من السرور وهو يشكّل الصلصال ويصوره ويشعر بأصابعه وهى تكتسب مهارة وقوة . وأخذ يغنى لنفسه وهو يعمل ويقول « ا ، ب ، حـ ، فيتامين ء . الدهن فى الكبد . والحوت فى البحر . » وتغنى كذلك متسما بأغنية عن قتل الدب .واشتغلا طيلة النهار ،وأحس كل الوقت بسعادة عظيمة أنسته كل شئ .

وقال له متسما العجوز : فى الشتاء القادم سأعلمك صناعة القوس.

ووقف زمناً طويلا خارج البيت . وأخيراً انتهت الحفلات التى أقيمت بداخله . وفُتح الباب وخرجا منه ، وظهر كوثلو أولا ، وذراعه اليمنى ممتدة ويده مقبوضة بشدة كأنه يمسك بجوهرة ثمينة . وتبعتـه كيا كيمى ويدها كذلك مقبوضة وذراعها ممتدة . وسارا صامتين ،وجاء فى إثرهما الاخوة والأخوات وأبناء العم ورتل من العجائز ، وهم كذلك صامتون .

وخرجوا من القرية وعبروا الهضبة المستوية . وعند حافة الهضبـة كفوا عن المسير وقد طالعتهم الشمس المشرقة . ففتح كوثلو يده ، فظهرت على كفه كمية يسيرة من دقيق الحنطة الأبيض . تنفس عليها وتمتم ببضع كلمات ثم رمى بها نحو الشمس و كأنها قبضة من التراب الأبيض . وفعلت كيا كيمى مثل مافعل . وعندئذ تقدم أبوها ورفـع عصا مريشة يستخدمها عند الصلاة ، ودعا دعاء طويلا ، ثم قذف العصا فى اتجاه الدقيق .

وعندئذ قال متسما العجوز بصوت مرتفع : انتهى الأمر وأصبحا زوجين .

وعندما هموا بالانصراف قالت لندا : كل ما أستطيع أن أقوله إنها جعجعة كبيرة من أجل طحن قليل . أما فى الأمم المتمدنة فان الولد حينما يشتهى الأنثى ليس عليه إلا أن . . . . .ولكن إلى أين أنت ذاهب يا جون ؟

فلم يعرها التفـاتاً وأخـذ يهرول ويبتعـد كى يبلغ مكاناً يعتزل الناس فيه .

انتهى الأمر ، وتردد صدى كلمات متسما العجوز فى فؤاده . انتهى ، انتهى . . . . .وفى هذا السكون وذلك المكان القصى نبض قلبه بحب

كيا كيمى ، ولكن بغير أمل أو رجاء . فلقد انتهى الأمر ، وهو الآن فى السادسة عشرة من عمره .

كانت الأسرار تفشى ، بل تؤدى وتحمل فى ليالى البدر الكامل فى كهف انتلوب . يدخل الأولاد الكهف ويخرجون منه رجالا . وكانوا جميعاً فى خوف وقلق . وأخيراً حل اليوم الموعود ، وغربت الشمس وطلع القمر .فذهب أحد الغلمان مع الآخرين. وكان الرجال واقفين لدى مدخل الكهف كالأشباح فى ضوء القمر . وأنزل السُلم فى أعماق الكهف وقد أشرقت جوانبه بضياء أحمر . وبدأ زعماء الأولاد يهبطون . وتقدم أحد الرجال بغتة ، وأمسك الغلام من ذراعه وأخرجه من الصفوف ، ولكنه أفلت من قبضته وعاد إلى مكانه بين الآخرين . فضربه الرجل وجذبه من شعره . وقال رجل آخر : « لا عليك ياصاحب الشعرالأبيض. لا عليك ياابن الكلبة . » وضحك الأطفال . وقيل له : « اذهب ! » وصاح به الرجال : « هيا اذهب ! » وما برح يتلكأ عند أهداب الجماعة.وانحنى أحد الرجال والتقط حجراً ثم رماه قائلا : « اذهب ! » ثلاث مرات . ثم كان بعد ذلك وابل من الحجارة . فانطلق الغلام فى الظلام وهويدمى . وعلت من الكهف الأحمر ضوضاء الغناء . وذلك عندما هبط الغلام الأخير على السلم . وكان صاحبنا وحيداً .

بقى وحيداً خارج القرية فوق الهضبة الجرداء . وكانت الصخور فى ضوء القمر كالعظام البيضاء ، والذئاب تعوى تحت ضوء القمر فى بطن الوادى . وقد آلمته الجروح وتدفقت منها الدماء ، ولكنه لم ينتحب من أثر الجراح ، وإنما كان يبكى وحدته ، لأنه طرد وحيداً فوق هذهالصخور التى تشبه فى ضوء القمر هيكل العظام . فجلس عند حافة الهضبة ،

والقمر خلفه ، وألقى بصره إلى ظل الهضبة الحالك ، أو ظل الموت الأسود. فما عليه إلا أن يخطو إلى الأمام خطوة ثم يقفز . . . .وبسط يمناه فى ضوء القمر ، وما برحت الدماء تتدفق من معصمه ، وتسقط قطرات كل بضع ثوان ، وهى تكاد تكون عديمة اللون فى ذلك الجو القاتم . سالت الدماء نقطة نقطة وكأنها تقول له غداً ، غداً ، غداً . . .

فى تلك العزلة أدرك صاحبنا الزمان والموت والله . . .

وكان الشاب يقول : كنت دائماً وحدى .

فكان لهذه الألفاظ صدى أليم فى صدر برنارد ، فقال لصاحبه وقد أولاه كل ثقته : كنت دائماً وحدك . و إنى لكذلك فى عزلة تامة .

فسأله جون فى دهشة بالغة : هل أنت وحيد ؟ لقد كنت أحسب أنكم فى العالم الآخر . . . أعنى أن لندا كانت تقول لى دائماً إن المرء هناك لا يشعر بالعزلة البتة .

فساور القلق نفس برنارد وتدفق الدم فى وجنتيه من شدة الخجل وقال متمتما وقد حول عنه عينيه : أحسب أنى على خلاف مع أكثر الناس . فالمرء إذا أفرغ من القارورة بطريقة مخالفة . . .

فأومأ الشاب برأسه قائلا : « أجل.هو ذاك. إن المرء إذا اختلف عن غيره فلا مندوحة له عن الشعور بالوحدة ، وحينئذ يقسو عليه العالم . هل تعلم أنهم يبعدوننى عن كل شئ كل الابعاد ؟ فعندما أرسلوا الغلمان الآخرين ليقضوا المساء فوق الجبال (وأنت تعلم بالطبع شعور المرء عندما يرغم على أن يحلم بالحيوان الذى يجب عليه أن يقدسه) لم يسمحوا لى برفقتهم ولم يبوحوا لى بسر من أسرارهم . ثم قال : « ولكنى فعلت ذلك بنفسى ، فلم أتناول طعاماً مدة خمسةأيام ، ثم خرجت ذات مساء وحدى إلى تلك الجبال . » وأشار إليها .

وابتسم له برنارد ابتسامة العطف وسأله : وهل حلمت بشىء ما؟

فأومأ الشاب بالايجاب وقال : « ولكن لا ينبغى لى أن أذكر لك ما حلمت به ». ثم صمت برهة من الزمن واصل حديثه بعدها بصوت منخفض . قال : لقد فعلت مرة أمراً لم يفعله غيرى من الآخرين . وقفت تجاه صخرة فى رابعة النهار صيفاً ، وذراعاى ممتدتان إلى جانبىّ كالمسيح فوق الصليب .

— عجباً ولماذا فعلت هذا ؟

— أردت أن أحس بشعور المصلوب. وبقيت هناك فى الشمس معلقاً . . .

— ولماذا ؟

فقال متردداً : لماذا ؟ . . . لأنى شعرت بضرورة هذا العمل ما دام المسيح قد استطاعه. ثم إن المرء إذا أخطأ . . . وكنت فوق ذلك تعساً ، وهذا سبب آخر .

قال برنارد : « يبدو لى أن هذه طريقة عجيبة لعلاج شقاوتك » . ولكنه بعدما عاود التفكير فى الأمر قرر أنها طريقة لا تخلو من المغزى ، فهى خير من تناول السوما . . .

ثم قال الشاب : « وأغمى علىّ بعد فترة ما ، وانكفأت على وجهى . هلا ترى أثر الجرح فى وجهى ؟ » وأزاح شعره الأصفر الغزير عن جبهته وظهر أثر الجرح على صدغه الأيمن شاحب اللون مغضناً .

ونظر إليه برنارد ثم حول عنه بصره سريعاً وقد أصابته رعدة خفيفة. لأنه كُيِّف على أن يكون شديد الاشمئزاز أكثر منه رؤوفاً رحيماً . فان مجرد الإشارة إلى المرض أو الجراح لا ترعبه فحسب بل تنفره وتقززه ، كما تفعل القذارة أو التشويه أو الشيخوخة . ولذا أسرع فى الانتقال إلى موضوع آخر .

فسأل صاحبه قائلا : « هل لك أن تعود معنا إلى لندن ؟ » وكان هذا السؤال الحركة الأولى من الحملة التى كان يدبر خطتها سراً منذ أدرك وهو فى البيت الصغير من يكون « والد » هذا الشاب الهمجى . ثم قال : هل تحب ذلك ؟

فتهلل وجه الشاب وقال : هل تقصد حقاً ما تقول ؟

— بالطبع ، إذا استطعت أن أحصل على الإذن بذلك .

— ولندا كذلك ؟

فساورته الشكوك لحظة وتردد فى الاجابة . فلقد كانت لندا مخلوقاً منفراً . كلا . هذا مستحيل ، ما لم . . . وطرأ لبرنارد فجأة أن تنفيرها نفسه قد يكون مغنماً كبيراً . فقال : « بالطبع ! » وعلا صوته كى يعوض تردده الأول . وبالغ فى إظهار الإخلاص .

وتنفس الشاب نفساً عميقاً وقال : ما أشد دهشتى حين أفكر فى أن ما حلمت به طوال حياتى قد يتحقق . هل تذكر ما تقول ميراندا ؟

— ومن تكون ميراندا ؟

وكان من الجلى أن الشاب لم يسمع السؤال واستمر يقول: «ياللعجب!» وأبرقت عيناه وتورد وجهه وقال : « كم من مخلوق طيب فى ذلك المكان ! ما أجمل الإنسان ! » وزادت حمرة خديه فجأة ، فلقد انصرف ذهنه إلى لينينا ، إلى ملاك فى زى لزج لونه كخضرة الزجاج ، يتألق من عنفوان الشباب ومن دهان البشرة ، ممتلىء الجسم ، على شفتيه ابتسامة تنم عن الخير. وتهدج صوته ، ثم بدأ يقول : « ما أعجب العالم الجديد . » ثم قاطع نفسه فجأة ، وزالت حمرة وجنتيه ، وأصبح شاحباً كالورق . ثم قال : هل أنت متزوج منها ؟

— هل أنا ماذا ؟

— متزوج . أعنى إلى الأبد . إنهم يقولون « إلى الأبد » فى لغة الهنود . إنها علاقة لا تنفصم .

فلم يتمالك برنارد نفسه من الضحك وقال : كلا وحق فورد .

وضحك جون كذلك ، ولكن الباعث مختلف . فلقد ضحك من فرط السرور .

وكرر جون قوله : ما أعجب العالم الجديد ! ما أعجب هذا العالم الجديد الذى يشتمل على أمثال هؤلاء الناس . لنبدأ رحلتنا توا بغير توان . فحملق برنارد فى الشاب فى دهشة وارتباك وقال : إن لك فى بعض الأحايين طريقة غريبة فى الحديث . وعلى أية حال ألا يجدر بك أن تنتظر حتى ترى العالم الجديد فعلا ؟

الفصل التاسع

أحست لينا بعد هذا اليوم الغريب المرعب أنها قمينة بعطلة تامة مطلقة . فما أن عادا إلى الاستراحة حتى ابتلعت ستة أقراص من السوما زنة القرص الواحد نصف جرام ، واستلقت على سريرها ، وفى خلال عشر دقائق اقلعت إلى عالم الخلد القمرى . ولا بد من أن تنقضى ثمانية عشرة ساعة على الأقل قبل أن تعود إلى وعيها .

وفى تلك الأثناء استلقى برنارد فى الظلام واسترسل فى الفكر وعيناه مفتوحتان . ولم يستغرق فى النوم إلا بعدما انتصف الليل بأمد طويل . ولكن أرقه لم يكن بغير جدوى . فلقد دبر لنفسه خطة محكمة .

وفى صبيحة اليوم التالى خرج الرجل الزنجى المولد ذو الرداء الأخضر من طائرته فى تمام الساعة العاشرة . وكان برنارد بانتظاره وسط أشجار الصبر فقال له : إن المس كراون قد رحلت فى عطلة السوما ولا أظنها عائدة قبل الخامسة . وهذا يوفر لنا سبع ساعات .

فهو يستطيع أن يطير إلى سانتافى ويقضى بها وطره ثم يعود إلى مالبى قبل يقظتها بوقت طويل .

— وهل تكون هنا آمنة وهى وحيدة ؟

فأكد له الزنجى أنها سوف تكون آمنة كالطائرة .

وامتطيا الطائرة وأقلعا فى الحال . وفى الساعة العاشرة والدقيقة الرابعة والثلاثين هبطا على سطح مكتب البريد فى سانتافى . وفى الساعة

العاشرة والدقيقة السابعة والثلاثين وصل برنارد إلى مكتب المراقب العالمى فى هوايت هول. وفى الساعة العاشرة والدقيقة التاسعة والثلاثين كان يتحدث إلى السكرتير الخاص الرابع لسيادته . وفى الرابعة والأربعين بعد العاشرة كان يكرر قصته إلى السكرتير الأول . وفى السابعة والأربعين والنصف بعد العاشرة رن فى أذنيه صوت مصطفى مند نفسه وهو صوت عميق رنان .

فقال برنارد متلجلجاً : لقد جرؤت على الظن بأن سيادتك قد تجد للأمر أهميه علمية كافية . . .

فرد عليه بصوته العميق قائلا : أجل إنى أجد له أهمية علمية كافية . عد بهذين الشخصين إلى لندن .

— إن سيادتك تعلم أنى سوف أحتاج إذناً خاصاً . . .

قال مصطفى مند : إن الأوامر الضرورية ترسل فى هذه اللحظة إلى حارس منطقة المتوحشين . فتوجه لتوّك إلى مكتب الحارس ، ورافقتك السلامة يا مستر ماركس .

وساد الصمت برهة ، ثم علق برنارد السماعة وأسرع إلى السطح . وقال للزنجى الأخضر (د) : إلى مكتب الحارس .

وفى الساعة العاشرة والدقيقة الرابعة والخمسين كان يصافح الحارس .

وبصوت مجلجل يدل على الإكرام قال الحارس : إنى جد مسرور يا مستر ماركس . لقد تسلمنا منذ لحظة أوامر خاصة . . .

فقاطعه برنارد قائلا : « أعرف ذلك ، إذ كنت أتحدث إلى سيادته تلفونياً منذ لحظة. » وقد تكلم بنغمة مملة تدل على أنه اعتاد الحديث إلى سيادته فى كل يوم من أيام الأسبوع . ثم خر فى أحد المقاعد وقال للحارس

مؤكداً : « هل تتكرم باتخاذ الخطوات الضرورية بأقصى ما تستطيع من سرعة ؟ » وكان فى مرح شديد .

وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثالثة كانت الأوراق الضرورية كلها فى جيبه .

وصحبه الحارس حتى أبواب المصعد ، وهناك ودعه بعطف شديد . ثم قصد الفندق ، واستحم ، وتدلك بالآلة المذبذبة المفرغة ، وحلق بالكهرباء ، واستمع إلى أنباء الصباح تذاع بالراديو ، وشاهد صور التلفزيون نحواً من نصف ساعة ، ثم تناول غداء خفيفاً وهو خالى البال. وفى منتصف الساعة الثالثة عاد مع الزنجى طائراً إلى مالبى .

وكان الشاب واقفاً خارج الاستراحة .

فصاح : « برنارد ، برنارد . » غير أنه لم يظفر برد .

فصعد السلم مسرعاً فى خف من جلد الغزال لم يحدث به صوتاً ، وحاول أن يفتح الباب ، ولكنه كان موصداً .

عجباً ، لقد رحلا ! وكان هذا الحادث أشق ما وقع له فى حياته. لقد طلبت إليه أن يأتى لرؤيتهما ، وها هما ذا الآن قد رحلا . فجلس على السلم وبكى .

وبعد نصف ساعة طرأ له أن يطل من النافذة . وكان أول ماوقعت عليه عيناه حقيبة ملابس خضراء كُتب على غطائها بالألوان هذان الحرفان ل . ك . فاشتعلت نفسه من فرط السرور ، والتقط حجراً ، وحطم الزجاج ووقع على الأرض مصلصلا . وكان بداخل الغرفة بعد لحظة . وفتح الحقيبة الخضراء ، ففاح منها عبير العطور التى كانت تحملها لينا ، وامتلأت رئتاه برائحتها وذكراها. وأسرعت دقات قلبه .

وغاب عن رشده لحظة ثم انحنى على الصندوق الثمين . ومس ما به ، ورفعه إلى الضياء وفحصه . ورأى على سروالها القصير اللين المصنوع من المخمل مشبكا حيره أول الأمر ، ثم حل لغزه فهش له . وقد افتتن للسهولة التى يفتح بها هذا المشبك السروال ثم يسده . وكان أجمل ما وقعت عليه عيناه خفها الأخضر . وفض رداء داخلياً لها يتكون من سترة وسروال متصلين ، وينفتح وينسد بمشبك سهل الانزلاق ، فاحمرت وجنتاه خجلا ، ثم أعاد الرداء إلى الحقيبة على عجل . ثم قبل منديلا من حرير الحمض معطراً ولف حول رقبته كوفية . وفتح أحد الصناديق فصعدت منه سحابة من المسحوق العطر ، وبيّض المسحوق يديه ، فمسح بهما على صدره وعلى منكبيه وعلى ذراعيه العاريتين . ما ألذ تلك العطور ! ثم أغمض عينيه ، ومسح خده على ذراعه التى بيضها المسحوق ، فأحس بملمس الجلد الناعم على وجهه، وبعطر المسك فى أنفه — بل قل أحس بوجودها الحقيقى فهمس قائلا : لينينا ، لينينا !

وسمع صوتاً ارتاع له ، وأحس بجرمه فالتفت ، وجمع مسروقاته على عجل فى الحقيبة وأغلق غطاءها . ثم أنصت ثانية والتفت . فلم تبد له شارة أو صوت يدل على الحياة . ولكنه لم يشك فى أنه سمع صوتاً ما — صوتاً يشبه التنهد . أو يشبه صريف الألواح . فسار إلى الباب على أطراف أصابعه وفتحه بحرص شديد فألقى نفسه مطلا على عتبة فسيحة . وفى الجانب الآخر من العتبة باب آخر مفتوح على مصراعيه فتقدم ورفع الباب وأطل منه .

فاذا بلينينا مستلقية على سرير منخفض أزيح فراشه إلى الوراء ، مرتدية بيجاما ذات مشبك سهل الانزلاق قرنفلية اللون تتكون من قطعة واحدة ، مستغرقة فى النوم ، رائعة فى شعرها المتموج ، فى سذاجة

الطفل بأصابع قدميها الحمراء ووجهها الناعس الجاد ، تبعث الطمأنينة بيديها المرتخيتين العاجزتين وبأطرافها المستلقية . رأى ذلك فتجمع الدمع فى مآقيه .

ولج الغرفة بمنتهى الحيطة التى لا لزوم لها ، لأن لينينا لن تتيقظ من عطلة السوما قبل الموعد المحدد اللهم إلا إن حدثت إلى جوارها ضجة لا تقل عن صوت الطلاق المسدس . وجثا على ركبتيه إلى جوار سريرها . وحملق فيها وقبض يديه وتحركت شفتاه وتمتم قائلا :

« يالعينيها ، يالشعرها ، وخدها ، وقدها ، وصوتها !
يا لها وهى تلوح فى حديثها بتلك اليد
التى تزرى ببياضها كل بياض
والتى تفوق فى نعومتها زغب الأوز . . . »

وعندئذ طنت حولها ذبابة ، فطردها وتذكر هذه الأبيات :

« إن الذباب فوق يد جوليت العزيزة ذات البياض العجيب
قد يستولى ويسرق من شفتيها البركة الخالدة .
وهما تخجلان فى تواضع طاهر عذرى
كأنهما تحسبان قبلاتهما إثما من الآثام . »

ومد يده فى بطء شديد وبحركة تدل على التردد كأنه يمدهما ليربت بهما على طائر خجول لا يخلو من الخطر . وظلت يده معلقة فى الفضاء وهى ترتعد على بعد بوصة من أصابعها المرتخية ، وقد أوشك أن يمسها . ولكن هل يجرؤ أن يدنس بيده النجسة تلك . . . كلا . إنه لم يجرؤ ، فالطائر شديد الخطر . وأرخى يده . ما أجملها! ما أروعها!

وطرأ له فجأة أن يمسك بالمشبك عند عنقها و يجذبه إلى أسفل جذبة قوية طويلة . ما عليه إلا أن يفعل ذلك ثم . . . وأغمض عينيه وهز رأسه بحركة كحركة الكلب يهز أذنيه وهو يخرج من الماء . لقد كانت فكرة ممقوتة ! وخجل من نفسه . إن تواضعها طاهر عذرى . . .

وسُمع فى الهواء طنين . فهل كانت ذبابة تحاول أن تسرق البركة الخالدة ؟ أو دبور ؟ وتلفت حواليه فلم تقع عينه على شئ . وعلا الطنين وتركز خارج النوافذ الخشبية . إنها الطائرة ! ونهض على قدميه مذعوراً وهرول إلى الغرفة الأخرى ، وأطل من النافذة المفتوحة ، وأسرع فى سيره فوق الممر الذى يتخلل أشجار الصبر ولم يتأخر عن استقبال برنارد ماركس وهو يخرج من الطائرة فى الوقت المناسب .

الفصل العاشر

أشارت الأربعة آلاف ساعة كهربية جميعاً فى الأربعة آلاف غرفة التى يتكون منها مركز بلومز برى إلى الساعة الثانية والدقيقة السابعة والعشرين . وكانت « هذه الخلية الصناعية » — كما كان المدير يغرم بتسميتها—تطن من ضوضاء العمل طنيناً عالياً. وكان كل فرد منهمكا فى عمله، وكل شئ يسير فى حركة منظمة ، والحيوانات المنوية تبدو تحت المناظير المكبرة وهى تقتحم البيض برأسها وتضرب بذيولها الطويلة فى هياج شديد ، والبيض يتمدد بالتلقيح وينقسم ، وإن كان ما تجرى عليه عملية بوكانوفسكى يفرخ ويتهشم مخرجاً شعباً بأسره من الأجنة المنفصلة . والسلالم المتحركة فى « حجرة القضاء والقدر الاجتماعى » تهبط إلى الطابق السفلى محدثة ضجيجاً عالياً . وهناك فى الظلام القرمزى تنمو الأجنة رويداً رويداً وهى ساخنة كالطعام المسلوق مستقرة على وسادات من البريتون ومشبعة بالدم المستحدث والهرمونات . وبعضها يسم فيضعف ويكف عن النمو و يمسى من الطراز (ﻫ) . والرفوف المتحركة تزحف زحفاً بطيئاً لايدركه الرائى محدثة طنيناً خافتاً وجلجلة خفيفة. وتستعيد فى سيرها تطور السنين والقرون حتى تبلغ حجرة التفريغ حيث الأطفال الذين خرجوا حديثاً من قواريرهم يصيحون صيحات الذعر والدهشة الأولى .

ومولدات القوى الكهربية تموء فى حجرات تحت الأرض ، والمصاعد تنطلق إلى أعلى و إلى أسفل . وقد حان وقت الاطعام فى الطوابق

الاحدى عشرة الخاصة بصغار الأطفال ، و إذا بألف وثمانمائة طفل قد خرجوا من ألف وثمانمائة قارورة وعلى كل منهم بطاقة واضحة يرضعون فى وقت واحد الكميـة المقررة (وهى نصف لتر لكل منهم) من الافراز الخارجى المعقم على طريقة باستير .

وفوقهم على عشر طبقات متتابعة من غرف النوم الصغار من البنين والبنات الذين لا يزالون بحاجة إلى النوم بعد الظهيرة ، وهم جميعاً — و إن كانوا لا يدرون — منهمكون فى العمل ، شأنهم فى ذلك شأن كل فرد آخر . كانوا جميعاً ينصتون على غير وعى منهم إلى الدروس التى تلقى أثناء النوم . وكان الدرس حينئذ فى علم الصحة وأصول الاجتماع وفى شعور الطبقات وفى حياة الحب عند الأطفال . وفوق غرف النوم هذه حجرات اللعب ، حيث تسعمائة طفل أكبر سناً من هؤلاء يتلهون — وقد أمطرت السماء — بصنع الطوب وتشكيل الصلصال ، وبالألعاب المستحدثة وتبادل الغزَل .

والخلية لا تفتر عن الطنين ، والكل مرح مشغول . وغناء البنات فوق أنابيب الاختبار بهيج ، ورجال القضاء والقدر يصفرون أثناء العمل ، والعمال فى غرفة التفريغ يتبادلون النكات البارعة فوق القوارير الفارغة . غير أن المدير دخل غرفة التلقيح حينئذ مع هنرى فستر بوجه عابس يكاد يتصلب من قسوة الرجل .

وكان يقول : هنا فى هذه الغرفة مثال للجمهور ، فهى تحتوى على عمال من الطبقة العليا أكثر مما تحتوى أية غرفة أخرى فى المركز بأسره . وقد طلبت إليه أن يقابلنى هنا فى منتصف الساعة الثالثة .

وعلق هنرى بقوله : «إنه يتقن عمله كل الاتقان.» وكان فى ثنائه هذا منافقاً كريماً .

— أعرف ذلك ، وأرى فيه سبباً آخر لقسوتى . إن تفوقه الفكرى تقابله تبعات خلقية عليه أن يحملها . كلما اشتد نبوغ الإنسان زادت قدرته على التضليل . ولأن يشقى فرد واحد خير من أن يفسد أفراد كثيرون . فكر فى الأمر غير متأثر بالعواطف يا مستر فستر تجد أن السلوك الذى لا يتفق والتقاليد إثم لا يساويه إثم آخر فى شناعته . إن القاتل يودى بحياة فرد واحد — ثم ما هو الفرد ؟ وبحركة سريعة أشار إلى صفوف المناظير المكبرة ، و إلى أنابيب الاختبار والمحاضن وقال : إننا نستطيع أن نصنع شخصاً جديداً بسهولة عظمى — بل نستطيع أن نصنع من الأشخاص بقدر ما نريد . أما السلوك الشاذ فهو يهدد أكثر من مجرد حياة الفرد . إنه يصيب المجتمع فى الصميم . أى والله إنه ليفعل ذلك . أنظر ! ها هو ذا آت .

ودخل برنارد الغرفة وتقدم نحوهما خلال صفوف الملقحات . وقد أخفى اضطرابه العصبى بطلاء خفيف من الثقة فى النفس وخفة الروح . وقال : «عم صباحاً أيها المدير .» بصوت مرتفع سخيف، وبنغمة أخرى ناعمة كالصرير تثير الضحك. صحح خطأه قائلا: «لقد طلبت إلىّ أن آتى للتحدث هنا معك.»

فأجابه المدير بصوت ينذر بالسوء : نعم يا ماركس ، لقد طلبت إليك أن تأتينى هنا ، وقد عدت من عطلتك مساء الأمس كما أعلم .

فأجابه برنارد : نعم .

وردد المدير قوله : « نعم » وقد أطال الميم فى « نعم » مدمدماً بها . ثم رفع صوته بغتة وانطلق كالبوق قائلا : سيداتى وسادتى .

وكف البنات فجأة عن الغناء فوق أنابيب الاختبار ، وتوقف عن الصفير والعمل عمال المناظير المكبرة . وساد صمت عميق ، وتلفت كل امرئ حواليه .

وكرر المدير قوله : « سيداتى وسادتى . عفواً إن قطعت عليكم حبل العمل ، فإن واجباً أليماً يدفعنى إلى ذلك دفعاً . إن أمن الجماعة واستقرارها فى خطر . أجل فى خطر أيها السادة . إن هذا الرجل . . . » وأشار إلى برنارد متهما إياه « . . . الذى يقف أمامكم هنا ، إن هذا الرجل من طبقة (+ ا) الذى نال الكثير ، وأصبحنا نتوقع منه لذلك الكثير . إن زميلكم هذا — أو هل لى أن أسبق الحوادث وأقول هذا الزميل السابق ؟ — قد خان العهد الذى وضعناه فى عنقه خيانة عظمى . إنه بزندقته فيما يخص الرياضة والسوما ، وبحياته الجنسية المشينة الشاذة وبرفضه أن يطيع تعاليم فورد ويسلك خارج ساعات العمل كما يسلك الطفل فى قارورته (وهنا رسم المدير هذه العلامة : T) إنه بذلك برهن على أنه عدو للمجتمع ، وإنه ثائر — أيها السادة — على النظام والاستقرار ومتآمر على الحضارة نفسها . لهذا أقترح أن نفصله عن الوظيفة التى كان يشغلها فى هذا المركز موصوماً بالخزى والفضيحة . واقترح أن نطلب نقله فوراً إلى مركز فرعى من أحط المراكز ، وإننا بعقوبته نخدم مصلحة الجماعة لأننا سوف نبعده على قدر ما نستطيع عن كل مركز هام من مراكز السكان . إنه لن يجد فى إيسلندة إلا فرصة ضئيلة تمكنه من تضليل الآخرين بسلوكه الذى يخالف به شريعتنا . »

وسكت المدير لحظة ، ثم ضم ذراعيه واتجه ببصره نحو برنارد وقال له بنغمة مؤثرة : هل تستطيع أن تذكر لنا يا ماركس سبباً يدعو إلى عدم تنفيذ الحكم الذى أصدرناه بشأنك الآن ؟

فأجاب برنارد بصوت مرتفع جداً : نعم أستطيع .

فقال المدير : « إذن فاذكره . » وقد ارتاع قليلا . ولكنه ما برح شامخاً بأنفه .

قال برنارد : بالتأكيد . ولكنه فى الممر . انتظرونى لحظة . وهرع إلى الباب وفتحه . ثم قال آمراً : « أدخل » ودخل السبب وظهر للعيان .

وشهق الجميع وتمتموا بالدهشة والفزع . وإذا بفتاة صغيرة تصيح . ووقفت إحدى الحاضرات على أحد المقاعد كى تتمكن من مشاهدة المنظر فانقلبت أنبوبتان من أنابيب الاختبار مليئتان بالحيوانات المنوية . وتقدمت لندا داخل الغرفة وجلست خلال الأبدان الفتية الشابة ذات الوجوه النضرة ، وهى امرأة متورعة مترهلة كالوحش المفزع الغريب فى منتصف العمر ، تبسم ابتسامة مداعبة خفيفة لها طابع غريب . وقد قصدت أن تخطر بصورة تثير الشهوة ، فهزت ردفيها الغليظين وهى تمشى . وسار إلى جوارها برنارد .

وأشار إلى المدير قائلا : ها هو ذا .

فقالت لندا غاضبة : « وهل كنت تحسب أنى لم أعرفه ؟ » ثم التفتت إلى المدير وقالت : « عرفتك بالطبع ، وكنت أعرفك ياتوماكين فى أى مكان لو كنت بين ألف . ولكن ربما نسيتنى . ألست تذكر ؟ ألست تذكر يا توماكين . لنداك . » ووقفت تنظر إليه ورأسها على جانب ، ولا زالت باسمة غير أن ابتسامتها أصبحت تدريجاً — لقاء ما بدا على المدير من تقزز وتحجر — تنم عن نقص فى ثقتها بنفسها . كانت ابتسامة حائرة ، ثم تلاشت فى النهاية . وكررت سؤالها فى صوت متهدج « ألست تذكر يا توماكين ؟ » وبدا فى عينيها القلق والألم . وتغيرت ملامح وجهها الملطخ المترهل بصورة عجيبة ، وظهر عليه تجهم يدل على الحزن العميق . ومدت ذراعيها قائلة : « توماكين » وبدأ أحد الحاضرين يضحك همساً .

وقال المدير : ما معنى هذا المزاح . . .

وهرولت نحوه تجرر أذيالها وتنادى : : توما كين » وطوقت جيده بذراعيها ، وأخفت وجهها فى صدره .

وتعالى الضحك المكبوت .

وصاح المدير متمما حديثه : . . . هذا المزاح الوحشى .

واحمر وجهه وحاول أن يتخلص من عناقها . وتعلقت به مستيئسة وقالت : « ولكنى أنا لندا ، أنا لندا ! » وضاع صوتها وسط الضحكات العالية . ثم صاحت وعلا صياحها على اللغط وقالت : « لقد جعلتنى آتى بطفل . » فسكت الجميع فجأة مذعورين ، وبدا على العيون القلق ، ولم يدر أصحابها إلى أين ينظرون . وشحب المدير بغتة ، وكف عن النضال ، ووقف ممسكا بمعصميها ومحدقاً فيها مذعوراً . قالت : « نعم ، طفل — وكنت له أماً . » وقد ألقت هذا الكلام الفاحش كأنها تتحدى الحاضرين فى ثورتهم الصامتة ، وأفلتت منه بغتة وغطت وجهها بيديها وأخذت تنتحب من شدة الخجل . ثم قالت : « لم يكن خطئى ياتوما كين لأنى كنت دائماً أدرب نفسى . أليس كذلك ؟ كنت دائماً أفعل ذلك ولست أعرف كيف . . . آه لو علمت يا توما كين شناعة . . . ولكنه كان لى برغم ذلك سلوى . » والتفتت نحو الباب ونادت : « جون ، جون ! »

فدخل فى الحال ، ووقف داخل الغرفة برهة ، وتلفت حوله ، ثم عبر الغرفة مسرعاً فى خُفَّيه المصنوعين من جلد الغزال فلم يحدث صوتاً ما ، وجثا على ركبتيه أمام المدير ، وقال فى صوت واضح : « أبى ! »

وهذه الكلمة البذيئة المضحكة خففت الضغط على الأعصاب التى كانت قد توترت إلى درجة لا تحتمل (ولم تكن كلمة « الأب » فاحشة بمقدار ما كانت سخيفة سمجة ، كانت كلمة يمجها السمع من ناحية الذوق

الأدبى أكثر مما يمجها من الناحية الخلقية لأنها تدل على شئ من الابتعاد عن حمل الأطفال الذى تشمئز منه النفوس وينم عن الانحراف الخلقى) . وانفجر الحاضرون بالضحك ، ولم يكفوا عن القهقهة العالية كأن بهم مسا من جنون . إنه ينادى المدير بأبى ! أبى ! يا للعجب ! حقاً إنه لأمر لا يحتمل . وتجدد الشهيق والصياح ، وأوشكت الوجوه أن تنبسط ، وتدفق الدمع مدراراً . وانقلبت أنابيب اختبارية أخرى مليئة بالحيوانات المنوية . أبى ! عجباً !

وحملق المدير حواليه شاحب اللون ، وحشى النظرات ، وقد أحس بألم الحيرة والإذلال .

أبى ! لقد علا الضحك مرة أخرى بعدما فتر قليلا ، فوضع يديه على أذنيه وانطلق من الحجرة .

الفصل الحادى عشر

وبعد الحادث الذى وقع فى حجرة التلقيح كانت الطبقة العليا كلها فى لندن تتأجج شوقاً لرؤية ذلك المخلوق العجيب الذى جثا على ركبتيه أمام مدير التفريخ والتكييف (أو قل أمام المدير السابق ، لأن المسكين استقال فوراً بعد ذلك الحادث ولم يطأ بقدمه المركز منذ ذلك التاريخ) وركع تجاهه وناداه « بأبى » (وكانت النكتة أبرع من أن يؤمن بها السامع) أما لندا — فعلى نقيض ذلك — لم تثر اهتماماً ، ولم يشعر أحد بالرغبة فى رؤيتها . لأن وصف المرأة « بالأم » لم يعد من الفكاهة فى شئ ، إنما كان فحشاً من القول . وفوق ذلك فانها لم تكن همجية حقاً . إنما خرجت من قارورة وتكيفت كأى فرد آخر ، ولذا فلم تكن لديها آراء غريبة حقاً . ثم إن مظهر المسكينة — فوق هذا وذاك — كان أقوى الأسباب التى نفرت الناس من الرغبة فى رؤيتها . كانت بدينة ، وقد فقدت شبابها ، وفسدت أسنانها ، وتلطخت بشرتها . يا لله ! إنك لا تستطيع أن تنظر إلى قوامها دون أن تشمئز نفسك . ولذا فان خيار الناس قد صمموا ألا يشاهدوا لندا . ولندا من ناحيتها لم ترغب فى مشاهدتهم . إن العودة إلى المدنية كانت فى رأيها عودة إلى السوما ، وإلى إمكان ملازمة الفراش فى عطلة متصلة لا يعانى فيها النائم صراعاً أو نوبة قئ ، ودون أن يحس بذلك الاحساس الذى يشعر به المرء بعد أن يتناول « البيوتل » ، كأنك قمت بعمل مشين ضد الجماعة فلا

تستطيع أن ترفع رأسك مرة أخرى . أما السوما فلا تفعل شيئاً من هذا . والعطلة التى تعطيها لمن يتناولها كاملة . فاذا كان الصباح التالى غير مقبول ، فهو ليس كذلك بطبيعته ، وإنما بالمقارنة مع متع العطلة، والعلاج هو أن تكون العطلة متصلة . فكانت دائماً تضج فى شراهة تطلب المزيد وبكميات وافرة . وعارضها الدكتور شو أول الأمر ، ثم سمح لها أن تتعاطى ما تريد ، فكانت تتناول مقدار عشرين جراماً فى اليوم الواحد .

وأسر الطبيب إلى برنارد قائلا : وسيقضى عليها ذلك فى خلال شهر أو شهرين . إن مركز التنفس عندها سوف يشل يوماً ما، وتكف عن التنفس ، وتنتهى من الحياة ، وهو شئ جميل . إننا لو استطعنا تجديد الشباب لاختلف الأمر ، ولكننا لا نستطيع تجديد الشباب .

ولشد ما كانت دهشة الناس أجمعين عندما تقدم جون معترضاً (لأن لندا كانت خلال عطلة السوما فى حالة شاذة جداً) .

قال : ألستم تقصرون حياتها باعطائها هذا المقدار كله ؟

فوافقه الدكتور شو قائلا : « هذا صحيح من ناحية ، ولكننا من ناحية أخرى نطيل حياتها .» فحملق الشاب لأنه لم يدرك ما أراد الطبيب . واستمر الطبيب يقول : إن السوما قد تفقدك بضع سنوات من الزمن . ولكن هل فكرت فى الآماد الطويلة التى لا تحد والتى تعطيكها السوما خارج الزمن ؟ إن كل عطلة سومية جزء مما كان يسميه أسلافنا الخلود .

فبدأ جون يدرك ما يعنى الطبيب وقال مدمدماً : إن الخلود كان فى شفاهنا وفى أعيننا .

— ماذا ؟

— لا شئ .

واستمر الدكتور شو يقول : وأنت بالطبع لا تستطيع أن تسمح للناس أن تتسلل إلى الخلود إن كان لديهم عمل جدى لا بد لهم من أدائه . ولكن لما لم يكن لديها عمل جدى . . .

وأصر جون قائلا : و برغم ذلك فانى لا أعتقد فى صواب ذلك .

فهز الطبيب كتفيه وقال : بالطبع إذا كنت تؤثر أن تراها تصبح كالمجنونة كل الوقت . . .

واضطر جون فى النهاية إلى التسليم . وتناولت لندا نصيبها من السوما . ومن ذلك الحين بقيت فى غرفتها الصغيرة فى الطابق السابع والثلاثين من عمارة برنارد . ولزمت الفراش والراديو والتلفزيون دائران بغير انقطاع ، وعطر البتشولى يتصبب قطرات من الصنبور ، وأقراص السوما فى متناول يدها . هناك لبثت لندا ، ومع ذلك فانها لم تكن هناك البتة ، بل كانت متغيبة كل الوقت ، بعيدة جداً فى عطلة تامة ، فى أجازة فى عالم آخر ، حيث موسيقى الراديو عبارة عن تيه من الألوان الرنانة ، تيه زلق نابض ، يؤدى (بطريق ملتو جميل لا مناص منه) إلى مركز مضئ من الثقة المطلقة ؛ حيث الصور الراقصة فى صندوق التلفزيون صور لممثلين فى دار الصور المحسة الغنائية الممتعة بدرجة تفوق الوصف ؛ حيث عطر بتشولى المتقطر أكثر من عطر عادى — هو الشمس ، أو هو ألوف من السكسوفونات ، أو هو بوبى فى عشقه . بل هو أكثر من ذلك بدرجة لا تقارن ولا تحد .

وختم الدكتور شو حديثه قائلا : « كلا . إننا لا نستطيع أن نجدد الشباب . ولكننى مسرور إذ أتيحت لى هذه الفرصة لكى أرى مثلا

من الشيخوخة فى الإنسان . و إنى أشكرك كثيراً لاستدعائى . » وصافح برنارد بحرارة شديدة .

و إذن فلقد كان جون هو هدفهم الذى كانوا جميعاً يقصدون . ولما كان لا يمكن أن يرى إلا عن طريق برنارد ولى أمره المفوض ، فقد وجد برنارد أنه لأول مرة فى حياته لا يعامل معاملة عادية فحسب ، ولكنه يعامل كشخص ذى أهمية بارزة . فلم يعد أحد يذكر الكحول فى دمه ، ولم يعد أحد يسخر من مظهره الشخصى . وأصبح هنرى فستر — على غير عادته — يتودد إليه ، وقدم له بنتو هوفر هدية من ست لفافات من لبان الهرمونات الجنسية ، وأتاه مساعد مدير المصائر وتطفل عليه بشكل زرى يطلب دعوته إلى إحدى حفلات برنارد المسائية . أما عند النساء فلم يكن على جون إلا أن يشير أشارة طفيفة إلى إمكان دعوتهن فيظفر بمن يحب .

وصرحت فانى وهى تشعر بشعور الظافر : إن برنارد قد دعانى إلى لقاء الهمجى يوم الأربعاء المقبل .

فقالت لينا : إنى جد مسرورة . ولعلك تعترفين الآن أنك كنت مخطئة فى تقدير برنارد . ألا ترينه عذباً حقاً ؟

فأومأت فانى برأسها وقالت : ولا بد أن أقر أنى دهشت جداً وسررت .

وتودد إلى برنارد عدد لا يحصى من الوجهاء—منهم رئيس القوارير ومدير المصائر ، وثلاثة من وكلاء مساعدى الملقحين العامين ، وأستاذ الصور المحسة فى كلية هندسة العواطف ، وعميد معهد الغناء الجمعى بوستمنستر ، ومراقب عمليات بوكانوفسكى .

وأسر إلى هلمهلتز واطسن قائلا: وكان عندى ست بنات فى الاسبوع الماضى : واحدة يوم الاثنين ، واثنان يوم الثلاثاء ، واثنتان أخريتان

يوم الجمعة ، وواحدة يوم السبت . ولو توفر لى الوقت أو لو كان لدى الميل لظفرت على الأقل باثنتى عشرة بنتاً غير هؤلاء كن يتحرقن شوقاً . . .

وأصغى هلمهلتز إلى مفاخرته فى صمت يدل على عدم الرضا والاكتئاب مما جعل برنارد يستشعر منه الاساءة .

فقال : أنت حسود .

فهز هلمهلتز رأسه وأجاب بقوله : إنى حزين . وهذا كل ما فى الأمر .

وانصرف برنارد حانقاً . وصمم فى نفسه ألا يكلم هلمهلتز مرة أخرى.

ومرت الأيام ، وانتشى برنارد من اطراد النجاح ، وشعر خلال ذلك بالتوافق التام بينه وبين العالم (كما يفعل أى مخدر جيد) وكان حتى آنئذ ساخطاً عليه . ورضى عن النظام القائم مادام يعترف له بالأهمية. غير أنه برغم ماكان بينه وبين النظام القائم من وفاق من أثر النجاح أبى أن يتخلى عن حقه الممتاز فى نقد هذا النظام . لأن النقد كان يقوى إحساسه بأهميته ويجعله يحس بالعظمة . ثم إنه كان فوق ذلك يعتقد باخلاص أن هناك من الأمور مايستحق النقد . (وهو فى نفس الوقت يحب أن ينجح وأن يظفر بكل من يريد من البنات .) فكان برنارد يتظاهر بالخروج على التقاليد وبالنقد أمام أولئك الذين يتوددون الآن إليه من أجل الهمجى . وكان الناس يصغون إليه مؤدبين . ولكنهم يهزون رؤوسهم من خلفه ويقولون : « إن مصير ذلك الشاب سوف يكون سيئاً » متنبئين وهم واثقون أنهم هم أنفسهم سوف يعملون بأشخاصهم فى الوقت المناسب على سوء المصير . ثم يقولون : « إنه لن يجد همجياً آخر يعينه على النجاة مرة أخرى . » ولكن الهمجى الأول كان على أية حال لا يزال ماثلا أمامهم ، فكانوا متأدبين . وماداموا

كذلك فقد كان برنارد يحس بعظمته الشامخة . كان يحس بالعظمة كما يحس بنشوة الغرور وكأنه أخف من الهواء .

وقال برنارد مشيراً إلى أعلى : أخف من الهواء .

وتلألأ منطاد مصلحة الجو الأسير وردى اللون فى ضياء الشمس كأنه لؤلؤة فى السماء ، تعلو عليهم علواً كبيراً .

وجاء فى أوامر برنارد أن : . . . هذا الهمجى يجب أن يطلع على الحياة المتحضرة من جميع وجوهها . . . .

وكان الهمجى آنئذ يشرف من أعلى على هذه الحياة ، ويلقى عليها نظرة عامة من رصيف برج تشيرنج ـ ت. وقام بارشاده ناظر المحطة وعالم الطبيعيات المقيم . ولكن برنارد هو الذى تكفل بالقسط الأوفر من الحديث . وكان سلوكه — فى نشوته — كأنه على الأقل مراقب عالمى زائر — أخف من الهواء .

وسقط من السماء صاروخ بومباى الأخضر ، ونزل منه الركاب . وأطل من النوافذ الجانبية لإحدى غرف الصاروخ ثمانية توائم درافيديين (أى غير آريين) على صورة واحدة ، يلبسون الكاكى — وأولئك هم خدام السفينة الطائرة .

وقال ناظر المحطة مؤكداً : ألف ومائتان وخمسون كيلو متراً فى الساعة . ما رأيك فى هذا أيها الهمجى ؟

وكانت تلك السرعة مدهشة حقاً فى رأى جون غير أنه قال : لكن أرييل يستطيع أن يطوق الأرض فى أربعين دقيقة .

وكتب برنارد فى تقريره لمصطفى مند : « من العجيب أن الهمجى يبدى دهشة قليلة جداً — أو رهبة — من مخترعات المدنية . ولا شك

أن هذا من ناحية يرجع إلى أنه سمع لندا ام . . . تتحدث عنها » .

(وقطب مصطفى مند جبينه وقال : هل يحسب هذا الغبي أن التقزز يبلغ بى حد الاشمئزاز من رؤية الكلمة مكتوبة بتمامها ؟)

« ويرجع من ناحية أخرى إلى تركيزه اهتمامه فيما يسميه « الروح » التى يصر على اعتبارها كائناً مستقلا عن البيئة الطبيعية ، فى حين أنى حاولت أن أفهمه . . . »

وغض المراقب طرفه عن العبارات التالية ، وأوشك أن يقلب الصفحة باحثاً عن شئ مادى أكثر تشويقاً ، عندما وقعت عيناه على سلسلة من العبارات البالغة فى الغرابة . فقرأ مايلى : « . . . . ولكنى أقر أنى أوافق الهمجى على أن الطفولة فى حياة المدنية يسيرة جداً ، أو أنها — على حد تعبيره — تكلفنا أقل مماينبغى ، وأحب أن أنتهز هذه الفرصة لأنبه سيادتكم إلى أن . . . . »

وتحول غضب مصطفى مند فى الحال إلى مرح شديد . فان تعرض هذا المخلوق لمحاضرته — هو بالذات — بشأن النظام الاجتماعى كان حقاً مما يدعو إلى السخرية . لابد أن يكون الرجل قد أصيب بمس من جنون. وتحدث إلى نفسه قائلا : « ينبغى لى أن ألقى عليه درساً. » ثم طرح رأسه إلى الوراء وقهقه ضاحكا . ولم يستطع — فى تلك الآونة على الأقل — أن يلقى ذلك الدرس .

كان مصنعاً صغيراً لأجهزة الضوء فى الطائرات ، وهو فرع من شركة الإعداد الكهربائى . وقابلهم على السطح نفسه كبير الفنيين ومدير العنصر الانسانى (لأن خطاب التوصية الدورى الذى حرره المراقب كان له تأثير سحرى) وهبطوا إلى المصنع فى الطابق السفلى .

وأخذ مدير العنصر الانسانى يشرح لهم . قال : إن كل عملية تتم على قدر المستطاع بمجهود جماعة واحدة بوكانوفسكية .

وكان ثلاثة وثمانون شخصاً سوداً فطس الأنوف دقاق الرؤوس من طراز (ء) يقومون فعلا بعملية ضغط البرودة . وكان يدير الآلات الست والخمسين ذوات المغازل الأربعة التى تتقنق وهى تسير ستة وخمسون شخصاً من طراز (ح) الأشقر ذى الأنف الأقنى . وكان يشتغل فى المسبك مائة شخص وسبعة من السنغاليين من طراز (ه) الذى تكيف بالحرارة وكان يقطع اللوالب ثلاثة وثلاثون انثى من طراز (ء) ، من ذوات الرؤوس الطويلة واللون الرملى والأحواض الضيقة ، طول كل منهن متر وتسعة وستون سنتيمتراً ، لا يزيد على ذلك ولا ينقص أكثر من عشرين مليمتراً . وفى حجرة الاجتماع كان يضم المحركات الكهربائية بعضها إلى بعض مجموعتان من الأقزام من طراز (+ ح) . ومنضدتا العمل المنخفضتان متقابلتان ، يزحف بينهما حامل عليه أشلاء متناثرة ؛ وهنا يجابه سبعة وأربعون رأساً أشقر اللون سبعة وأربعين رأساً أخرى سمراء ، وسبعة وأربعون أنفاً أفطس سبعة وأربعين أنفاً مدبباً ، وسبعة وأربعون ذقناً متراجعة سبعة وأربعين ناتئة . وكان يفحص الآلات الكاملة ثمانى عشرة بنتاً فى صورة واحدة ، ذوات شعر مجعد ، سمراوات ، يلبسن زى (ح) الأخضر ، ويجمعها فى الأقفاص أربعة وثلاثون شخصاً ، قصار السوق، أيسرين ، ذكوراً ، من طراز (— ء) ، ويحملها فى عربات تنتظرها وفى سيارات للنقل ثلاثة وستون شخصاً ، زرق العيون ، يلبسون الكتان ، ذوى بشرات منقوطة ، ومن طراز (ه) ، أنصاف معتوهين .

ووجد الهمجى أن ذاكرته اللعينة قد ذكرته بكلمات ميراندا :

« ما أعجب هذا العالم الجديد الذى يحتوى على أمثال هؤلاء الناس ».

وختم مدير العنصر الانسانى كلامه وهم يخرجون من المصنع قائلا: وإننى أؤكد أننا لا نكاد نجد مشقة مع العمال من أى نوع كان. إننا نجد دائماً . . .

ولكن الهمجى اعتزل رفاقه بغتة ، وكان يتهوع بعنف خلف مجموعة من الأكاليل ، كأن الأرض كلها طائرة هبطت فى جيب من الهواء .

وجاء فى تقرير برنارد أن الهمجى يأبى أن يتناول السوما ، وهو فى نكد شديد لأن المرأة لندا، أمه . . . ، فى عطلة دائمة. ومما يجدر ذكره أن الهمجى ، برغم شيخوخة أمه . . . وبشاعة مظهرها القصوى ، كثيرا ما يذهب لزيارتها ، والظاهر أنه شديد الولع بها . وهو مثال شائق للطريقة التى يمكن أن يتم بها التكييف فى سن باكرة لتعديل الدوافع الطبيعية ، بل لنقضها نقضاً تاماً . (والدافع فى هذه الحالة هو النفور من الأشياء الكريهة .)

وهبطوا فى ايتن فوق سطح المدرسة العليا . وفى الجانب الآخر من فناء المدرسة كان برج لوبتن بطوابقه الاثنين وخمسين يتألق ناصع البياض فى ضياء الشمس . والكلية إلى يسارهم ، ومعهد الغناء الجمعى على يمينهم ، ترتفع فيها أكوام هائلة من الأسمنت المسلح بالحديد والزجاج الذى يمكن للأشعة فوق البنفسجية أن تتخلله . وفى وسط الفناء المستطيل يقوم تمثال فورد العجيب العتيق مصنوعاً من الصلب المصبوغ بالكروم .

واستقبلهم الدكتور جافنى مدير المدرسة والمس كيت كبيرة المعلمات وهم يخرجون من الطائرة .

وألقى الهمجى هذا السؤال متخوفاً : « هل عندكم توائم كثيرة هنا ؟ » وذلك عندما بدأوا طوافهم للتفتيش .

فأجابه المدير : « كلا . إن ايتن محجوزة كلها للبنين والبنات من الطبقة العليا أبناء البيضة الواحدة التى تنتج فرداً بالغاً واحداً . وهذا يجعل التربية عسيرة بطبيعة الحال . ولكن ذلك أمر لا مناص منه لأن طلبة هذه المدرسة سوف يُدعون لتحمل التبعات ولمعالجة مشاكل غير منظورة .» ثم تنهد .

وفى تلك الأثناء أحس برنارد بميل شديد نحو مس كيت . وكان يقول لها : « إذا فرغت فى أحد أيام الاثنين أو الأربعاء أو الجمعة مساء . . . » وهز إبهامه نحو الهمجى وقال : اعلمى أنه عجيب ، وغريب .

وتبسمت مس كيت (وكانت بسمتها فاتنة فى عينه) وقالت : « شكراً لك . يسرنى أن أحضر إحدى حفلاتك » . وفتح المدير الباب .

إن خمس دقائق فى غرفة الدرس تلك الخاصة بالطلبة من طراز (+ + ا) قد حيرت جون قليلا ما .

وأسر إلى برنارد سائلا: «ماهى مبادئ النسبية ؟ » وحاول برنارد أن يشرح له ماهى ، ثم عدل عن الشرح واقترح زيارة غرفة دراسية أخرى .

وسمعوا من خلف باب فى الدهليز الذى يؤدى إلى حجرة الجغرافيا للطلبة (— ب) صوتاً عالياً يرن منادياً : « واحد ، اثنين ، ثلاثة ، أربعة » ثم ينادى بعد ذلك بصوت يدل على القلق والتعب : « عودوا كما كنتم » .

فشرحت لهم كبيرة المعلمات ذلك قائلة : « هذا تدريب مالتسى .

أن أكثر بناتنا خنات بطبيعة الحال . وأنا نفسى خنثى .» وابتسمت لبرنارد ثم قالت : ولكن لدينا زهاء ثمانمائة فرد غير معقمين بحاجة إلى تدريب مستمر .

وعرف جون فى حجرة الجغرافيا للطلبة (— ب) إن « منطقة المتوحشين مكان لا يستحق تكاليف التمدين نظراً للظروف المناخية أو الجيولوجية غير الملائمة ، أو لفقر الموارد الطبيعية » . وسمع طقة خفيفة أظلمت الغرفة بعدها . وبغتة ظهرت على الستار فوق رأس الأستاذ صور « التائبين » فى أكوما سجداً أمام العذراء مولولين — كما سمعهم جون من قبل — ومعترفين بآثامهم أمام المسيح المصلوب وأمام تمثال نسر بوكونج . وحق لشباب ايتن أن يقهقهوا عندئذ ضاحكين . ونهض التائبون على أقدامهم وهم لا يزالون يولولون ، ونضوا ثيابهم الخارجية وبدأوا يضربون أنفسهم بسياط معقدة ضربات متواليات. وتعالى الضحك حتى لم تعُد أناتهم المسجلة بتمامها تبلغ الأسماع .

وسأل الهمجى فى حيرة المتألم : ولكن لماذا يضحكون ؟

والتفت المدير نحوه بوجه ارتسمت عليه ابتسامة عريضة قائلا : لماذا ؟ لأن هذا أمر غاية فى الغرابة .

وفى ضوء خافت كضوء السينماتوغراف تجرأ برنارد على حركة ما كان فى الماضى لا يجسر على أدائها حتى فى الظلام الدامس . ذلك أنه — وقد شجعته أهميته الجديدة — طوق بذراعه خصر كبيرة المعلمات. وطاوعته وتثنى عودها . وأوشك أن يختطف منها قبلة أو اثنتين وقرصة خفيفة حينما طقطقت النوافذ ثانية وهى تنفتح .

فقالت مس كيت : يحسن أن ننصرف وسارت نحو الباب .

وقال المدير بعد لحظة : وهذه هى غرفة مراقبة التعليم بالايحاء .

وكانت مئات صناديق الموسيقى المركبة — وقد اختصت كل غرفة من غرف النوم بواحد منها — مصفوفة على الرفوف حول ثلاثة من جدران الغرفة . وعلى الجدار الرابع لفائف من الورق عليها خطوط صوتية وقد وضعت فى عيون وطبعت عليها الدروس الايحائية المختلفة .

وقاطع برنارد الدكتور جافنى قائلا : إنكم تدسون لفافة الورق هنا، وتضغطون على هذا المفتاح إلى أسفل . . . .

فصححه المدير مغضباً وقال : كلا . لا تضغط على هذا المفتاح .

— إذن فهو هذا . ثم تحل اللفافة . وتحوّل خلايا السلنيوم الهزات الضوئية إلى موجات صوتية ، ثم . . .

وختم الدكتور جافنى حديثه قائلا : وهذا كل مافى الأمر .

وسأل الهمجى وهم يسيرون فى طريقهم إلى معامل الكيمياء الحيوية بجوار مكتبة المدرسة . قال : « هل يقرأون شكسبير . » فقالت كبيرة المعلمات وقد اعتراها الخجل : كلا بالتأكيد .

وقال الدكتور جافنى : إن مكتبتنا لا تحتوى إلا على المراجع . فاذا أراد شبابنا الترفية تلمسوه فى دور الصور الحسة . إننا لا نشجعهم على الاعتكاف معتزلين أثناء اللهو .

وعندئذ انزلق إلى جوارهم على الطريق المزجج خمس سيارات كبيرة تحمل عدداً من البنين والبنات يلقون الأناشيد أو يتعانقون صامتين .

وكان برنارد يسر همساً إلى كبيرة المعلمات يحدد معها موعداً للقاء فى ذلك المساء ، عندما قال الدكتور جافنى : إنهم عائدون الآن من حمأة إحراق الأجساد . إن تكييف الموت يبدأ بعد ثمانية عشر شهراً .فيقضى كل طفل صغير صباحين من كل أسبوع فى مستشفى الموتى . هناك توجد

أحسن اللعب وتقدم إلى الأطفال الشكولاتة بالقشدة فى أيام الموت . ويتعلمون أن يتقبلوا الموت كأنه أمر طبيعى .

وعلقت كبيرة المعلمات على ذلك مبدية أستاذيتها وقالت : كأية عملية فسيولوجية أخرى .

فى الساعة الثامنة عند سافوى . وتم الاتفاق على كل شئ .

وفى طريق عودتهم إلى لندن وقفوا عند مصنع شركة التلفزيون فى برنتفورد . وسألهم برنارد : هل تسمحون بالانتظار هنا لحظة حتى أذهب وأتحدث بالتلفون ثم أعود ؟

وانتظر الهمجى مراقباً . وكان عمال النهار الأساسيون ينصرفون من العمل آنئذ . وجمهور من عمال الطبقة السفلى يصطف واحداً فى إثر الآخر أمام محطة الترام الذى يسير على قضيب واحد سبعمائة أوثمانمائة رجل وامرأة من (ح ، ء ، ه) يشتركون جميعاً فيما لا يزيد عن اثنتى عشرة صورة مختلفة من صور الوجوه والقامات . وقد أمد العامل المختص بحجز المحلات لكل منهم — وهم يحملون تذاكرهم — صندوقاً صغيراً من الورق الغليظ يحتوى على حبوب للدواء . وكان الصف الطويل من الرجال والنساء يتحرك إلى الأمام ببطء كما تتحرك الدودة .

ولما عاد إليهم برنارد استفسر منه الهمجى — وقد تذكر قصة « تاجر البندقية » — عما بتلك الصناديق .

فأجابه برنارد بشئ من الغموض قائلا : « ذلك مقرر السوما اليومى . » ويرجع ذلك الغموض إلى أنه كان يلوك فى فمه قطعة من لبان بنتو هوفر . ثم قال : إنهم يتناولونها عقب انتهائهم من العمل . أربعة أقراص زنة الواحد منها نصف جرام ، وست يوم السبت .

وتأبط ذراع جون بعطف شديد وسارا معاً عائدين نحو الطائرة .

وأتت لينينا إلى غرفة التغيير وهى تغنى .

قالت فانى : يبدو لى أنك فى نشوة من سرور .

وأجابت قائلة : « نعم إنى جد مسرورة . » وزرت ثيابها ثم قالت : « لقد تحدث إلىّ برنارد بالتلفون منذ نصف ساعة . » وزرت زرين وبرز ساقاها من سروالها القصير ، ثم قالت : « إن لديه موعداً لم يكن يتوقعه . » وزرت زراً آخر « وسألنى إن كنت أستطيع أن أصحب الهمجى إلى دار الصور المحسة هذا المساء . فلابد أن أطير . » وهرولت نحو الحمام .

وقالت فانى محدثة نفسها وهى تراقب لينينا فى ذهابها : إنها فتاة محظوظة!

ولم يكن فى تعقيبها شئ من الحسد ، وإنما كانت فانى — وهى تلك الفتاة الطيبة — تقرر حقيقة واقعة. أجل لقد كانت لينينا سعيدة الحظ. كانت سعيدة لأنها ساهمت مع برنارد بنصيب وافر فى شهرة الهمجى، الواسعة ، وكانت سعيدة لأنها اشتركت بشخصها الضعيف فى إشادة المجد الرفيع الطريف الذى ساد فى ذلك الحين . ألم تطلب إليها سكرتيرة جمعية الشابات الفورديات أن تلقى محاضرة فى مغامراتها؟ ألم تُدع إلى حفلة العشاء السنوية فى نادى أفروديت؟ ألم تظهر فى الجريدة الاخبارية فى دار الصور الغنائية المحسة ؟لقد ظهرت لملايين لا تحصى من البشر فوق هذا الكوكب ، فرأوها وسمعوها وأحسوها .

ولم يكن ما أبداه الأفراد البارزون نحوها من اهتمام بأقل من ذلك دهاناً . فقد دعاها إلى العشاء وإلى الافطار السكرتير الثانى لمراقب العالم المقيم . وقضت عطلة نهاية الأسبوع مرة مع كبير قضاة الدولة، وعطلة أخرى مثلها مع كبير منشدى كنتربرى . ولم يفتر عن التكلم

معها بالتلفون مدير شركة الافرازات الداخلية والخارجية . وقد زارت دوفيل مع نائب مدير بنك أوربا .

واعترفت لفانى بقولها : « حقاً إنها لحياة عجيبة ، غير أنى لا أخلو من الشعور بأنى أظفر بهذه الخطوة على دعوى باطلة ، لأن أول ما يريدون العلم به هو — بالطبع — نوع الشعور الذى يحس به المرء إذا بادله العشق أحد المتوحشين . ولابد لى أن أقول لهم إنى لا أدرى .» وهزت رأسها ثم قالت : « وأكثرهم لا يصدقنى بطبيعة الحال ، ولكنى صادقة وكم وددت لو لم أكن .» ثم تنهدت آسفة وقالت : إنه جميل للغاية . ألست تظنين ذلك ؟

وسألتها فانى قائلة : ولكن هلا يحبك ؟

— أظن أحياناً أنه يحبنى ، وأحياناً أخرى أظن أنه لا يحبنى . إنه دائماً يبذل ما وسعه من جهد ليتجنبنى ، فيخرج من الغرفة إذا دخلتها، ولا يمسنى ، بل ولا ينظر إلى . ولكنى أحياناً عندما التفت فجأة أراه محدقاً فى ، ثم . . . .أنت بالطبع تعرفين كيف يكون مظهر الرجل إذا أحب المرأة .

نعم كانت فانى تعرف ذلك .

وقالت لينا : لست أدرك الحقيقة .

إنها لم تدرك الحقيقة ، ولم تكن متحيرة فحسب ، بل لقد كانت مضطربة كذلك .

— لأنى أنا أحبه يا فانى .

وازداد حبها له تدريجياً. والآن أتيحت لها فرصة حقيقية — كما ظنت وهى تشم رائحتها بعد الحمام . تلك فرصة طيبة ارتعدت لها فرائصها . وأخذت تنشد من فرط الطرب :

« ضمنى إليك ياحبيبى حتى أفقد صوابى
وقبلنى حتى أغيب عن رشدى
ضمنى يا حبيبى ، وترفق يا عزيزى
فالحب ممتع كالسوما » .

كان أرغن العطور يتضوع بأنغام الروائح المختلفة المنعشة المتعة— من السعتر والخزامى وحصا البان والريحان والآس وغيرها ، وتعقب ذلك ألحان جريئة من مفاتيح الطيب والعنبر ، ثم يعود الأرغن إلى نشر عبير الصندل والكافور والأرز والبرسيم المحصود من عهد قريب (ويتخلل ذلك بين الفينة والفينة نشاز طفيف من رائحة حلو الكلى ، ونفحة خفيفة من روث الخنزير) . ثم يعود إلى العطور الخفيفة التى بدأت بها القطعة العطرية . وتلاشت نغمة السعتر الأخيرة ، وأظهر الجميع استحسانهم ، وأشعلت الأضواء . وفى أثناء عزف آلة الموسيقى المركبة بدأت تنحل لفافة الورق التى ارتسمت عليها الخطوط الصوتية. وامتلأ الجو الآن بالثالوث الصوتى الرخيم الذى يتألف من الكمان القوى والكمان الأجوف العظيم والمزمار الطريف . وعزفت الموسيقى ثلاثين أو أربعين نغمة . وفى هذا الجو الموسيقى الآلى ، أخذ صوت أرق من صوت الإنسان يتغنى . وكان الصوت يخرج من الحلق حيناً ، ومن الرأس حيناً آخر ، أجوف كالناى مرة ، ومشبعاً بالنغمات المؤتلفة الشائعة مرة أخرى . وهو يتدرج بغير عناء من نغمة جاسبارد فرستر المنخفضة التى تقع على حافة الأنغام الموسيقية إلى النغمة العالية التى ترتفع كثيراً عن أعلى « ح » التى لم يتفوه بها بدقة ووضوح غير لوكريزيا آجوجارى وحدها مرة من بين المغنين جميعاً فى خلال العصور التاريخية كلها

(وذلك فى عام ١٧٧٠ فى أوبرا الدوق بارما ، وقد دهش لها موزار دهشة كبرى .)

واستقر الهمجى ولينينا فى مقعدين منتفخين بالهواء يستنشقان ويسمعان ثم جاء دور العيونْ والجلد .

وأطفئت أنوار البيت وظهرت فى الظلام أحرف نارية بارزة كأنها معلقة فى الفضاء لا ترتكز على شئ . وقد كتبت بهذه الأحرف بخط عريض « ثلاثة أسابيع بالطائرة . دار للصور المحسة المجسمة ذات الغناء الممتاز ، والنطق الصناعى ، والألوان . مصحوبة بأرغن العطور فى آن واحد » .

وهمست لينينا قائلة : اقبض على هذه العقد المعدنية المتصلة بذراعى مقعدك ، وإلا ما أحسست بالآثار الملموسة .

وفعل الهمجى كما أمرت .

وعندئذا ختفت تلك الأحرف النارية ، واظلم المكان ظلاماً تاماً نحو عشر دقائق ، ظهرت بعدها فجأة صورة مجسمة لزنجى ضخم مع امرأة ذهبية الشعر شابة صغيرة الرأس من طراز (+ ب) ، وهما متعانقان . والصورة تبهر النظر ، وهى أشد تجسيما منها لو كانت حية فعلا دماً ولحم بدرجة لا تقارن ، واقعية أكثر من الواقع بدرجة كبيرة .

وذعر الهمجى ، وكان الإحساس على شفتيه ! ورفع إحدى يديه إلى فمه وسكتت الدغدغة حيناً فأرخى يده على العقدة المعدنية ، فبدأت من جديد . وأرغن العطور فى تلك الأثناء يتنفس عن المسك النقى . . وفى النهاية ترنمت حمامة من صندوق صوتى مرددة هذا الصوت « أوه ، أوه » وجاوبتها نغمة محزنة أعمق من النغمة الافريقية تتذبذب اثنتين وثلاثين مرة فى الثانية فقط مرددة هذا الصوت : « آه ، آه » .

وعادت الشفاه المجسمة تردد الصوت الأول . ورددت مرة أخرى المناطق الحسية فى وجوه ستة آلاف متفرج فى الهمبرا سروراً كهربياً لا يحتمل ، عندما سمعوا هذا الصوت « أوه . . . »

وكان موضوع القصة المصورة غاية فى البساطة . فقد حدثت للزنجى حادثة فى إحدى الطائرات وسقط على رأسه . وأحست الجباه بوقع الصدمة . وعلت أصوات المتفرجين مرددين هذه الأصوات : « أوه ، آه » — وذلك كله بعد بضع دقائق من « الأوهات والآهات » الأولى . (وبعدما تغنت فرقتان معاً بنشيدمن الأناشيد ، وبعدما تمثل دور قصير من أدوار الحب فوق جلد الدب المشهور ، وكل شعرة فيه تُحس وحدها واضحة — ولقد أصاب مساعد مدير المصائر كل الإصابة .)

وحوّرت الصدمة تكييف الزنجى كل التحوير . فاشتد ميله إلى الفتاة الشقراء من طراز (ب) وجن بها . واحتجت ، وأصر على ميله . وظهر له منافس ، تشاجر معه وطارده وتهجم عليه . وأخيراً اختطفت الفتاة الشقراء وأثارت بذلك هزة كبرى . وأغتصبت الشقراء (ب) وطارت نحو السماء وبقيت هناك محلقة ، ولبثت ثلاثة أسابيع فى جدل وحشى غير اجتماعى مع الرجل الأسود المجنون . وأخيراً بعد سلسلة كاملة من المغامرات وألعاب بهلوانية كثيرة نجح ثلاثة شبان من طراز (ا) فى انقاذها . ونُقل الزنجى سريعاً إلى مركز لاعادة تكييف البالغين . وانتهت القصة المصورة انتهاء سعيداً لائقاً بعدما أصبحت الشقراء(ب) سيدة على منقذيها الثلاثة . وقد قاطعوا أنفسهم لحظة كى ينشدوا رباعية مركبة مصحوبة بأركسترا رفيعة كاملة ورائحة الجاردينا على أرغن العطور . ثم ظهر جلد الدب للمرة الأخيرة ، ووسط دوى السكسوفونات تلاشت فى الظلام آخر قبلة مجسمة ،وبادت

الدغدغة الكهربية الأخيرة على الشفاه كما تبيد السوسة وهى ترتجف. وأخذت تضعف وتفتر حتى سكنت فى النهاية سكوناً تاماً .

ولكن هذا الإحساس لم يفن عند لننا كل الفناء . فان أثره مابرح يهتز على شفتيها ، وما فتئ يسرى فى جلدها محدثاً رعدة لطيفة من الشوق والسرور ، حتى بعد أن أشعلت الأضواء ، وهم يخطرون مبطئين مع الجمهور صوب المصاعد . واحمرت وجنتاها ، ولمعت عيناها كقطرات الندى ، وتنفست الصعداء . ثم أمسكت بذراع الهمجى وضمتها — وهى مرتخية — إلى جنبها . وأطل عليها لحظة ، وهو شاحب اللون ، متألم ، متشوق ، وخجل من تشوقه . أنه ليس جديراً . . . .والتقت عيونهما برهة من الزمن . ورأى فى عينيها كنوزاً موعودة ! أنهما ينمان عن مزاج يصح أن تفدى به الملكات . وأشاح ببصره مسرعاً ، وأطلق ذراعه الحبيسة . وانتابه خوف غامض خشية أن تكف عن ظهورها بمظهر يشعره بأنه غير جدير بها .

قال : « ولست أظن أنه ينبغى لك أن تنظرى إلى الأشياء بهذه العين . » وقد حاول فى الحال أن ينسب القصور عن الكمال فى الماضى أو احتمال ذلك فى المستقبل إلى الظروف المحيطة دون لينينا نفسها .

— أى أشياء ؟

— أمثال هذه القصة المصورة المريعة .

ودهشت لينينا حقاً وقالت : مريعة ؟ إنى كنت أحسبها جميلة .

فقال محنقاً : لقد كانت وضيعة غير شريفة .

وهزت رأسها وقالت : « لست أعرف ماتعنى . » وتعجبت من شدة غرابته ، وتساءلت لماذا يشذ ويفسد الأشياء .

وفى الطائرة التى استأجراها لم يكد ينظر إليها . بل لقد جلس

منصرفاً عنها فى صمت متقيداً بمواثيق قوية لم ينطق بها أحد ، ومطيعاً لقوانين لم تسر من زمان بعيد . وأحياناً يهتز جسمه كله بغتة جافلا جفولا عصبياً ، كأن أصبعاً يضرب على وتر مشدود يكاد ينقطع من التوتر.

وهبطت الطائرة على سطح بيت لينينا . وابتهجت وهى تخرج من الطائرة لأن الرحلة قد بلغت نهايتها . وكأن رفيقها كان غريب الأطوار حتى اللحظة الأخيرة . ووقفت تحت مصباح وتطلعت إلى مرآة يدوية . وأخيراً عادت من رحلتها ! وكان أنفها يلمع قليلا فنثرت فوقه مسحوقاً دقيقاً من قرص ناعم كانت تحمله من أجل ذلك . وانتهزت فرصة الفترة التى كان يدفع فيها أجر الطائرة ونثرت المسحوق فوق أنفها :وأطفأت بريقه ، وفكرت فى نفسها : « إنه جميل للغاية . وليست به حاجة إلى الخجل مثل برنارد . ومع ذلك . . . فلو كان أى رجل آخر غيره لفعل الفعلة من زمان طويل . والآن لقد انتهت الرحلة. » وطالعتها . بغتة ابتسامة من ذلك الجانب من صورة وجهها الذى انعكس فى المرآة الصغيرة المستديرة .

وسمعت صوتاً مختنقاً خلفها يقول : « مساء الخير . » والتفتت لينينا خلفها ، فاذا به واقف لدى باب الطائرة وعيناه مثبتتان محلقتان . وكان محدقاً فيها طوال المدة التى كانت تمسح فيها أنفها بالمسحوق ، منتظراً ولكن لماذا ؟ أو متردداً ومحاولا أن يصل إلى قرار ، وسابحاً كل الوقت فى الفكر ، ولم تستطع أن تتصور ماذا عسى أن تكون تلك الأفكار الشاذة . وكرر قوله « مساء الخير يا لينينا . » وتقلص وجهه تقلصاً غريباً وهو يحاول الابتسام .

— ولكن ، جون . . . لقد كنت أحسب أنك . . . أعنى . . . ألست . . . ؟

وأغلق الباب وانحنى إلى الأمام كى يُسرّ إلى السائق بكلمة . ثم انطلقت الطائرة فى الفضاء . وأطل الهمجى من النافذة التى فى أسفلها فأمكنه أن يرى وجه لينينا وقد التفتت إلى أعلى ، شاحباً فى ضوء المصابيح الضارب إلى الزرقة ، وثغرها منفرج وهى تنادى ، وقد تضاءل حجمها وهو ينظر إليه من علٍ . وأخذ يغيب عنه شيئاً فشيئاً ، وبدا له السطح المربع وهو يتناقص حجماً كأنه يهوى فى الظلام .

وبعد خمس دقائق كان فى غرفته . وأخرج مجلده من مخبأه وقد قرضته الفيران ، وقلب صفحاته الملوثة المتغضنة كأنه يتصفح كتاباً مقدساً ، وشرع يقرأ مسرحية « عطيل » . وتذكر أن عطيلا يشبه بطل « ثلاثة أسابيع فى الطائرة » — كلاهما أسود .

وعبرت لينينا السطح تقصد المصعد وهى تجفف عينيها . وفى طريقها إلى أسفل نحو الطابق السابع والعشرين أخرجت زجاجة السوما . وقررت أن جراماً واحداً لا يكفى ، فان الكارثة التى ألمت بها أفدح من أن يزيلها جرام واحد . ولكنها إن تناولت جرامين تعرضت لتأخير يقظتها فى صبيحة اليوم التالى . فاتخذت حلا وسطاً ، وهزت صندوق السوما وأفرغت منه فى راحة يسراها بعدما جعلتها شبيهة بالكأس ثلاثة أقراص زنة الواحد منها نصف جرام .

الفصل الثانى عشر

واضطر برنارد إلى الصياح خلال الباب المغلق ، ولكن الهمجى لم يفتحه .

— إنهم جميعاً هناك بانتظارك .

فرد عليه صوت خافت خلال الباب قائلا : فلينتظروا .

— ولكنك تعرف جيداً يا جون أننى دعوتهم عمداً للقائك . (وكان من العسير أن يكون حديثه مغرياً وهو يتكلم بأعلى صوته .)

— كان ينبغى لك أن تسألنى أولا إن كنت أريد أن أقابلهم .

— إنك كنت دائماً مقدّماً يا جون .

— ومن أجل هذا بالذات لا أحب أن أعود .

فتودد إليه برنارد وجأر قائلا : تعال كى تسرنى ، هلا تحب سرورى ؟

— كلا

— هل أنت جاد ؟

— نعم .

وولول برنارد يائساً وقال : ولكن ماذا عساى صانع ؟

وصرخ جون من الداخل محنقاً وقال : اذهب إلى سقر .

وكان الدمع ينهمر من عينى برنارد وهو يقول : ولكن كبير منشدى كانتربرى هناك الليلة .

ولم يستطع الهمجى أن يعبر تعبيراً دقيقاً عن إحساسه تجاه كبير المنشدين إلا بلغة زونى فقال : « آى يا تاكوا ! » وبعد فترة عنّ له أن يقول : « هانى ! » ثم قال بوحشية وازدراء : « ستزايسد تسارنا . » وبصق على الأرض ، كما يفعل بوبى لو كان فى موضعه .

واضطر برنارد فى نهاية الأمر إلى أن يتسلل — وهو منكمش — إلى مسكنه ، ويخبر الجماعة القلقة أن الهمجى لن يظهر ذلك المساء . وقوبل الخبر بالغضب الشديد . وحنق الرجال لأن هذه الخدعة اضطرتهم إلى التأدب فى السلوك مع هذا الشخص الزرىّ صاحب السمعة المنفرة والآراء المتزندقة . وكلما علا الواحد منهم فى سلم المراكز الاجتماعية زاد استياؤه .

ولبث كبير المنشدين يكرر قوله : كيف تسخرون منى أنا هكذا !

أما النسوة فقد أحسسن وهن حانقات أن مخلوقاً من طراز (— ح) الجثمانى — رجلا قميئاً تعساً صُب الكحول فى قارورته خطأ — قد خدعهن بالمظاهر الكاذبة . فهاج النسوة وعلا صوتهن بالاحتجاج . وكانت كبيرة المعلمات أشدهن شعوراً بالإيذاء .

وسكتت لينينا وحدها عن الكلام . وانتحت زاوية من المكان ، وعزلتها عمن أحطن بها عاطفة لم يشاركنها الإحساس بها . وشحب لونها وخيمت على عينيها الزرقاوين سحابة من الغم الذى لم تعهده من قبل . لقد أتت إلى هذا الاجتماع يملأ نفسها شعور غريب من الجذل والشوق . كانت تحدث نفسها وهى تدخل الغرفة وتقول : سوف أراه بعد بضع دقائق ، وأتحدث إليه ، وأخبره أنى أحبه أكثر من أى شخص آخر عرفت (وقد جاءت بهذا العزم المصمم) . وربما يقول لى بعد هذا . . . ماذا يقول ؟ لقد تدفق الدم فى وجنتيها .

— لماذا كان غريباً جداً تلك الليلة بعد الذى شهدنا فى دار الصور الحسة ؟ كان غريباً جداً . ولكنى برغم هذا على ثقة تامة بأنه يحبنى . إنى واثقة . . .

وفى تلك اللحظة ألقى برنارد تصريحه بأن الهمجى لن يحضر الجمعية .

فشعرت لينينا فجأة بكل الاحساسات التى تمر بالمرء عادة عند بدء علاج عاطفة عنيفة من العواطف المستحدثة — أحست بفراغ مريع ، وبخوف تتقطع منه الأنفاس ، وبالقرف الشديد . وكأن قلبها قد سكتت نبضاته .

وحدثت نفسها قائلة : « ربما كان ذلك لأنه يحبنى . » وقد تحول هذا الشك بغتة إلى يقين . إن جون قد أبى الحضور لأنه لم يحبها . إنه لم يحبها . . .

وكانت كبيرة معلمات ايتن تقول لمدير الاحراق واسترداد الفسفور : عندما أفكر أنى فعلا . . .

وسمع صوت فانى كراون وهى تقول : نعم إن رواية الكحول صادقة جداً . إن إحدى صديقاتى كانت تعرف شخصاً ممن كانوا يشتغلون فى مخزن الأجنة فى ذلك الحين . وقد ذكرت ذلك لصاحبتى ، وقالت لى صاحبتى . . .

وقال هنرى فستر وهو يعطف على كبير المنشدين : الأمر سيئ للغاية . وقد يشوقك أن تعرف أن مديرنا السابق أوشك أن ينقله إلى ايسلنده .

وكان برنارد فى نشوة من ثقة النفس ، فوخزته كل كلمة قيلت بشأنه وزعزعت تلك الثقة من نواح عدة . وأخذ يتجول بين ضيوفه شاحب اللون ثائراً مخبولا شاعراً بضعته ، يتلجلج بعبارات الإعتذار المتفككة

مؤكداً لهم أن الهمجى سيحضر قطعاً فى الاجتماع التالى ، ومتوسلا إليهم أن يتريثوا حتى يتناولوا شطيرة من الشريان السباقى وشريحة من فيتامين (ا) باتى وزجاجة من الشمبانيا الجديدة . وانكبوا على الطعام فى الحال وقد تجاهلوه ، وشربوا ، وجابهه بعضهم بالوقاحة وتحدث بعضهم إلى بعض بشأنه مسيئين إليه وصائحين كأنه لم يكن معهم .

وقال كبير منشدى كانتربرى بذلك الصوت الجميل الرنان الذى كان يلقى به الخطاب يوم الاحتفال بعيد فورد : « والآن يا رفاقى أظن أن الوقت قد حان . . . » ثم نهض وألقى كوبه وأزال بالفرجون عن صداره الأرجوانى اللزج فتات الوجبة الكبيرة التى تناولها فى غير أوانها ، ثم سار نحو الباب .

وانطلق برنارد كالسهم إلى الأمام كى يقطع عليه الطريق .

— هل لا بد لك حقاً يا كبير المنشدين . . . ؟ لا زال الوقت باكراً جداً . وكنت أتعشم أنك . . .

أجل لقد كان كبير الأمل عندما أسرت إليه لينينا أن كبير المنشدين سيلبى الدعوة إن وجهت إليه . قالت : « اعلم أنه لطيف حقاً » . وأطلعت برنارد على المشبك الصغير الذهبى على شكل T الذى أعطاه إياها كبير المنشدين ذكرى لعطلة نهاية الأسبوع التى قضتها فى معهد الغناء بمنطقته .

وذكر برنارد فى تذاكر الدعوة متفاخراً : « . . . لمقابلة كبير منشدى كانتربرى والهمجى » لكن الهمجى اختار هذا المساء دون الأمسية الأخرى جميعاً ليحبس نفسه فى حجرته ويصيح : « هانى » بل ويقول : « سنز ايسو تسانا ! » (وكان من حسن حظ برنارد أنه لا يفهم لغة زونو .) وقد انقلبت اللحظة التى كان ينتظر

برنارد أن يبلغ فيها القمة فى تاريخ حياته كلها إلى لحظة إذلال شديد .

وتلجلج وهو يكرر قوله : « لقد كنت كبير الأمل . . . » وقد رفع بصره إلى ذلك الرجل العظيم الكريم وفى عينيه دلائل التوسل والذهول .

وقال كبير المنشدين فى نغمة مرتفعة تنم عن الجد والقسوة : « صديقى الشاب . . . » ثم ساد الصمت بين الجميع : « . . . خذ عنى هذه النصيحة . » وهز أصبعه فى وجه برنارد : « . . . قبل أن يفوت الأوان . إنها نصيحة طيبة (وأصبح صوته كصوت يرتفع من بين القبور) . أحسن سلوكك يا صاح ، أحسن سلوكك أيها الشاب . » ورسم علامة T فوقه ثم انصرف . ونادى بصوت آخر : لينينا ، عزيزتى تعالى معى .

واقتفت لينينا أثره وهو يخرج من الغرفة ، مطيعة له غير باسمة ولا متغطرسة (لأنها لم تدرك ما نالها من شرف) . وتبعهم بقية الضيوف بعد فترة لا بأس بها . وأغلق آخرهم الباب محدثاً به ضجيجاً ، وبقى برنارد وحده .

فاستلقى على أحد المقاعد وقد فقد هيبته وضاعت كل ثقته فى نفسه ، وحجب وجهه بيديه وبدأ يبكى . ولكنه بعد بضع دقائق تنبه إلى فكرة طيبة وتناول أربعة أقراص من السوما .

وكان الهمجى فى غرفته بالطابق العلوى يقرأ مسرحية « روميو وجولييت » .

ونزلت لينينا وكبير المنشدين على سطح معهد الغناء . ونادى

كبير المنشدين من أبواب المصاعد وهو شديد القلق قائلا : « أسرعى يا صديقتى الشابة — أقصد لينينا. » وكانت لينينا قد تلكأت لحظة تتطلع إلى القمر فأغمضت عينيها وأسرعت تعبر السطح كى تلحق به .

فرغ مصطفى منذ لحظة يسيرة من قراءة صحيفة عنوانها « نظرية جديدة فى علم الحياة » . وجلس فترة ما ، متأملا متجهماً ، ثم التقط قلمه وكتب فى الصفحة الافتتاحية « إن طريقة المؤلف الرياضية فى علاج فكرة « الغرض » حديثة تدل على نبوغ عظيم ، لكنها زندقة ، وهى — فيما يخص النظام الاجتماعى الراهن — خطرة وقد تكون هدامة . » ثم عقب على ذلك بهذه العبارة : « هذا الكلام لا ينشر . » ووضع خطا تحت هذه الكلمات . ثم أضاف إلى ذلك قوله : « إن المؤلف سوف يبقى تحت الرقابة ، وقد يصبح نقله إلى محطة الأحياء المائية بسنت هيلانة أمراً لا مندوحة منه » . ووقع باسمه وهو آسف . لقد كان عملا جليلا . ولكن المرء إذا بدأ يقبل التفسير « بالغرض » فلا يعلم إلا الله ماذا تكون النتيجة . ذلك نوع من الآراء قد يفسد تكييف أصحاب العقول المذبذبة من أبناء الطبقة العليا — فيفقدهم عقيدتهم فى أن السعادة هى الخير الأسمى ، وتحل محل ذلك العقيدة بأن الهدف أبعد من ذلك مدى ، وخارج عن الدائرة الإنسانية الحاضرة ؛ وإن الغرض من الحياة ليس المحافظة على الرفاهية ، وإنما هو تعزيز الوعى وتهذيبه ، أو توسيع المعارف . وذلك — كما رأى المراقب — أمر ممكن صحيح ، ولكنه غير مقبول فى الظروف الراهنة . والتقط قلمه مرة أخرى ورسم خطاً ثانياً تحت هذه العبارة « لا ينشر » ، أغلظ وأشد من الخط الأول سواداً .

ثم تنهد . وفكر فى نفسه قائلا : ما أشدها مهزلة لو أن المرء لم يضطر إلى التفكير فى السعادة !

وبعينين مغمضتين ووجه يتهلل بشراً كان جون يخطب للفضاء قائلا :

« آه إنها تعلم المشاعل أن تتوهج وهى تحترق !
وكأنها تتعلق بوجنة الليل
كالجوهرة الثمينة فى أذن الحبشية
هذا جمال أروع من أن يمتهن ؛ وأعز على الأرض . . . »

كان الحرف T الذهبى متلألئاً على صدر لينينا . وأمسك به كبير المنشدين لاهياً ، وأخذ يجذبه و يجذبه . فقالت لينينا فجأة بعد صمت طويل كان يسود المكان : أظن أنه يحسن بى أن أتناول جرامين من السوما .

كان برنارد حينئذ مستغرقاً فى النوم يبسم لفردوس أحلامه الخاصة لا يفتر ثغره عن الابتسام . وعقرب الدقائق فى الساعة الكهربية المعلقة فوق رأسه يقفز إلى الأمام مرة كل ثلاثين ثانية بغير توان وهو يدق دقاً لا يكاد يلحظه السامع . وتتابعت دقات الساعة حتى كان الصباح . فعاد برنارد إلى ضروب البؤس المختلفة فى الزمان والمكان . واستأجر طائرة أقلته إلى مركز التكييف وهو أشد ما يكون اكتئاباً ، فلقد تبخرت نشوة النجاح ، وعاد إليه رشده السابق ، وأحس كأن نفسه أثقل من الجو المحيط بها بدرجة لم يسبق لها عنده مثيل ، وبخاصة عند مقارنة هذه الحالة النفسية بالحالة النفسية المؤقتة التى انتابته فى الأسابيع الماضية وكان خلالها فخوراً بنفسه مزهواً .

وكان الهمجى شديد العطف على برنارد — بعد ما زال عنه زهوه — بصورة لم تكن متوقعة .

فقال برنارد وهو يقص عليه شكاته : إنك أشبه بما كنت عليه فى مالى . هل تذكر ساعة تحدثنا معاً لأول مرة؟ خارج البيت الصغير . أنت الآن شبيه بما كنت عليه حينذاك .

— لأن شقاوتى عادت إلىّ . هذا هو السبب .

— إنى أوثر الشقاء على ذلك الضرب من السعادة الزائفة الكاذبة التى كنت تتمتع بها هنا .

فقال برنارد بمرارة شديدة : « إنى أحب ذلك . وقد كنت أنت السبب فى كل ما حدث . أبيت أن تحضر إلى حفلتى فانقلبوا جميعاً ضدى ! » وكان يعلم أن قوله هذا تعسف باطل . وكان يعترف فى دخيلة نفسه — بل وصراحة آخر الأمر — بصدق كل ما كان الهمجى يقول حينئذ عن تفاهة الأصدقاء الذين ينقلبون أعداء الداء لمثل هذا الباعث الطفيف . ولكن برغم علمه هذا وإقراره بذلك ، وبرغم أن معونة صاحبه له وعطفه عليه هى الآن عزاؤه الوحيد ، تمرد برنارد على نفسه وأخذ ينمى فى قلبه — إلى جانب محبته الصادقة للهمجى — ضيقاً خفياً منه ، ويدبر حملة من أنواع الانتقام الخفيفة يصبها فوق رأسه . فان ضيقه بكبير المنشدين لا يجدى ، ولا يمكن له أن ينتقم من رئيس القوارير أو مساعد مدير المصائر . فكانت للهمجى عند برنارد هذه الميزة الكبرى عليهم وهى أنه سهل المنال ، فهو أصلح للتضحية . إن من وظائف الصديق الرئيسية أن يعانى (بصورة خفيفة رمزية) العقوبات التى نحب — ولكنا لا نستطيع — أن نوقعها على الأعداء .

وكان هلمهلتز هو صديق التضحية الثانى لبرنارد . فلما انهزم أتاه

مرة أخرى وتودد إلى صداقته . تلك الصداقة التى لم يكن يرى — وهو فى أوجه — إنها جديرة بالرعاية . فمنحه هلمهلتز وده . ومنحه إياه بغير تثريب أو تعليق كأنه نسى ما قام بينهما من شجار . وتأثر برنارد لذلك ، وأحس بذلة النفس من نخوة صاحبه — وهى نخوة غير عادية — ولذا فهى شديدة الاذلال ، لأنها لا تدين للسوما بشئ وتدين لشخصية هلمهلتز بكل شئ . إن هلمهلتز الذى نسى وتسامح هو هلمهلتز فى حياته اليومية ، وليس هلمهلتز وهو فى عطلة نصف جرام من السوما . وكان برنارد له شاكراً (فلقد كان له فى عوده إلى صديقه عزاء وسلوى) كما كان عليه ناقماً (لأنه مما يسره أن ينتقم من هلمهلتز لكرم أخلاقه) .

وعندما التقيا لأول مرة بعد الفراق ، تدفق برنارد فى حديثه عن أسباب شقائه وتقبل من صاحبه العزاء . ولم يعلم إلا بعد بضعة أيام أنه لم يكن وحده الرجل الذى عانى المشقات (فدهش لذلك وأحس بشئ من الخجل) فلقد كان هلمهلتز فى نزاع مع أصحاب السلطة والنفوذ . وذلك — كما قال — « بشأن القوافى . كنت ألقى دروسى المعتادة فى الهندسة العليا للعواطف لطلبة السنة الثالثة . والمقرر يقع فى اثنتى عشرة محاضرة ، السابعة منها فى القوافى — أو هى على وجه الدقة فى « استخدام القوافى فى الدعاية الخلقية وفى الاعلان » . ومن عادتى أن أوضح محاضرتى بكثير من الأمثلة الفنية . وقد فكرت هذه المرة أن أقدم إليهم مثالا مما كتبت بنفسى من عهد قريب . وهذا بالطبع جنون محض — ولكنى لم أستطع المقاومة . » وضحك ثم قال : « وكنت مشغوفاً بأن أشهد تأثرهم به . » ثم قال فى حزم شديد : « وأردت — فوق ذلك — أن أقوم بشئ من الدعاية . كنت أحاول

أن أهندسهم حتى يحسوا باحساسى عندما كتبت تلك القوافى . يا لله ! »
ثم ضحك مرة أخرى وقال : ما أشد ما أثرت من احتجاج ! لقد استدعانى المدير وهدد بفصلى فى الحال . فانا رجل بارز .

فسأله برنارد : وماذا نظمت من قوافى .

– قصيدة فى العزلة .

فرفع برنارد حاجبيه إلى أعلى .

« سأنشدك إياها إن أردت . » وأنشد قائلا :

كان الاجتماع بالأمس ،
والآن هناك العصى ، ولكن الطبول محطمة ،
والمدينة فى منتصف الليل ،
ونُفخ فى المزامير ولكن فى الفراغ ،
والشفاه مضمومة ، والوجوه ناعمه ،
والآلات كلها ساكته ،
والأماكن قذرة بكماء
بعدما هجرتها الجماهير .
وسكن الهرج والمرج
فابك (رافعاً صوتك أو خافضاً له)
وتكلم بصوت لست أدرى لمن .
قل إن سوزان غائبة .
وكذلك أجيريا
أين ذراعاها ، وما يقابلهما من نهود ؟
أين شفتاها ، وأين ردفاها ؟
ليس لها من وجود .

لمن هذا الشئ ؟ وإنى لأتساءل
أى كنه باطل له ؟
هذا الشئ الذى لا وجود له
وهو مع ذلك يعمر الليل الخاوى
عمرانا أشد كثافة من عضو التناسل ؟
ولماذا يبدو لنا كريهاً هكذا ؟

– قدمت لهم هذه القصيدة مثالا فرفعوا أمرى إلى المدير .

فقال برنارد : ليس فى هذا ما يدهشنى ، فهو يعارض صراحة كل ما تعلموه بالايحاء . أذكر أنهم أنذروا ربع مليون مرة على الأقل ضد العزلة .

– أعرف ذلك . ولكنى أردت أن أرى ماذا عسى أن يكون الأثر .

– ولقد رأيت الآن .

فلم يسع هلمهلتز إلا أن يضحك وقال بعد فترة سكون : « أشعر كأنى بدأت أظفر بموضوع أكتب فيه ، كأنى بدأت أتمكن من استخدام تلك القوة التى بداخلى – تلك القوة الزائدة الدفينة . كأن شيئاً يُقبل علىّ . » وظهر لبرنارد أنه برغم كل متاعبه جد سعيد . وائتلف هلمهلتز مع الهمجى فى الحال ، وكان ائتلافهما قلبياً حقاً حتى أن برنارد أحس بوخز الغيرة الحاد . فانه خلال تلك الأسابيع جميعاً لم يألف الهمجى تلك الألفة الشديدة التى حققها هلمهلتز فى الحال . وكان أحياناً وهو يرقبهما ويصغى إلى حديثهما يشتد استياؤه ويود لو أنه لم يجمع بينهما البتة . وخجل من غيرته وقابل ذلك بمجهود إرادى وتناول السوما كى يقى نفسه من الاحساس بها . ولكن جهده لم ينجح كل النجاح .

وكان لا مناص من أن تقع بين عطلة سومية وأخرى فترة من الغيرة. وعاودته هذه العاطفة الكريهة بين الفينة والفينة.

ولما التقى هلمهلتز بالهمجى للمرة الثالثة أنشد قصيدته فى العزلة. وبعدما أتمها سأله: ما رأيك فيها ؟

فهز الهمجى رأسه وأجاب قائلا: « اصغ لهذه. » وفض قفل القمطر الذى كان يحفظ فيه كتابه الذى قرضته الفيران، وفتحه وقرأ ما يلى:

« ليكن ذلك الطائر الصداح
فوق تلك الشجرة العربية المنعزلة
نذير الحزن وبوق . . . »

وثارت مشاعر هلمهلتز تدريجاً وهو يصغى إليه. ولما بلغ الهمجى قوله « الشجرة العربية المنعزلة » ذعر صاحبه، ولما بلغ قوله « أنت أيها البشير الصارخ » سر سروراً مباغتاً فابتسم. وعند قوله « كل طائر ذى جناح مستبد » تدفق الدم فى وجنتيه، ولكنه شحب وهزته عاطفة لا عهد له بها عند قوله « الموسيقى البائدة ». وواصل الهمجى القراءة منشداً:

« وارتاعت الصفات المشتركة
لأن النفس الواحدة قد تقسمت،
والطبيعة واحدة
وإن تعددت أسماؤها . . .
وذهل العقل عندما رأى الأجزاء تتحد . . . »

فقاطع برنارد القراءة بضحكة عالية ممقوتة قائلا: « شوبلم، شوبلم،

ليس هذا الشعر إلا أنشودة من أناشيد صلاة الجماعة. » وكان ينتقم لنفسه من صديقيه لأن كلا منهما أحب الآخر أكثر مما أحبه.

وكثيراً ما عاد إلى هذه الطريقة الانتقامية فى الاجتماعين أو الثلاثة اللاحقة. وكانت طريقة ميسورة وبالغة الأثر لأن هلمهلتز والهمجى كليهما كانا يتألمان أشد الألم لتهشيم هذه الجوهرة الشعرية المستحبة وتدنيسها. وهدده هلمهلتز فى النهاية بطرده من الغرفة إذا تجرأ على مقاطعتهما مرة أخرى. وعلى ذلك فانه مما يدعو إلى العجب إن المقاطعة التالية — وهى أشد خزياً من كل ما سبقها — صدرت من هلمهلتز نفسه.

كان الهمجى يقرأ مسرحية « روميو و جوليت » بصوت مرتفع. وكان يقرأ بعاطفة قوية ورعدة شديدة (لأنه كان طوال الوقت يرى نفسه كروميو ولينينا كجوليت). وأصغى هلمهلتز إلى الفصل الذى التقى فيه العاشقان لأول مرة باهتمام تشوبه الحيرة. وسره الشعر الذى جاء فى الفصل الذى حدثت وقائعه فى الحديقة، لكنه ابتسم للعواطف التى عبر عنها الشاعر. وأضحكه جداً أن يبلغ العاشق تلك الحال لأنه يشتهى فتاة، ولكن التفاصيل الحرفية كانت قطعة رائعة من فن هندسة العواطف! فقال: « إن هذا الرجل القديم يزرى كل الزراية بخيرة الفنيين فى الدعاية عندنا. » وابتسم الهمجى ابتسام الظافر المنتصر واستأنف القراءة. وسارت الأمور على ما يرام حتى كان المنظر الأخير من الفصل الثالث حيث بدأ كابيولت والسيدة كابيولت يهددان جوليت كى تتزوج من بارس. وكان هلمهلتز قلقاً خلال المنظر كله، ولكنه انفجر فى ضحك لم يستطع كتمانه عندما مثل الهمجى جوليت بصوت يثير الحزن وهى تقول:

« أليس فى السحب شفقة
تنفذ إلى أعماق حزنى ؟
أماه — يا عزيزتى — لا تنبذينى !
أجِّلى هذا الزواج شهراً ، بل أسبوعاً
وإن لم تفعلى فضعى سرير العرس
فى ذلك القبر المظلم ، حيث يرقد تايبولت . . . »

عجباً للأم والأب (ويا لهما من لفظتين غاية فى الدنس) يرغمان ابنتهما على الزواج من رجل لا تريده ! وعجبا لهذه الفتاة البلهاء لا تقول إن لديها رجلا آخر تؤثره ! (فى ذلك الحين على الأقل .) إن الموقف بسخفه وفحشه يثير الضحك بدرجة لا تقاوم . وقد استطاع — بجهد الأبطال — أن يخفف من حدة نشوته . ولكن « الأم العزيزة » (بنغمة الهمجى المرتجفة التى تنم عن الألم) والاشارة إلى تايبولت وهو جثة هامدة وهى — من الجلى — لم تُحرق ففقدت فسفورها فى قبر مظلم ذلك كان أكثر مما يحتمل . فاسترسل فى الضحك حتى تحدر الدمع على وجهه — و لم يكف عن الضحك . وكان الهمجى فى أثناء ذلك — وقد شحب لونه من إحساسه بثورة النفس — ينظر إليه من فوق كتابه . ولما لم يمتنع صاحبه عن الضحك ، أغلق الكتاب حانقاً ، ونهض من مكانه وأعاده إلى القمطر وأحكم عليه القفل ، وكأنه — بحركاته — يخفى جوهرة من وجه خنزير .

ولما استرد هلمهلتز أنفاسه واستطاع أن يعتذر ، ومهد الهمجىّ للاصغاء إلى حديثه قال : « ومع ذلك فأنى أعلم جيداً أن المرء بحاجة إلى مثل هذه المواقف المضحكة الجنونية . واعلم أن المرء لا يجيد الكتابة

حقاً فى غير ذلك . لماذا كان ذلك الكاتب القديم فنياً فى الدعاية بدرجة تدعو إلى العجب ؟ لأنه كانت لديه أشياء عدة جنونية أليمة تثور لها أعصابه . ولا بد للمرء أن يؤذى وأن يضطرب لكى يستطيع أن يصوغ العبارات الجيدة التى تنفذ نفاذ أشعة إكس . ولكن همجى من الآباء والأمهات ! » وهز رأسه ثم قال : « لا تنتظر منى إلا أن أضحك من ذكرهما . ومن ذا الذى يهتم لأن ولداً ظفر بفتاة أو لم يظفر بها ؟ » (وجفل الهمجى ، ولكن هلمهلتز الذى كان يحدق فى الأرض مفكراً ، لم يبد عليه أى أثر .) واختتم حديثه متنهداً وقال : « كلا ، إن هذا لا يغنى . إننا بحاجة إلى نوع آخر من الجنون والعنف . ولكن ماذا عسى أن يكون ذلك ؟ وأين يوجد ؟ » وصمت برهة ثم هز رأسه وقال أخيراً : لست أدرى ، لست أدرى .

الفصل الثالث عشر

ولوح هنرى فستر خلال الضوء الخافت فى مخزن الأجنة وقال : هل تحبين زيارة دار الصور المحسة الليلة ؟

فهزت لينينا رأسها دون أن تنبس ببنت شفة .

« هل ستخرجين مع شخص آخر ؟ » وكان يشوقه أن يعرف من من أصدقائه سيصحب الآخر ؟ وسألها : هل هو بنتو .

وهزت رأسها ثانية .

وتبين هنرى الكلال فى تلكما العينين الأرجوانيتين ، والشحوب المستتر تحت لمعة السل الجلدى ، والحزن الكامن فى زوايا فمها القرمزى غير الباسم ، وسألها فى شئ من القلق : « هل تحسين بالمرض ؟ » وهو يخشى أن تكون متألمة من الأمراض المعدية القليلة الباقية .

وهزت لينينا رأسها مرة أخرى .

وقال هنرى : « ينبغى لك على أية حال أن تزورى الطبيب فزيارة الطبيب مرة كل يوم تبعد مرض الجمجام » وأخرج هذه العبارة الأخيرة من قلبه وكان تأثير هذا القول المأثور الايحائى قوياً فى لينينا ، وقد ضربها ضربة خفيفة على كتفها واقترح عليها أنها « قد تكون بحاجة إلى شئ يعوضها عن الحمل ، أو علاج بالـ ع . ع . ج (١) القوى الأثر . فأنت تعلمين ان العاطفة

(١) هذه الأحرف يرمز بها للعاطفة العنيفة فى العالم الجديد .

السليمة فى العالم الجديد قد لا تكون أحياناً . . . . »

فقالت لينينا وقد خرجت عن صمتها العنيد : « بحق فورد لا تتكلم . » والتفتت ثانية إلى أجنتها المهملة .

علاج بالـ ع . ع . ج . حقاً ! ولولا أنها كانت على وشك البكاء لضحكت كأنها لا تملك ما يكفيها من الـ ع . ع . ! وتنهدت تنهداً عميقاً وهى تملأ محقنها . وتمتمت لنفسها قائلة : « جون ، جون . . . » ثم تعجبت قائلة : يا إلهى ! هل أنا أعطيت أو لم أعط هذا الطفل حقنة مرض النوم ؟ » إنها لم تذكر . وفى النهاية قررت ألا تخاطر بإعطائه حقنة ثانية ، وانتقلت إلى القارورة التالية من صف القوارير .

اثنان وعشرون عاماً وثمانية أشهر وأربعة أيام من تلك الحقنة وبعدئذ قد يموت من مرض تربانوسومياسز (مرض النوم) مدير مواتزا مواتزا من طراز (— ا) وهو فى ريعان الشباب — وهذه أولى الحالات لأكثر من نصف قرن — وواصلت لينينا عملها وهى تتنهد .

وبعد ساعة فى حجرة التغيير كانت فانى تحتج بقوة وتقول : من العبث أن تسمحى لنفسك ببلوغ هذه الحالة . عبث باطل ، ولم ذلك ؟ من أجل رجل — رجل واحد .

— ولكنه الرجل الذى أريد ؟

— كأن العالم ليس به ملايين الرجال غيره .

— ولكنى لا أريدهم .

— كيف تعرفين ذلك حتى تجربى ؟

— لقد جربت .

وسألتها فانى وقد هزت كتفيها فى ازدراء : كم ؟ واحداً أو اثنين ؟

« بل عشرات » وهزت رأسها ثم قالت : لكنهم لم ينفعوا .

فقالت فانى فى عبارة موجزة : « عليك أن تثابرى . » وكان من الجلى أن ثقتها فى نصائحها قد تزعزعت . ثم قالت : إن المرء لا يستطيع أن يتم شيئاً ما بغير مثابرة .

— ولكنى فى تلك الأثناء . . .

— لا تفكرى فيه .

— لست أستطيع !

— إذن فتناولى السوما .

— إنى أفعل .

— إذن فاستمرى .

— وفى تلك الفترات كنت لا أزال أحبه ، وسوف أحبه دائماً .

فقالت فانى فى عزم شديد : إذن فاذا كانت هذه هى الحال فلماذا لا تتوجهين فوراً وتحصلين عليه ، أراد أو لم يُرد .

— ولكنك لا تعرفين مقدار غرابته !

— هذا سبب آخر لثباتك وتصميمك .

— من اليسير أن « تقولى » ذلك .

وبصوت كالبوق قالت فانى : « لا تتقيدى بباطل من القول . بل اعملى . » وكانت تصلح أن تكون محاضرة فى جمعية الشابات الفورديات تلقى على المراهقين من (ـ ب) حديثاً مسائياً . ثم قالت : نعم ، اعملى — فوراً . افعلى ذلك الآن .

قالت لننا : إننى أخشى ذلك .

« ما عليك إلا أن تتناولى نصف جرام من السوما أولا . والآن سوف أذهب لأستحم . » وانصرفت تجر منشفتها .

دق الجرس ، فوثب الهمجى وهرع إلى الباب لأنه كان يأمل أن يزوره هلمهلتز عصر ذلك اليوم وهو شديد القلق (وقد صمم نهائياً أن يتحدث إلى هلمهلتز فى شأن لينينا ، ولم يحتمل أن يؤجل الافضاء بالسر دقيقة واحدة بعد ذلك) .

وصاح وهو يفتح الباب قائلا : كنت أتوقع قدومك يا هلمهلتز .

وإذا بلينينا على عتبة الباب ترتدى معطفاً من أطلس الملاحين ، الأبيض الحمضى ، وعلى رأسها قبعة مستديرة بيضاء تميل فوق أذنها اليسرى بصورة داعرة .

فقال الهمجى : « أوه ! » كأن أحداً هوى عليه بضربة قوية .

لقد كان نصف جرام كافياً لأن ينسى لينينا مخاوفها واضطرابها . فقالت : « أهلا بك يا جون ! » وهى تبتسم ، وسارت إلى جواره فى الغرفة . وأغلق الباب وتابعها متابعة آلية . وجلست لينينا ، ثم كان صمت طويل .

وأخيراً قالت : يبدو لى أنك لست شديد الغبطة برؤيتى .

ونظر إليها الهمجى عاتباً وقال : « لست مغتبطاً ؟ » ثم جثا على ركبتيه بغتة أمامها ، وتناول يدها وقبلها باحترام . ثم قال هامساً : « غير مغتبط ؟ آه لو عرفت . . . » ثم جرؤ على النظر إلى وجهها وقال : « يا معشوقتى لينينا . » ثم قال : « يا من بلغت قمة إعجابى ، ياأعز ما فى الدنيا . » فتبسمت له برقة شديدة الحلاوة . ومالت نحوه وقد انفرجت شفتاها وقالت : « ما أكملك . إن خُلقك لا نظير له . » واشتد قربها منه وقالت : « أنت خير مخلوق . » ثم زادت منه قرباً ، ووثب الهمجى على قدميه . وقال وهو يتكلم بوجه منصرف : وهذا هو السبب فى أن أقوم بفعل شئ أولا . . . أعنى أن أظهر أنى جدير بك . ولست أقصد أنى سوف أظل كذلك دائماً . ولكن لأظهر على

الأقل أنى لم أكن غير جدير بك مطلقاً . أردت أن أفعل شيئاً .

وبدأت لينا تقول : « لماذا تظن أنه من الضرورى . . . » ولكنها لم تتم عبارتها . وكانت فى صوتها نغمة تنم عن التهيج . لقد مالت إلى الأمام ، واقتربت منه وقد انفرجت شفتاها ، فوجدت فجأة أنها لا تميل إلى شئ مطلقاً — وقد نهضت على قدميها كالبلهاء — فحق لها أن تغضب فعلا برغم نصف جرام السوما الذى يجرى فى دمائها .

وكان الهمجى يتمتم بكلام متقطع ويقول: فى مالبى على المرء أن يأتى لها بجلد ليث جبلى — أقصد لو أراد أن يتزوج من فتاة — أو جلد ذئب .

وقالت لينا فى لهفة : ليس فى انجلترا أسد .

فأجاب الهمجى باستياء مفاجىء مشوب بالازدراء قائلا : « ولو كان بها أسد فما أحسب إلا أن الناس يقتلونها بالغاز السام أو بغيره يسقطونه عليها من الطائرات . ولكنى لا أفعل ذلك يا لينا . » ولوى كتفيه ، وجرؤ على النظر إليها ، وقابلته بنظرة تنم عن عدم الادراك المشوب بالغضب . فاضطرب . واستمر فى حديثه وقد زاد كلامه تفككاً . قال : سأفعل أى شئ تريدين . إنك تعلمين أن من الأعمال ما هو أليم ، ولكنه برغم ذلك يسر فاعله . وهذا هو شعورى . أقصد أنى أكنس الأرض إن أردت .

فردت عليه لينا وهى فى حيرة شديدة . قالت : ولكن لدينا مكانس مفرغة الهواء . فليست بك حاجة إلى ذلك .

— نعم ليست بى حاجة إلى ذلك . غير أن بعض الأعمال الوضيعة تؤدى بنبل عظيم . وأحب أن أؤدى عملا بنفس نبيلة ، فهل تفهمين ؟

— ولكن إذا كانت هناك مكانس مفرغة الهواء . . .

— لست أرمى إلى ذلك .

واستمرت تقول : ويشتغل بها قوم أنصاف معتوهين من طراز (ه).

وإذن فلماذا حقاً . . . ؟

— لماذا ؟ من أجلك أنت ، كى أظهر أنى . . .

— وإنى لأعجب بالعلاقة بين المكانس المفرغة والأسد .

— كى أظهر مقدار . . .

« وما العلاقة بين الأسد وسرورك برؤيتى . . . » وزاد حنقها .

فأجاب يائساً : . . . مقدار حبى لك يا لينا .

وتدفق الدم فى وجنتى لينا دليلا على أن تيار الغرور الباطنى قد هاج فى نفسها وسألته : هل تقصد ماتقول يا جون ؟

فصاح الهمجى وقد ضم يديه إحداهما إلى الأخرى فى شئ من الألم وقال : لم أقصد أن أقول ذلك . ولن يكون ذلك حتى . . . انصتى إلى يا لينا . أن الناس فى مالبى يتزوجون .

قالت : « ماذا تعنى ؟ » وعاد الانفعال إلى صوتها . فيم كان يتكلم الآن ؟

— إلى ماشاء الله . إنهما يتواعدان على العيش معاً إلى ماشاء الله .

« ما أبشع هذه الفكرة » وقد صدمت لينا فعلا .

— إنهما يتلازمان بعد زوال الجمال الظاهرى ، ولهما عقل أسرع تجدداً من فساد الدم ..

— ما هذا ؟

— إنه كالذى جاء فى شيكسبير « إنك إن فضضت بكارتها قبل أن ... الحفلات الدينية بكل طقوسها المقدسة » .

« بربك يا جون ، تكلم كلاماً معقولا . لست أفهم كلمة واحدة مما تقول . أشرت أولا إلى المكانس المفرغة ، ثم إلى البكارة . أنك تدفعنى إلى الجنون . » ووثبت من مكانها وأمسكته من معصمه كأنها تخشى أن

يفر منها جسما وعقلا . ثم قالت : أجب عن هذا السؤال : هل تحبنى فعلا أو لا تحبنى ؟

وساد الصمت برهة ثم قال بصوت منخفض جداً : أننى أحبك أكثر من أى شئ فى الدنيا .

فصاحت قائلة : « إذن فلماذا لم تقل ذلك ؟ » وبلغ بها الحنق أنها دفعت أظافرها الحادة داخل جلدمعصمه . ثم قالت : بدلا من الهذيان بذكر البكارة والمكانس المفرغة والأسد، فتسبب لى البؤس عدة أسابيع متوالية .

وأطلقت يده وأبعدتها عنها وهى غاضبة . وقالت : لولا أنى شديدة الحب لك لثرت فى وجهك .

وطوقت عنقه فى الحال بذراعيها . وأحس بنعومة شفتيها على شفتيه . ما أعذب نعومتهما ، ما أحرهما وما أشد ما فيهما من كهرباء . فألفى نفسه مضطراً إلى تذكر العناق الذى حدث فى قصة « الأسابيع الثلاثة فى الطائرة » . وتذكر آهات الفتاة الشقراء المجسدة ، وآهات الزنجى ، الحقيقية أكثر من الواقع . يا للفزع . . . فحاول أن يتحرر من لينينا ولكنها شددت عليه العناق .

وتراجعت بوجهها كى تتمكن من رؤيته وهمست قائلة : « لماذا لم تقل ذلك ؟ » وبدا فى عينيها عتاب رقيق .

قال : « العرين الحالك الظلمة أكثر الأماكن ملاءمة . » (وجلجل صوت الضمير مشبعاً بالعاطفة القوية) وقويت عزيمته . « على أن أشد إيحاء يصدر عن عبقرية الإنسان السافلة لن يدنس شرفى بالشهوة . لن يكون ذلك أبداً . »

وكانت تقول : ما أسخفك من غلام ! لقد كنتُ شديدة الرغبة فيك ، وإن كنت راغباً فىّ . فلماذا لم . . . ؟

فبدأ احتجاجه قائلا : « ولكن يا لينينا . . . » وظن لحظة — وهى ترخى ذراعيها وتبتعد عنه — أنها أدركت تلميحه الذى لم يصرح به . ولكنها فكت رباط حزامها الأبيض اللامع المخرق ، وعلقته بعناية على ظهر مقعد من المقاعد ، فبدأ يظن أنه كان مخطئاً .

فكرر نداءه وهو خائف وقال : لينينا !

ووضعت يدها على جيدها وجذبت جذبة طويلة رأسية ، فانشق قميصها الأبيض الذى يشبه قمصان الملاحين حتى الهدب . فتعززت الشكوك فى عزيمته الثابتة وقال : لينينا . ماذا تصنعين ؟

فكان جوابها فك الإزار ، ولم تنبس ببنت شفة ، وخلعت عنها سروالها الذى تشبه مؤخرته الناقوس ، وظهر رداؤها الداخلى الذى يسترها من الفرع إلى القدم قرنفلياً باهتاً . وتدلى فوق صدرها الحرف الذهبى الذى منحها إياه كبير المنشدين .

« إن هذا الطعام الدقيق اللبنى الذى يخترق عيون الرجال من خلف قضبان النوافذ . . . » تذكر هذه العبارة برنينها ودويها وسحرها فتضاعف فى عينيه خطرها وتضاعفت فتنتها . ما أشد نعومتها ، ولكن ما أشد طعنات هذه النعومة ! إنها تثقب حكمته وتخرقها ، وتفت من عزمه . « إن أغلظ الايمان كالهشيم أمام النار التى تتأجج فى الدماء . فاشتد زهدك وإلا . . . »

وفكت مشبكا آخر فتشتت أجزاء ردائها الداخلى القرنفلى كالتفاحة أحكم تقسيمها . لقد حركت ذراعها حركة طفيفة ، ورفعت قدمها اليمنى أولا ، ثم قدمها اليسرى ثانياً فسقط الرداء على الأرض متغضناً لا حياة فيه .

وتقدمت نحوه وهى ماتزال ترتدى جواربها وحذاءها وقبعتها المستديرة

البيضاء المائلة بشكل داعر ، ومدت إليه ذراعيها وقالت :عزيزى ، عزيزى ! لماذا لم تقل ذلك ؟

ولكن بدلا من أن يجيبها بقوله مثلها : « عزيزتى ! عزيزتى ! » ويمد ذراعيه نحوها ، تراجع الهمجى مذعوراً ملوحا بيديه نحوها كأنه يحاول ان يُبعد عنه حيواناً دخيلا خطراً . وخطا إلى الخلف أربع خطوات ثم أستند إلى الحائط فى مأمن منها .

ووضعت لينينا يديها فوق منكبيه وضمت نفسها إليه ضما شديداً وقالت : « ما أحلاك ! » وأمرته أن يطوقها بذراعيه قائلة : « عانقنى يا حبيبى حتى تخدرنى ! » عجباً ! إن فى صوتها وهى تأمره لشعرا ، وإنها لتعرف كلمات كأنها الغناء أو الرقى أو دق الطبول . وأغمضت عينيها وتكلمت بصوت خافت كأنه همهمة النائم وقالت : قبلنى .قبلنى حتى أفقد رشدى .عانقنى ياحبيبى واثلج صدرى . . .

فأمسك بها الهمجى من معصمها ، ونزع يديها من فوق كتفيه ، ودفعها بغلظة على بعد ذراع منه .

فتأوهت قائلة : « إنك تؤذيننى ، إنك . . . » وصمتت فجأة .لقد أنساها الفزع الألم . وفتحت عينيها وشاهدت وجهه . كلا . إنه ليس وجهه . إنما هو وجه رجل غريب متوحش ، شاحب اللون ، متغضن ملتو من شدة الغضب الجنونى الذى لم تدرك له سبباً . فذهلت وهمست قائلة : « ما بك يا جون ؟ » فلم يحر جواباً ، ولكنه اكتفى بالتحديق فى وجهها بتلكما العينين المجنونتين . وارتجفت تلكما اليدان اللتان كانتا تقبضان على معصميها . وتنفس أنفاساً عميقة بغير نظام . وسمعت أسنانه بغتة وهى تصطك اصطكاكاً خفيفاً لا يكاد يحس ولكنه مفزع مريع . وكادت تصيح قائلة : « ما بك ؟ »

وكأنها أيقظته بصياحها ، فأمسك بها من كتفيها وهزها . وصاح قائلا : « عاهرة ! عاهرة ! مومس وقحة ! »

واحتجت عليه بصوت يرتعد ارتعاداً شديداً من أثر هزته . قالت: لا تفعل ، لا تفعل !

— عاهرة !

— أرجوك !

— عاهرة لعينة !

وبدأت تقول : إن جراماً من السوما خير من . . .

ودفعها الهمجى إلى الوراء بقوة فترنحت ثم سقطت . فصاح وقد وقف فوقها يهددها : « اذهبى ، واغربى عن نظرى وإلا قتلتك . » وقبض يديه .

ورفعت لينينا ذراعها كى تخفى وجهها ، وقالت : كلا . أرجوك ألا تفعل يا جون . . .

— هيا اسرعى .

ووثبت على قدميها رافعة إحدى ذراعيها ومتتبعة كل حركة من حركاته بعين مفزعة ، وما فتئت تحبو على الأرض وتخفى رأسها . ثم انطلقت إلى الحمام .

وصفعها صفعة قوية أحدثت صوتاً كطلق المسدس فأسرعت فى ارتحالها .

وقفزت لينينا إلى الأمام وهى تتأوه .

ولما أوصدت الحمام وأحست بالطمأنينة فرغت لعد جراحها . وولت ظهرها المرآة ولوت رأسها . ونظرت من فوق كتفها اليسرى فتمكنت من رؤية آثار يد مفتوحة وقد انطبقت على لحمها اللؤلؤى حمراء جلية واضحة . ومسحت البقعة الجريحة فى حرص بالغ كى لا تؤذى نفسها

وفى الخارج ، فى الغرفة الأخرى ، كان الهمجى يذرع الأرض ويسير على سوسيقى هذه الكلمات السحرية وطبلها : « إن العصفور يأتيها والذبابة الصغيرة الذهبية تنغمس فى الدعارة أمام عينى . » (١) ورنت هذه الكلمات فى أذنه رنينا جنونيا . « إن القط القذر والجواد الدفىء يأتيانها بشهوة ثائرة . إن الأنثى فما تحت الخصرحيوان خرافى ، وفيما فوقه امرأة من النساء . إنها وريثة الآلهة فى نصفها الأعلى ، وشيطان فى نصفها الأسفل . تلك هى الجحيم ، والظلام ، وبؤرة الكبريت ، تشتعل فيها النار ، وتحترق بالماء الساخن ، ذلك نتن ودرن . تبا ، تبآ ، تبآ ، تبآ . تبآ وسحقآ ! أعطونى درهمآ من الزباد ، وصيدليآ ماهرآ ، كى أخفف عن نفسى وطأة الخيال » .

وصدر من الحمام صوت ضئيل جرىء ينادى مستعطفآ : جون ، جون.

« إيه أيتها الحشائش . بأروع مظهرك ، وما أحلى عبيرك ، إنك تثيرين الحس . هل حرر هذا الكتاب الطيب ليكتب عليه «العاهرة» ؟ إن الملائكة نفسها تحب أن تشمها . . . »

وما زال عبيرها يملأ المكان حوله ، وقد ابيض معطفه بالمسحوق الذى كانت تعطر به جسمها المخمل : « يا لها من عاهرة وقحة ! » وظل يردد هذه العبارة ويتنغم بها .

— جون ! هل ترى أنى أستطيع أن آخذ ملابسى ؟

فالتقط السروال الذى تشبه مؤخرته الناقوس ، والثياب العلوى ، ورداءها الداخلى .

وأمرها بقوله : « افتحى ! » وركل الباب بقدمه .

(١) هذا الاقتباس من شيكسبير ، وهو يقصد أن الغريزة الجنسية قوية فى كل الأحياء لاتقاوم .

فأجابته متحدية بصوت خائف : « كلا لن أفعل » .

— فكيف إذن تتوقعين منى أن أعطيكها ؟

— أدفع بها خلال النافذة فوق الباب .

وفعل ما أشارت به وعاد يذرع الغرفة بهدوء كما كان يفعل من قبل . « عاهرة وقحة ، عاهرة وقحة . يا لها من شيطانة مترفة ، ضخمة الردفين ، صفراء الأصابع . . . »

— جون !

ولكنه لم يجب ، بل كان يفكر فى ردفها الضخم وأصابعها الصفراء .

— جون !

فسألها بخشونة قائلا : ماذا تريدين ؟

قالت : هل تتكرم باعطائى الحزام المالتسى ؟

وجلست لينينا تصغى إلى وقع الأقدام فى الغرفة الأخرى ، وتتعجب وهى تصغى إلى متى يحتمل أن يبقى هكذا يذرع الغرفة جيئة وذهابآ ، وهل لابد لها أن تنتظر حتى يخرج من البيت، وهل تطمئن —بعدماتترك لسورته فرصة من الوقت تهدأ فيها— إلى فتح الحمام والانطلاق منه .

وإذ هى تسبح فى هذه التأملات المقلقة تنبهت بغتة لجرس التلفون وهو يدق فى الغرفة الأخرى . فكف صاحبنا عن المسير فجأة ، وسمعت صوت الهمجى وكأنه يتحدث مع السكون :

— هلو

. . . .

— نعم

. . . .

— أنا هو إذا لم أخدع نفسى .

. . . .

– أجل . ألم تسمعنى أذكر ذلك . أنا الهمجى أتكلم .

. . . .

– ماذا ؟ من المريض ؟ الأمر يهمنى بالطبع .

. . . .

– ولكن هل المرض خطير ؟ وهل هى فعلا فى حالة سيئة ؟ سوف أذهب فى الحال . . .

. . . .

– ليست فى بيتها الآن ؟ إلى أين أخذت ؟

. . . .

– يا إلهى ! ما العنوان ؟

. . . .

– ٣ بارك لين – هل هو هذا ؟ ٣ ؟ شكراً .

وسمعت لينا طقة السماعة وهو يُعيدها إلى مكانها ، ثم سمعت خطوات مسرعة ، وباباً يغلق بشدة . ثم كان سكون . هل ذهب فعلا ؟

ففتحت الباب ربع بوصة بحرص بالغ ، وأطلت من الشق ، وشجعها منظر الفراغ فزادت من فتحة الباب قليلا ، ثم أبرزت رأسها كله ،وأخيراً سارت فى الغرفة على أطراف أصابعها ، ووقفت بضع ثوان بقلب شديد النبض ، ولبثت تنصت وتصغى. ثم اندفعت نحو الباب الأمامى ، وفتحته وانسلت منه ، وأغلقته بشدة ، ثم جرت . و لم تشعر بالطمأنينة والأمان حتى كانت فى المصعد تهبط فعلا إلى أسفل .

الفصل الرابع عشر

مستشفى بارك لين للموتى برج من الآجر الأصفر يتألف من أربعة وستين طابقاً . ولما خرج الهمجى من طائرة الأجرة قابلته حملة من سيارات الموتى الهوائية ذات الألوان الزاهية وهى ترتفع من السطح بأزيزها وتنطلق عبر المستشفى وتتجه غرباً تقصد حمأة الاحراق . وعند باب المصعد أجابه كبير الحمالين بما استفسر عنه ، فهبط إلى الجناح رقم ٨١ . (وقال عنه الحمال إنه جناح الشيخوخة المتقدمة فى الطابق السابع عشر .)

وكانت الغرفة فسيحة تتلألأ بضوء الشمس وبالطلاء الأصفر ، وتحتوى على عشرين سريراً ، كلها مشغول . وكانت لندا تموت جماعة بجميع أسباب الراحة الحديثة . والأغانى المصطنعة المرحة تملأ الجو ولا تنقطع . وفى أسفل كل سرير صندوق تلفزيون يواجه شاغله وهو فى النزع الأخير . والتلفزيون لا يفتر كأنه صنبور يتدفق من الصباح حتى المساء . والعطر السائد فى الغرفة يتغير من تلقاء نفسه مرة كل ربع ساعة . وقالت الممرضة التى تولت أمر الهمجى عند الباب : إننا نحاول أن نخلق هنا جواً ممتعاً جداً – شيئاً وسطاً بين فندق من الدرجة الأولى ودار من دور الصور المحسة ، إن كنت تفهم ما أعنى .

وسألها الهمجى متجاهلا هذا الشرح الذى ألقته بأدب جم : أين هى ؟

فاستاءت الممرضة وقالت : الظاهر أنك على عجل .

فسألها : هل هناك أمل ؟

« تقصد أملا فى عدم موتها ؟ (فأومأ برأسه) . كلا ليس هناك بالطبع أمل. عندما يرسل الشخص إلى هذا المكان فليس هناك ... »

وراعتها ملامح الغم التى بدت على وجهه الشاحب فحورت حديثها فجأة وسألته : « ماذا عسى أن يكون الأمر ؟ » فهى لم تتعود من زائريها مايشبه ذلك. (وليس معنى هذا كثرة الزائرين على أية حال ، أو أن هناك مايدعو إلى كثرتهم .) « لعلك لا تحس بالمرض ؟ »

فهز رأسه وقال بصوت لا يكاد يسمع : إنها أمى .

فرمقته الممرضة بعينين مذعورتين مروعتين . ثم صرفت عنه نظرها بسرعة . وتدفق الدم الحار فى وجهها من الحلق إلى العارض .

وقال الهمجى : « أريني السبيل إليها. » وقد بذل جهداً فى الكلام بنغمة عادية .

فهدته إلى الجناح السفلى وهى لا تزال فى حمرة الخجل . والتفتت إليهما وهما فى طريقهما وجوه نضرة لم تتغضن بعد (لأن الشيخوخة كانت تتقدم بسرعة لم تجد معها الوجوه وقتاً تظهر فيه علامات السن — إنما شاخت القلوب والأذهان فقط) . وتبعتهم وهم يتقدمون فى سيرهم عيون الطفولة الثانية الساذجة التى لا تتطلع إلى شئ . وارتعد الهمجى وهو ينظر حواليه .

وكانت لندا ترقد فى نهاية صف الأسرة الطويل المحاذى للحائط مباشرة . وكانت ترقب — وهى ترتكز إلى الوسادات — الأشواط النهائية لبطولة تنس سطح زيمان بأمريكا الجنوبية ، وهو يُلعب فى صمت وبصور مصغرة على شاشة صندوق التلفزيون عند أسفل السرير .

وكان اللاعبون الصغار (وهم من سكان عالم آخر صامتون متهيجون) يندفعون بغير ضجيج — كالسمك فى حديقة الأسماك — هنا وهناك من أحد جوانب المربع الزجاجى المضئ إلى الجانب المقابل .

وكانت لندا تشاهد الصورة وهى تبسم ابتسامة غامضة تدل على عدم الإدراك . وبدت على وجهها الشاحب المنتفخ الملامح التى ترتسم على وجه السعيد الأبله . وهى تغمض جفنيها الفينة بعد الفينة . وبدت ناعسة لبضع ثوان . ثم تيقظت بشئ من الذعر ، فشهدت أبطال التنس الغرباء الصامتين ، وسمعت أنشودة « عانقنى حتى تخدرنى يا حبيبى » وقد وقعها فوكس ورلتزريانا العجيب ، وأحست بتيار من رائحة الليمون يهب من النافذة فوق رأسها — تيقظت على هذه الأشياء، أو قل تيقظت على حلم يتألف من هذه الأشياء العجيبة بعدما صورتها وزينتها السوما فى دمائها ؛ ثم تبسمت مرة أخرى بسمتها المتقطعة التى لا مغزى لها والتى تنم عن قناعة الطفولة .

فقالت الممرضة : « لا بد لى أن أنصرف الآن ، فعندى مجموعة من الأطفال سوف يُقبلون . وعندى — فوق ذلك — رقم ٣ » ، وأشارت إلى أعلى الجناح « وقد انصرف الآن فى أية لحظة ، فاطمئن هنا. » ثم انصرفت على عجل وفى نشاط جم .

وجلس الهمجى إلى جانب الفراش .

وهمس قائلا : « لندا » وأمسك بيدها .

وعندما سمعت اسمها ينادى التفتت، وأشرقت عيناها الغامضتان بنور المعرفة ، فضغطت على يده ، وتبسمت وتحركت شفتاها ، ثم سقط رأسها إلى الأمام بغتة واستغرقت فى النوم . وجلس يرقبها — يمعن النظر فى جسمها المنهوك ، فيتذكر ذلك الوجه الشاب المشرق الذى انحنى

على طفولته فى مالبى ، وتذكر (وقد أغمض عينيه) صوتها وحركاتها ، وكل ما حدث لهما فى حياتهما معاً ، وتذكر أناشيد الطفولة التى كانت تغنيها له . ما كان أجمل غناءها ! وتذكر تلك الأغانى الصبيانية . ما أعجب سحرها وغرابتها !

ا ، ب ، ج ، فيتامين ء .

الدهن فى الكبد ، والحوت فى البحر .

فأحس بالدمع الحار يتجمع خلف جفنيه وهو يتذكر هذه الكلمات، ويذكر صوت لندا وهى تكررها . ثم تذكر دروس المطالعة : « الشراب فى الإناء ، والقط فوق الحصير » ، كما ذكر الارشادات الأولية لعمال (ب) فى مخزن الأجنة ، والأمسية الطويلة بجوار النار ، أو فوق سطح البيت الصغير فى الصيف ، حينما كانت تقص له تلك الأقاصيص بشأن العالم الآخر خارج منطقة المتوحشين : ذلك العالم الآخر الجميل ! إن ذكر هذا العالم — كذكرى السماء — جنة جميلة فيحاء . ولقد احتفظ بها كاملة لم تمس لم يدنسها الاحتكاك مع الحياة الواقعه فى هذه المدينة الواقعية ، لندن ، وهؤلاء الرجال والنساء الواقعيون المتمدنون .

وسمع ضجة من أصوات خشنة مباغتة ففتح عينيه ، وبعدما مسح دموعه على عجل تلفت حواليه . فاذا بتيار لا ينقطع من ذكور التوائم المتشابهين الذين يبلغون من العمر ثمانى سنوات يتدفق داخل الغرفة . ودخلوا توأما بعد توأم وكأنهم حلم مزعج . ووجوههم — أو قل وجههم المتكرر لأنهم كانوا جميعاً على صورة واحدة — تحدق كالكلاب، كلها أنوف وعيون شاحبة محملقة . وكانوا يرتدون الكاكى ، وأفواههم فاغرة . وولجوا الغرفة وهم يصرخون ويثرثرون . وفى لحظة واحدة

اندس الحارس معهم كالسوسة . وتكأكأوا حول الأسرة ، وتسلقوها وزحفوا تحتها ، وتطلعوا داخل صناديق التلفزيون ، وحركوا وجوههم للمرضى كى يزعجوهم .

وأدهشتهم لندا بل وأزعجتهم . فوقفت شرذمة منهم متجمعين عند مؤخرة سريرها ، وحملقوا مذعورين كأنهم حيوانات غبية متطلعة جابهها أمر مجهول مباغت .

وتحدثوا بأصوات منخفضة مروعة قائلين : انظروا ، انظروا . ما بها ؟ ولماذا هى بدينة جداً ؟

ولم يروا وجهاً كوجهها من قبل . لم يروا وجهاً غير شاب ولا نضر ولم يروا جسما زالت عنه نحافته واستقامته . لقد كانوا جميعاً فى سنوات الموت — بين الستين والسبعين — ولا يزال مظهرهم كالفتيات الصغيرات . أما لندا فقد بدت فى الرابعة والأربعين — بالمقارنة مع هؤلاء — وحشاً مسناً مترهلا مشوهاً .

فهمسوا قائلين : أليست مريعة ؟ أنظروا إلى أسنانها .

وأطل فجأة من تحت السرير توأم وجهه كوجه الكلب ، بين الحائط ومقعد جون ، وبدأ يتطلع فى وجه لندا الناعس .

ثم شرع يتكلم . قال : « إنى أقول . . . » غير أن عبارته انتهت بالصراخ قبل أن تتم . ذلك أن الهمجى قد قبض عليه من بنيقته ، ورفعه بجلاء فوق المقعد ، وضربه بقبضة يده ضربة حادة على أذنه ، ودفعه بعيداً عنه وهو يصيح .

وهرولت لانقاذه كبيرة الممرضات لما طرقت صيحاته مسمعها .

وسألت بحدة : ماذا كنت تصنع به ؟ إنى لا يرضينى أن تضرب الأطفال .

فقال الهمجي بصوت يرتعد من شدة الغضب : إذن فابعديهم عن هذا السرير . ماذا يصنع هؤلاء الأطفال الصغار الوقحون القذرون في هذا المكان ؟ إنه أمر مشين !

« مشين؟ ماذا تعني؟ إنهم يُكيفون على الموت . » ثم قالت وقد أنذرته بشراسة شديدة قائلة : واعلم أنك لو تدخلت في أمر تكييفهم بعد هذا فسأرسل في طلب الحمالين كي يقذفوا بك بعيداً عن هذا المكان.

ونهض الهمجي على قدميه وخطا نحوها خطوتين . وقد نمت حركاته وملامح وجهه على التهديد الشديد ، فاضطرت الممرضة إلى أن تتراجع مرتاعة مذعورة . ولكنه كبح جماح نفسه بجهد عظيم ، وعاد إلى مكانه وجلس إلى جوار السرير دون أن ينبس ببنت شفة .

وقالت الممرضة وقد اطمأنت ولكن بعدما اهتزت كرامتها وتزعزعت قليلا : « لقد أنذرتك فاحذر » . ولكنها — مع ذلك — أبعدت التوأمين الفضوليين وأشركتهم في لعبة « صيد المشبك » التي قامت بتنظيمها إحدى زميلاتها في الجانب الآخر من الغرفة .

وقالت للممرضة الأخرى : « أسرعي الآن يا عزيزتي إلى تناول الفنجان المقرر من محلول الكافيين . » وبهذا الأمر مارست سلطتها فاستردت ثقتها في نفسها وتحسن شعورها. ثم نادت : والآن أيها الأطفال !

وتحركت لندا في عسر شديد ، وفتحت عينيها لحظة ، ونظرت حولها نظرة غامضة ، ثم استرسلت في النوم مرة أخرى . وحاول الهمجي جاهداً وهو جالس إلى جوارها — إنه يسترد حالته العقلية التي كان عليها منذ لحظات . وكرر لنفسه هذه العبارة « ا ، ب ، ج ، فيتامين ء » كأن هذه الألفاظ تعويذة ترد الحياة إلى الموتى . ولكن التعويذة كانت عديمة الأثر . فقد أبت بتاتاً أن تعود إلى ذاكرته الذكريات

الجميلة ، ولم يرد على خاطره غير ذكريات الغيرة والقبح والشقاء الكريهة الممقوتة . ذكر بوبي والدم يتقطر من كتفه الجريحة ، ولندا وهي مستغرقة في نوم قبيح مرذول والذباب يطن حول المسكال المسكوب فوق الأرض إلى جانب السرير ، والأولاد ينادون تلك الأسماء وهي تمر . . . كلا . كلا ! فأغمض عينيه وهز رأسه منكراً هذه الذكريات بجهد شاق . « ا ، ب ، ج ، فيتامين ء . . . » لقد حاول أن يذكر تلك الأيام التي كان يجلس فيها على ركبتيها ، وتطوقه بذراعيها وتغني له ، وتردد الغناء ، وتهزه ثم تهزه حتى ينام ، وهي تردد هذه الأنشودة « ا ، ب ، ج فيتامين ء ، فيتامين ء ، فيتامين ء . . . »

وارتفعت أنشودة فوكس ولتزريانا الخارقة حتى أصبحت قطعة موسيقية . عالية باكية ، وتلاشت فجأة رائحة الليمون — في نظام الروائح المتتابعة — وحلت محلها رائحة هندية قوية أخرى . واهتزت لندا ، ثم تيقظت ، وحدقت بضع ثوان متحيرة في اللاعبين في الأشواط النهائية ، ثم رفعت وجهها ، واستنشقت الهواء بعطره الجديد مرة أو مرتين ، وابتسمت فجأة — ابتسامة تنم عن سعادة الطفولة .

وأغمضت عينيها ، وتمتمت قائلة : « بوبي ! إني أحبه حباً جماً ، إني ... »
وتنهدت واسترخت فوق الوسادات .

وتكلم الهمجي متوسلا . قال : « لندا ! ألا تعرفينني ؟ » لقد حاول جهده وبذل ما في وسعه . فلماذا لم تسمح له بالنسيان ؟ وضغط على يدها المسترخية بشيء من العنف كأنه يريد إرغامها على التخلص مما كانت تحلم به من متع غير بريئة ، أو من هذه الذكريات الوضيعة الكريهة — كأنه يريد أن يعيدها إلى الحاضر وإلى الواقع : إلى الحاضر المزعج والواقع المر — ولكنه رفيع، ولكنه خطر، ولكنه هام

جداً . والسبب هو اقتراب وقوع ذلك الأمر عينه الذى جعله الواقع مخيفاً .

— ألست تعرفيننى يا لندا ؟

وأجابته بضغط يدها الخفيف الذى أحس به . وانحدر الدمع من عينيه . وانحنى فوقها وقبلها .

وتحركت شفتاها وهمست ثانية بقولها : « بوبى ! » وكأن أحداً ألقى فى وجهه دلواً مليئاً بالروث .

وغلى دمه بالغضب . وكبحت إرادته للمرة الثانية . ووجدت عاطفة الحزن عنده مخرجاً آخر ، وتحولت إلى ثورة ألمية .

فصاح قائلا : « ولكنى جون . أنا جون ! » وفى بؤسه وثورته أمسك فعلا بكتفها وهزها .

ففتحت لندا عينيها فى الحال ، ونظرت إليه وعرفته — « جون » — لكنها غمرت وجهه الواقعى ويديه العنيفتين فى عالم خيالى — غمرته فى بحر من العطر المندى المستحدث والورلتزر الخارق ، والذكريات المتغيرة والاحساسات التى تبدلت تبدلا عجيباً ، والتى كان يتألف منها عالم أحلامها . عرفت أنه جون ابنها لكنها تصورت أنه دخيل على مالبى الفردوسية التى كانت تنفق فيها عطلة السوما مع بوبى . وأغضبه أنها تحب بوبى . وكان يهزها لأن بوبى كان هناك فى السرير — كأن هناك خطأ من الأخطاء ، وكأن الناس المتمدنين جميعهم لم يفعلوا مثل ذلك ؟ « إن كل فرد يتعلق بكل . . . » وانخفض صوتها بغتة حتى أصبح كنقيق الضفادع الخافت الذى لا يكاد يسمع . وانفرج فوها ، وحاولت مستيئسة أن تملأ رئتيها بالهواء . غير أنها كانت كمن نسى كيف يتنفس . وحاولت أن تصيح — ولكن صوتاً لم يرتفع منها . وتبين من فزع عينيها المحملقتين أنها كانت تعانى ألماً مبرحاً . وارتفعت

يداها إلى حلقها ، ثم خدشت بمخالبها الهواء — الهواء الذى لم تستطع بعد أن تتنفسه ، الهواء الذى لم يكن له — بالنسبة إليها — وجود .

ونهض الهمجى على قدميه ، وانحنى فوقها وسألها متوسلا : « ما هذا يا لندا ، ما بك ؟ » وكأنه يطالب لنفسه الطمأنينة .

ورمقته بنظرة مليئة بالرعب الشنيع ، وكأنها بهذه النظرة المريعة تلقى عليه اللوم الشديد . وحاولت أن تنهض فى فراشها ، ولكنها سقطت على الوسادات . وأصبح وجهها شديد التشويه وشفتاها زرقاوين

فالتفت الهمجى خلفه ثم انطلق إلى الجانب الآخر من الجناح .

وصاح قائلا : « أسرعى ، أسرعى ! »

وكانت كبيرة الممرضات واقفة وسط حلقة من التوائم تلعب « صيد المشبك » فالتفتت حولها . واستولت عليها للحظة الأولى دهشة أعقبها فى الحال شئ من عدم الرضا . وقالت وهى مقطبة الجبين : « لا تصح واذكر صغار الأطفال . أنك قد تفسد تكييف . . . ولكن ما هذا الذى تصنع ؟ » وكان قد شق طريقه وسط الحلقة ، فصاح به أحد الأطفال قائلا : « حذار ، حذار » ، وأمسك جون بكبيرة الممرضات من كمها وقال لها : « اسرعى ، اسرعى ! » وسحبها وراءه ثم قال : اسرعى! إن شيئاً قد حدث . لقد قتلتها .

ولما عادا إلى طرف الجناح كانت لندا قد فارقت الحياة .

ووقف الهمجى لحظة فى صمت بارد ، ثم جثا على ركبتيه إلى جانب الفراش ، وأخفى وجهه بين يديه ، ولم يتمالك نفسه من شدة البكاء .

ووقفت الممرضة لا تدرى ماذا تصنع ، تنظر تارة إلى هذا الجاثى إلى جوار السرير (وهو منظر مشين) ، وتارة أخرى إلى التوائم وهم أطفال مساكين) الذين توقفوا عن اللعب وحملقوا من

جانب الجناح الآخر بكل عيونهم وأنوفهم فى هذا المنظر المثير الذى كان يمثل حول السرير رقم ٢٠ . هل تتحدث إليه ؟ هل تحاول أن تعيده إلى جادة السلوك المهذب ؟ هل تذكره بالمكان الذى هو فيه ؟ وبالضرر المميت الذى قد يسببه لهؤلاء الأبرياء المساكين ؟ إنه قد يفسد تكييفهم على الموت تكييفاً صحياً بهذا الصياح المقزز — كأن الموت شئ مريع ، وكأن الفرد الواحد قد تكون له كل هذه الأهمية ! إن عمله هذا قد يبعث فيهم أسوأ الآراء عن الموضوع ، وقد يفسد عليهم أمرهم فيستجيبون بطريقة خاطئة جداً لا تتفق البتة ومصلحة الجماعة .

وتقدمت إلى الأمام خطوة ولمست كتفه وقالت له بصوت خافت غاضب : « هلا تستطيع أن تحسن السلوك ؟ » لكنها تلفتت حواليها فوجدت أن ستة توائم قد نهضوا على أقدامهم وتقدموا إلى الجانب الآخر من الجناح . وانحلت دائرتهم . وبعد لحظة . . . كلا . إن الخطر جسيم . والمجموعة كلها قد تتقهقر ستة أشهر أو سبعة فى عملية التكييف . فهرولت عائدة نحو الأطفال المهددين الذين عهد بهم إليها .

وسألت بنغمة مرتفعة بهيجة . قالت : من منكم يريد قطعة من الشكلاتة المثلجة ؟

فصاح أفراد الجماعة البوكانوفسكية كلهم فى صوت واحد قائلين : « أنا » . ونُسى السرير رقم ٢٠ كل النسيان .

وأخذ الهمجى يكرر لنفسه قوله : « يا إلهى ، يا إلهى . . . » ولم يلفظ بغير هذه الكلمة وهو فى فوضى الحزن وتأنيب الضمير الذى يملأ فؤاده . وهمس ثانية بصوت مرتفع قائلا : إلهى ، يا إلهى . . .

وأجابه صوت قريب منه جداً ، واضح ، أجش ، يتميز وسط أغانى ورلتزر الخارقة ، قائلا : ما هذا الذى يقول ؟

وحملق الهمجى بشدة وعنف وكشف عن وجهه وتلفت حواليه ، فرأى خمسة توائم يرتدون الكاكى ، يحمل كل منهم فى يمناه القطعة التى تبقت من أصبع الشكلاتة المثلجة الطويل ، ووجوههم المتشابهة ملطخة على صور مختلفة بسائل الشكلاتة . وكانوا يقفون فى صف واحد يحملقون فيه كالكلاب .

والتقت عيونهم بعينيه وتجهموا جميعاً فى آن واحد . وأشار أحدهم بقطعة الشكلاتة الباقية فى يده . وسأل قائلا : هل ماتت ؟

وحدق الهمجى فيهم لحظة وهو صامت . ثم نهض على قدميه فى صمت ، وسار نحو الباب مبطئاً فى صمت كذلك .

وودد التوأم المُطلعة سؤاله وهو يركض إلى جانبه : هل ماتت ؟

فألقى عليه الهمجى نظرة من عليائه ودفعه بعيداً عنه وهو لا يزال فى صمته . وخر التوأم على الأرض وبدأ يعوى فى الحال . غير أن الهمجى لم يعره التفاتاً .

الفصل الخامس عشر

كانت هيئة الخدم فى مستشفى بارك لين للموتى تتألف من مائة واثنين وستين فرداً من طراز (د) مقسمين إلى مجموعتين بوكانوفسكيتين تتكون إحداهما من أربع وثمانين أنثى حمراء الرأس ، والأخرى من ثمانية وسبعين توأماً ذكراً أسمر اللون من ذوى الرؤوس المستطيلة . وكانت الطائفتان تجتمعان فى السادسة عندما تنقضى ساعات العمل عند مدخل المستشفى ، يقدم إليهما مقرر السوما وكيل نائب الخازن .

وخرج الهمجى من المصعد وتوسطهم . غير أنه كان يفكر فى أمر آخر . كان يفكر فى الموت وفى آلامه وندمه . وبدأ يشق طريقه خلال الزحام بصورة آلية بغير وعى .

— من تدفع ؟ وأين تظن أنت ذاهب ؟

ولم يسمع غير صوتين اثنين أحدهما صرير مرتفع والآخر هدير منخفض ، وكلاهما يخرج من عدد عديد من الحلوق المنفصلة . ولم يلتفت نحوه غير وجهين اثنين غاضبين أحدهما حليق كالقمر به نمش حوله هالة برتقالية ، والآخر هزيل كوجه الطائر ذى المنقار وقد نبت فيه الشعر ليومين ، وقد تكرر الوجهان إلى مالا نهاية كأنهما صورتان فى عدد من المرايا . وأيقظته من غفوته كلماتهم وغمزات مرافقهم الحادة فى ضلوعه . فتنبه مرة أخرى إلى الحقيقة الخارجية ،

وتلفت حواليه ، وأدرك ما وقعت عليه عيناه — أدركه وقد تزايلت أعضاؤه من الفزع والتقزز ، وعرف أنه الهذيان الذى يعاوده صباح مساء ، وكابوس من المتشابهات المتجمعة التى لا يتميز أحدها عن الآخر . توائم لا تنتهى . . . لقد تجمعوا كالديدان حول لندا وهى تقضى نحبها بصورة غامضة وتتابعوا واحداً فى إثر الآخر . وها هو ذا الآن يشهد الديدان مرة أخرى ، ولكنها أضخم حجماً ، وأكبر نمواً ، وهم يقطعون عليه حزنه وندمه . فتوقف عن المسير ، وبعينين فيهما الحيرة والفزع حدق حوله فى الجمهور الذى يرتدى الكاكى ، وتوسطه وهو يعلوهم جميعاً برأسه كله . « كم مخلوق طيب هنا ! ما أجمل الإنسان ! ياله من عالم طريف . . . » لقد كانت هذه الكلمات ترن فى أذنه وتسخر منه بازدراء .

وارتفع صوت يقول : توزيع السوما ! نرجوكم أن تحتفظوا بالنظام . هلموا .

وفُتح أحد الأبواب ، وأدخلت فى مكان الاجتماع منضدة ومقعد . وكان المنادى شاب خفيف الروح من طراز (ا) ، وكان قد دخل وهو يحمل صندوق نقد من الحديد الأسود . وصدرت من التوائم المنتظرة تمتمة تنم عن الرضا . ونسوا كل ما يتعلق بالهمجى ، وركزوا الآن اهتمامهم فى الصندوق الأسود الذى وضعه الشاب فوق النضد ، وشرع الآن يفضه . ورفع الغطاء .

وصدرت من المائة واثنين وستين فرداً جميعاً فى صوت واحد صيحة تدل على الدهشة كأنهم يشاهدون الصواريخ النارية .

وأخرج الشاب ملء قبضة يده من صناديق الحبوب الصغيرة ، ثم قال بنغمة حاسمة : الآن أرجوكم أن تتقدموا ، واحداً فى إثر الآخر ولا يدفع بعضكم بعضاً .

فتقدم التوائم متتابعين غير متدافعين . وجاء ذكران أولا ، ثم أنثى ، ثم ذكر آخر ، ثم ثلاث أناث ، ثم . . .

ولبث الهمجي يشاهد ما يجرى « ياله من عالم طريف ، ياله من عالم طريف ! . . . » وكأن هذه الكلمات الرنانة قد تغيرت نغمتها فى ذهنه . لقد كانوا يسخرون منه وهو فى شقوته وندمه ، و يزدرونه بنغمة شنيعة تدل على الاستهزاء والسخرية ! وقد ضحكوا ضحكات شيطانية ، وأصروا على القذارة الوضيعة ، وذلك الكابوس القبيح المقزز . والآن ينفخون فى الأبواق بغتة للقتال . « ياله من عالم طريف ! »

كانت ميراندا تنادى بامكان الجمال ، وبامكان تحويل الكابوس نفسه إلى شئ بديع نبيل . « ياله من عالم طريف ! » تلك عبارة تحدٍّ ، وذلك أمر .

وصاح وكيل نائب الخازن محنقاً . قال : « لا يدفع بعضكم بعضاً » وأنزل غطاء الصندوق محدثاً صوتاً وقال : سأكف عن التوزيع مالم تحسنوا السلوك .

وزمجر الأفراد من طراز (ء) وتدافعوا قليلا ثم سكنوا وكان الوعيد مجدياً . فقد راعهم أن يحرموا من السوما .

فأعاد الشاب فتح الصندوق وقال : هذا حسن .

لقد كانت لندا مستعبدة ، ثم ماتت . وسوف يعيش الآخرون أحراراً ، وسوف تتزين الدنيا . هذا إصلاح بل واجب . وأشرقت الحقيقة على الهمجي فجأة وتبين له ما ينبغى له أن يفعل . وكأن نافذة قد فتحت ، أو ستاراً أزيح .

وقال وكيل الخازن : والآن . . .

فتقدمت إحدى الاناث خطوة إلى الأمام .

ونادى الهمجي بصوت رنان مرتفع قائلا : قفوا ، قفوا !

وشق طريقه إلى المنضدة ، وحدقت فيه الدالات فى دهشة شديدة .

وقال نائب وكيل الخازن فى صوت خافت جداً : « يا لفورد . إنه الهمجي ! » وأحس بالفزع الشديد .

وصاح الهمجي جاداً . قال : « أرجوكم أن تنصتوا . عرونى آذاناً مصغية . . . » إنه لم يخاطب الجمهور من قبل قط ، فشق عليه الآن جداً أن يعبر عما أراد أن يقول : لا تأخذوا هذه المادة المريعة . إنها سم ، إنها سم .

فقال له نائب وكيل الخازن وهو يبتسم له ويعطف عليه : أيها الهمجي ، هل تسمح لى أن . . .

سم للروح كما هو سم للبدن .

« أجل . ولكن أرجوك أن تدعنى أواصل التوزيع . إنك رجل طيب . » وربت على ذراع الهمجي برفق يشوبه الحرص كأنه يربت على حيوان مفترس شرير وقال له : أرجو أن تدعنى . . .

فصاح الهمجي : كلا !

— ولكن انظر هنا أيها الشيخ . . .

— أقذفوه جميعاً . هذا السم المريع .

وكان لهذه الكلمات « أقذفوه جميعاً » أثر قوى فى وعى الدالات واخترقت طبقات سميكة من الجهل . وعلت زمجرة الجمهور الغاضب .

فقال الهمجي وقد التفت إلى القوائم : لقد جئت لآتيكم بالحرية . جئت . . .

ولم يعد نائب وكيل الخازن يسمع شيئاً ، فقد انسل من المكان وكان يبحث عن رقم فى دفتر التلفون .

لخص برنارد حديثه بهذه العبارة : إنه ليس فى بيته ، وليس فى بيتى ولا بيتك . وليس فى الافروديت ولا فى مركز الكلية . فالى أين باترى ذهب ؟

فهز هلمهلتز كتفيه . لقد عادا من عملهما وهما يتوقعان أن يجدا الهمجى بانتظارهما فى أحد أماكن اللقاء التى ألفاها ، ولكنهما لم يعثرا له على أثر . وقد ضايقهما ذلك لأنهما كانا يريدان أن يهطعا إلى بيارتز فى سيارة هلمهلتز الخفيفة ذات المقاعد الأربعة . وسوف يفوتهما موعد العشاء إذا لم يعد سريعاً .

فقال هلمهلتز : سوف نعطيه خمس دقائق أخرى ، فاذا لم يعد خلالها فسوف . . .

وقاطعه دق جرس التلفون ، والتقط السماعة وقال : « هلو . هأنذا أتكلم » . وأنصت فترة طويلة ثم أخذ يسب ثم قال : أنا آت على الفـور .

فسأله برنارد : مافى الأمر ؟

فقال هلمهلتز : هذا رجل أعرفه فى مستشفى باركلين . الهمجى هناك ، والظاهر أنه جن . والأمر عاجل على أية حال . هل ترافقنى؟

فهرولا معاً فى الدهليز يقصدان المصاعد .

وكان الهمجى يقول لهم وهم يدخلون المستشفى : « ولكن هل تحبون أن تكونوا عبيداً ؟ » وتدفق الدم فى وجهه واتقدت عيناه من الهياج والحنق . ثم قال : « هل تحبون أن تكونوا أطفالا ؟ نعم ، أطفالا تبكون وتتقيأون ؟ » وقد أحنقه غباؤهم الوحشى فبدأ يقذفهم بالإهانات وهو الذى جاء لانقاذهم . ونفذت الإهانات خلال غباوتهم السميكة ، فحدقوا فيه وقد بدا فى عيونهم مانم عن الاستياء الثقيل الكئيب .

فصاح بهم صيحة عالية وقال : « نعم تتقيأون ! » ونسى الآن همه وندمه ، وعطفه وواجباته ، وتشبع بالكره الشديد لهؤلاء الوحوش المنحطين عن البشر . « هلا تريدون أن تكونوا رجالا أحراراً ؟ هلا تفهمون ما الرجولة وما الحرية ؟ » وجعله الغضب فصيحاً ، فتدفق الكلام تدفقاً . وكرر قوله : « هلا تريدون ذلك ؟ » غير أنه لم يظفر بجواب لهذا السؤال . وواصل حديثه متجهماً . قال : « إذن فلأعلمكم وسوف أحرركم سواء أردتم أو لم تريدوا . » وفتح إحدى النوافذ بقوة ، وهى تطل على فناء المستشفى الداخلى ، ثم بدأ يقذف فى الفضـاء بصناديق أقراص السوما الصغيرة قبضة بعد قبضة .

وصمت الجمهور الذى يرتدى الكاكى لحظة ، وقد تحجروا دهشة وفزعاً لمنظر هذا الانتهاك الفاجر للحرمات .

وهمس برنارد وقد حدق فيه بعينين واسعتين قائلا : « إنه مجنون . سوف يقتلونه . سوف . . . » وارتفعت من الجماهير صيحة عالية ، مفاجئة . وقد دفعتها حركة خفيفة نحو الهمجى مهددين . فقال برنارد ، وقد التفت ناحية أخرى : كان فورد فى عونه .

فقال هلمهلتز : « فورد فى عون من كان فى عون نفسه . » وضحك ضحكة ابتهاج فعلى ، وشق طريقه وسط الجماهير .

فصاح الهمجى قائلا : « كونوا أحراراً ، كونوا أحراراً . » واستمر يقذف السوما بيد واحدة فى الفضاء . وأخذ يلكز باليد الأخرى وجوه المعتدين عليه ، تلك الوجوه التى لا يتميز أحدها عن الآخر . « كونوا أحراراً . » وأدرك فجأة أن هلمهلتز صديقه الطيب القديم كان إلى جواره . واستمر يلكز ويقول : « لقد صاروا رجالا فى النهاية ! » وظل بين الفينة والفينة يقذف السم خلال النافذة المفتوحة وقد ملأ

به قبضة يده مرات عدة . « نعم ، رجال ! رجال ! » ولم يبق شئ من السم . فالتقط الصندوق وأطلعهم على فراغه المظلم وقال :إنكم أحرار !

وأعول الدالات وهاجموه بغضب مضاعف .

ووقف برنارد متردداً فى حاشية المعركة ثم قال : « لقد انتهت حياتهم . » ودفعه باعث مباغت ، فهرع لمعونتهم . ثم راجع نفسه ووقف. غير أنه خجل فخطا ثانية إلى الأمام . وراجع نفسه مرة أخرى ووقف متألماً من هذا التردد المذل — يخشى أنهم قد يُقتلون إذا لم يقدم لهم يد المعونة ، وأنه هو نفسه قد يقتل لو فعل — وفى تلك اللحظة جاء رجال الشرطة مسرعين . عيونهم محملقة ، وأنوفهم كأنوف الخنازير وهم يلبسون الأقنعة التى تقيهم الغازات . فحمداً لفورد !

فانطلق برنارد للقائهم . ولوح بذراعيه . وكانت تلك حركة لها قيمتها — وظن أنه قام بعمل شئ ما . وصاح عدة مرات : « المعونة ، المعونة ! » وعلا صوته تدريجاً كى يتوهم المعونة .

فأبعده رجال الشرطة من طريقهم وباشروا عملهم . ونشر بخار السوما فى الفضاء سحباً متكاثفة ثلاثة رجال يحملون آلات للرش شدت إلى أكتافهم . وأخذ اثنان آخران يعملان حول صندوق الموسيقى المركبة الخفيف . وشق طريقهم وسط الجمهور أربعة آخرون يحملون المسدسات المائية محشوة بمخدر قوى . وأخذوا يصرعون أشد المقاتلين افتراساً ويخدرونهم وهم يطلقون الماء من المسدسات بطريقة منظمة دفعة بعد دفعة .

وصاح برنارد قائلا : « أسرعوا ، أسرعوا ! إنهم سوف يقتلون إن لم تعجلوا . إنهم سوف . . . أوه ! » وقد أغضبت ثرثرته هذه أحد

رجال الشرطة فأطلق عليه دفعة من مسدسه المائى . ووقف برنارد لحظة أو لحظتين وقد جاشت معدته وترنح على ساقيه كأنهما فقدا العظام والأعصاب والعضلات ، فأصبحتا عصاتين من الهلام — بل ومن الماء فى آخر الأمر . فخر مكوماً على الأرض .

وبدأ يتكلم بغتة صوت صادر من صندوق الموسيقى المركبة . وذلك هو صوت العقل ، وصوت الشعور الطيب . وانفضت صحيفة الآثار الصوتية ونطقت عن الخطاب الصناعى رقم ٢ (بالقوة المتوسطة) الخاص بمناهضة الثورات . وصدر الخطاب رأساً من أعماق قلب لا وجود له . وقال : « إخوانى ، أصدقائى ! » بنغمة شجية تنطوى على تأنيب بالغ فى الرقة ، حتى أن عيون رجال الشرطة أنفسهم امتلأت لحظة بالدموع خلف الأقنعة الواقية من الغازات . ثم قال الصوت : « ما معنى هذا؟ لماذا لستم جميعاً سعداء طيبين فى عشرتكم؟ سعداء طيبين ، فى سلام آمنين . » ثم ارتعش الصوت وخفت حتى بات همساً ثم تلاشى حيناً ما . ثم عاد يقول فى حماسة وشغف : أنى أحب لكم السعادة . وإنى لا أحب لكم أن تكونوا طيبين ! فأرجوكم وألح فى الرجاء أن تكونوا كذلك وأن . . .

وبعد دقيقتين كان للصوت وبخار السوما أثرهما . فتبادل الدالات القبلات والدمع ينهمر من عيونهم وتعانقوا — كل ستة توائم دفعة واحدة فى عناق شامل . وحتى هلمهلتز والهمجى كانا يبكيان . وجيء من المخزن بمدد جديد من صناديق الحبوب ، ووزعت الأقراص على عجل من جديد ، وبعدئذ تشتت التوائم على نغمة الوداع الموسيقية المشوبة بالمحبة الحارة ، ينفطرون من البكاء حتى توشك قلوبهم أن تتحطم . « وداعاً يا أعز صدقائى . يحفظكم فورد !

وداعاً يا أعز أصدقائى . . يحفظكم فورد . وداعاً يا أعز . . . . »

ولما اختفى آخر الدالات أوقف أحد رجال الشرطة التيار ، فسكت الصوت الملائكى .

وسأل رئيس الشرطة قائلا : « هل لكم أن تنصرفوا هادئين . أو لابد لنا من عملية التخدير ؟ » وصوب مسدسه المائى مهدداً .

فأجابه الهمجى : « سوف ننصرف هادئين . » وهو يمس على التعاقب مساً خفيفاً شفته الجريحة ، وعنقه المخدوش ، ويسراه المعضوضة .

وأومأ هلمهلتز برأسه مؤيداً ، وهو لا يزال يضع منديله فوق أنفه الدامى .

وتيقظ برنارد واسترد قدرته على استخدام قدميه ، وقد آثر أن يتحرك فى هذه الآونة نحو الباب متخفياً جهد المستطاع .

ونادى رئيس الشرطة قائلا : « أنت هناك ! » وأسرع إلى الجانب الآخر من الغرفة شرطى مقنع كالخنزير ، وألقى يده على كتف الشاب .

فالتفت برنارد وعليه سيما البراءة المشوبة بالحنق . هل كان يفر من الموقف ؟ إنه لم يحلم بذلك . وقال لرئيس الشرطة : إنى لا أستطيع أن أتصور لماذا تريدوننى ؟

— ألست صديقاً للمساجين ؟

فتردد برنارد فى الإجابة ولكنه لم يستطع الانكار فسأله : ولماذا لا ينبغى لى أن أكون ؟

فقال له رئيس الشرطة : « إذن فتعال . » وتقدم صوب الباب نحو سيارة الشرطة المنتظرة .

الفصل السادس عشر

كانت الغرفة التى دخلها ثلاثتهم مكتب المراقب .

وقال لهم الساقى (ح) : « سوف يأتيكم سيادته بعد لحظة . » وتركهم وحدهم وانصرف .

فضحك هلمهلتز ضحكة عالية وقال : « إن هذا الاجتماع أشبه بحفلة محلول الكافيين منه بالمحاكمة . » واستوى على أفخر كرسى هوائى . ثم قال : « تشجع يا برنارد . » وقد وقع بصره على وجه صاحبه الأخضر التعس . غير أن برنارد لم يتشجع . ولم يحر جواباً ، بل ولم يلتفت إلى هلمهلتز ، بل سار نحو أسوأ الكراسى فى الغرفة وجلس عليه . وقد عنى بانتقائه وعنده أمل غامض أنه بذلك يفت — على صورة ما — من حدة غضب السلطات العليا .

وأخذ الهمجى فى غضون ذلك يجوس خلال الغرفة قلقاً . وتطلع بشغف سطحى غامض إلى الكتب فى الرفوف ، وإلى صحائف الآثار الصوتية ، وإلى اسطوانات آلات القراءة ، وقد وضعت كل منها فى عين مرقومة . وكان على المنضدة تحت النافذة مجلد ضخم مغلف بجلد بديع أسود طرى ، ومختوم بحرف T الذهب الكبير . فالتقط الكتاب وفتحه . « حياتى وعملى لمؤلفه فورد » وقد نشرت الكتاب فى دتروا جمعية نشر المعارف الفوردية . وتصفح الكتاب ببطء شديد ، وقرأ عبارة هنا وفقرة هناك ، وأوشك أن يقرر أن الكتاب لا يشوقه . وعندئذ فتح الباب ، ودب فى الغرفة المراقب العالمى المقيم لغرب أوربا .

وصافح مصطفى مند ثلاثتهم ، ولكنه وجه الخطاب إلى الهمجى قائلا :إذن أنت لا تغرم بالمدنية أيها الهمجى .

فالتفت إليه الهمجى ، وكان قد تأهب للكذب والهياج ، ولأن يلزم الصمت فى اكتئاب . غير أنه آثر الصدق والصراحة لما اطمأنت نفسه إلى الذكاء وروح الفكاهة الباديين فى وجه المراقب فهز رأسه قائلا : « كلا ! »

فذعر برنارد وأصابه الفزع . ماذا يظن المراقب ؟ وأزعجه أن تنسب إليه صداقة رجل قال إنه لا يحب المدنية — وقد صرح بذلك إلى المراقب دون الناس أجمعين ! وبدأ يقول : « ولكن يا جون... » غير أن نظرة من مصطفى مند أعادته إلى الصمت والهوان .

واستمر الهمجى فى اعترافاته قائلا : هناك بالطبع أشياء جميلة جداً . فتلك الموسيقى التى تملأ الجو مثلا . . .

— فأحياناً تطن فى أذنى آلاف الآلات الرنانة ، وأحياناً أخرى ترن فيهما الأصوات .

وتهلل وجه الهمجى بشراً وسروراً وسأل قائلا : هل قرأته كذلك ؟ كنت أحسب أن هذا الكتاب لم يعرفه أحد فى انجلترا .

فأجابه بقوله : « يكاد لا يعرفه أحد . وأنا أحد القلائل الذين يعلمون به . إنه محظور . ولكن بما أنى أسن القوانين هنا فأنا أستطيع كذلك أن أخرقها ، وذلك بغير عقوبة يا مستر ماركس . » والتفت إلى برنارد وقال له : وهذا ما لا تستطيعه أنت .

فازداد برنارد شقاء ويأساً .

وسأل الهمجى قائلا : « ولكن لماذا تحظرونه . » وقد ثارت أعصابه لأنه لاقى رجلا قرأ شكسبير فنسى فى تلك الآونة كل أمر آخر .

وهز المراقب كتفيه وقال : لأنه قديم . وذلك هو السبب الرئيسى . إننا هنا لا ننتفع بالأشياء القديمة .

— حتى إن كانت جميلة ؟

— وبخاصة إن كانت جميلة . فالجمال جذاب ، ونحن لا نحب أن ينجذب الناس إلى الأشياء القديمة . إنما نريدهم أن يحبوا الأشياء الجديدة .

« لكن الأشياء الجديدة مملة مزعجة . كتلك المسرحيات التى لا ترى فيها سوى الطائرات المحلقة والتى « تحس » فيها بقبلات الناس . » وقطب جبينه عابساً ثم قال : « أولئك قردة وماعز ! » ولم يجد وسيلة كافية للتعبير عن كراهيته وازدرائه غير هذه الألفاظ التى تفوه بها عطيل .

فتمتم المراقب مقاطعاً إياه وقال : هى على أية حال حيوانات أليفة جميلة .

— لماذا لا يشهدون « عطيلا » بدلا من ذلك ؟

— قلت لك إنها قديمة . وهم — فوق ذلك — لا يفقهونها .

نعم ذلك حق ، وتذكر كيف كان هلمهلتز يسخر من « روميو وجوليت » وسكت فترة ثم قال : إذن فليشاهدوا شيئاً جديداً يشبه عطيلا ، ويستطيعون إدراكه .

فرد عليه هلمهلتز وقد شق بقوله صمتاً طال أمده . قال : هذا ما أردنا جميعاً أن نكتب .

وقال المراقب : وهذا لن تكتبوه قط ، لأنه لو كان فعلا شبيها بعطيل فلن يفقهه أحد مهما يكن جديداً . ولو كان جديداً فلا يمكن أن يشبه عطيلا .

فقال هلمهلتز : « لماذا ؟ نعم لماذا ؟ » وقد نسى هو أيضاً حقيقة الموقف التى لا تسر ، ولم يذكرها غير برنارد وقد اخضر وجهه من القلق والخوف. وتجاهله الآخرون وكرروا سؤالهم : لماذا ؟

« لأن عالمنا يختلف عن عالم عطيل . إنك لا تستطيع أن تصنع السيارات الشعبية بغير صلب — ولن تستطيع أن تكتب المآسى بغير قلق اجتماعى . إن العالم اليوم مستقر ، والناس سعداء ، يظفرون بما يريدون ، ولا يريدون قط ما لا يستطيعون الظفر به . إنهم أغنياء ، آمنون ، لا يمرضون قط ولا يخشون الموت . ينعمون بجهلهم العواطف والشيخوخة ، لا يُرزأون بالأمهات والآباء ، ليست لهم زوجات ولا أطفال ولا عاشقون يحبونهم حباً جما . وقد تكيفوا بحيث لا يسعهم فعلا إلا أن يسلكوا كما ينبغى لهم أن يفعلوا . وإذا ساء أمر من الأمور فهناك السوما التى قذفت بها من النافذة باسم الحرية أيها الهمجى . » ثم ضحك وقال : نعم الحرية ! لقد كنت تحسب أن الدالات تعرف ماهى ! والآن تريدهم أن يفقهوا « عطيلا » يا بنى العزيز !

وصمت الهمجى برهة وأصر على عناده وقال : ولكن « عطيلا » — برغم ذلك — مسرحية جميلة . إنها خير من تلك الصور المحسة .

فوافقه المراقب قائلا : بالطبع هى كذلك . ولكن ذلك هو الثمن الذى ندفعه فى سبيل الاستقرار . ليس أمامك إلا أن تختار أحد أمرين : إما السعادة ، وإما ما تعود الناس أن يسموه الفن الرفيع . ولقد ضحينا بالفن الرفيع . وعندنا بدلا منه الصور المحسة وأرغن العطور .

— ولكنهما لا يعنيان شيئاً .

— إنهما يعنيان نفسهما . ويعنيان للمستمعين كثيراً من الاحساسات المستحبة .

— ولكن الذى يرويهما أبله .

فضحك المراقب وقال : إنك لم تتأدب لصديقك يا مستر واطسن . أن أحد مهندسى العواطف البارزين عندنا . . .

فقال هلمهلتز مكتئباً : لكنه مصيب . إنك إن أردت تكتب وليس لديك ما تقول . . .

— بالضبط . ولكن ذلك يقتضى أشد العبقريات نبوغاً . إنك تصنع الطائرات الشعبية بأدنى حد من الصلب — والقطع الفنية من لا شئ البتة سوى مجرد الاحساس .

فهز الهمجى رأسه وقال : إن ذلك كله يبدو لى غاية فى الشناعة .

— إنه بالطبع يبدو لك كذلك . لأن السعادة الحقيقية تبدو قذرة إذا قورنت بمضاعفة التعويض عن الشقاء . وليس الاستقرار بالطبع براقاً كعدم الاستقرار . وليس فى القناعة مايبهر العين مثل النضال الشديد فى وجه الكوارث ، وليس فيها ما يخطف البصر مثل مكافحة الاغراء ، أو الهزيمة القاضية أمام الشك والعاطفة . إن السعادة لا تكون عظيمة إطلاقاً .

فصمت الهمجى برهة ثم قال : « أظن ذلك ، ولكن لابد أن تبلغ من السوء مبلغ هؤلاء التوائم . » ثم فرك يده فوق عينيه كأنه يحاول أن يزيل ذكرى صورة تلك الصفوف الطويلة من الأقزام المتشابهة ، عند المناضد المحتشدة ، تلك القطعان من التوائم المتتابعة واحداً بعد الآخر عند مدخل محطة برنتفورد للقطار الذى يسير على قضيب واحد ، تلك الديدان البشرية المحتشدة حول فراش سوت لندا ، ذلك الوجه المتكرر إلى مالا نهاية من المعتدين عليه . ونظر إلى يسراه الضمدة فارتعد وقال : هذا مريع !

« لـكنه نافع ! إنى ألاحظ أنك لا تحب مجموعات بوكانوفسكى التى عندنا . لـكن أؤكد لك أنها الأساس الذى يقوم عليه كل شئ آخر . هى الميزان الذى يعمل على استقرار طائرة الدولة الصاروخية ويسيرها فى طريق مستقيم . » هذا ما أجاب به مصطفى مند بصوته العميق المذبذب الأجش ، وهو يلوح بيده ممثلا بها الفضاء الذى تمخر عبابه الطائرة وقوة اندفاعها التى لا تقاوم . وكادت فصاحته أن تبلغ حدود الفصاحة الصناعية .

فقال الهمجى : كنت أتعجب لماذا تبقون عليهم بعد ما رأيت أنكم تستطيعون الحصول على ما تشاءون من تلك القوارير . لماذا لا تصنعون الناس جميعاً من طراز (ا) وهم فى دور التكوين ؟

فضحك مصطفى مند وأجاب بقوله : لأننا لا نحب أن تحز رقابنا . نحن نعتقد فى السعادة والاستقرار وإذا كان المجتمع بأسره من طراز (ا) فلا يسعه إلا أن يكون عديم الاستقرار شقياً . تصور مصنعاً كل عماله من (ا) — أى من أفراد منفصلين لا صلة بين أحدهم والآخر، من سلالة طيبة . وقد تكيفوا على القدرة (فى حدود معينة) على الاختيار وعلى الاضطلاع بالتبعات . تصور ذلك !

وحاول الهمجى أن يتصور ، لـكنه لم يفلح كل الفلاح .

فقال المراقب : « إنه عبث باطل . إن الرجـل إذا أفرغ من القارورة على أنه من (ا) وإذا تكيف على طراز (ا) يجن إذا أرغم على أداء عمل (هـ) من أنصاف المعتوهين . إما أن يجن أو يشرع فى تحطيم الأدوات . أن (الألفات) يمكن أن ينسجموا مع المجتمع كل الانسجام — ولـكن على شريطة أن يقوموا بعمل (ا) . ولا يقوم

بتضحيات (هـ) إلا رجل من طراز (هـ) . وذلك لسبب معقول وهو أنه لا يرى أنها تضحيات . إنما هو العمل الذى يتطلب منه أيسر مجهود . لقد مد له تكييفه قضباناً يسير عليها ، ولا يسعه إلا أن يتبعها . لقد قضى بذلك عليه . أنه حتى بعد التفريغ يبقى كأنه بداخل القارورة — قارورة لا تراها العين من مقتضيات الأطفال والأجنة » .

وفكر المراقب قليلا ثم قال : إن كلا منا بالطبع يسير فى حياته وكأنه بداخل قارورة . فان كان من (ا) فان القارورة تكون ضخمة نسبياً . فيعانى ألماً ممضاً إذا هو انحصر فى حيز ضيق . إنك لا تستطيع أن تصب الشمبانيا الجديدة للطبقات العليا فى قوارير الطبقات السفلى . وهذا جلى من الناحية النظرية ، وقد ثبتت صحته كذلك من الناحية العملية الواقعية . وقد كانت نتيجة تجربة قبرص جد مقنعة .

فسأله الهمجى : وما تلك ؟

فابتسم مصطفى مند وقال : تستطيع إن شئت أن تسميها تجربة فى إعادة الحفظ فى القوارير . وكان بدؤها فى عام ٤٧٣ بعد فورد . فى ذلك التاريخ أبعد المراقبون عن قبرص كل سكانها الأحياء ، وأعادوا تعميرها بطائفة من اثنين وعشرين ألفاً من طراز (ا) أعدوا إعداداً خاصاً . وسلمت لهم كل المعدات الزراعية والصناعية ، وتركوا لادارة شئونهم بأنفسهم . فحققت النتيجة كل النبوءات النظرية بتمامها . فلم تفلح الأرض فلاحة صحيحة ، وعم الاضراب جميع المصانع ، ولم تراع القوانين وعصيت الأوامر . وأخذ كل امرئ خُص بعمل وضيع يدبر الدسائس بغير انقطاع كى يصل إلى الوظائف العليا . ولم يفتأ أصحاب الوظائف العليا يدبرون الدسائس المضادة مهما كلفهم ذلك كى يبقوا فى مراكزهم . فاشتعلت بينهم فى أقل من ست سنوات حرب أهلية

من الدرجة الأولى . وبعدما فنى تسعة عشر من اثنين وعشرين ألفاً ، تقدم الأحياء الباقون إلى المراقبين العالميين بطلب اجماعى يلتمسون منهم استئناف حكم الجزيرة . فلبى المراقبون الطلب . وكانت تلك نهاية جماعة (الألفات) الوحيدة التى شهدها العالم .

فتنهد الهمجى تنهداً عميقاً .

ثم قال مصطفى مند : إن السكان الملائمين يصاغون على نسق الجبل الجليدى — تسعة أعشار تحت سطح الماء ، والعشر فوقه .

— وهل هم سعداء تحت سطح الماء ؟

أسعد منهم فوقه . أسعد من أصدقائك الذين تراهم هنا مثلا . » وقد أشار إليهم .

— برغم ذلك العمل المريع ؟

« مريع ؟ أنهم لا يجدونه كذلك . بل إنهم — على العكس من ذلك — ليحبونه . إنه خفيف ، وسهل كعمل الأطفال . لا يجهد العقل أو العضل . سبع ساعات ونصف فى عمل خفيف لا ينهك ، يعقبها مقرر السوما والألعاب والتناكح بغير قيد ودور الصور المحسة . ماذا يريدون أكثر من ذلك ؟ » ثم قال : « نعم إنهم قد يطلبون ساعات أقل ، ونستطيع بالطبع أن نعطيهم ذلك . ومن اليسير جداً — من الناحية الفنية — أن تقلل ساعات العمل لجميع أبناء الطبقات الدنيا إلى ثلاثة أو أربعة كل يوم . ولكن هل تزيد بذلك سعادتهم ؟ كلا . وقد أجريت التجربة منذ أكثر من قرن ونصف . فان كل سكان إيرلنده كانوا يعملون أربع ساعات فى اليوم الواحد . فماذا كانت النتيجة ؟ القلق وزيادة استهلاك السوما زيادة عظمى . ذلك كل ماحدث . وكانت الساعات الثلاث والنصف التى انضمت إلى أوقات الفراغ أبعد من

أن تكون مصدراً للسعادة . حتى وجد الناس أنفسهم مضطرين إلى الاستنجاز منها . ومكتب المخترعات مفعم بالخطط التى يمكن أن تتبع لتوفير العمل . وهناك الألوف منها . » وأشار مصطفى مند بيده إشارة عنيفة ثم قال : ولماذا لا نضعها موضع التنفيذ ؟ من أجل العمال أنفسهم . فان أصابتهم بزيادة الفراغ قسوة شديدة . وكذلك الأمر فى الزراعة . إننا نستطيع أن نصنع كل لقمة من الطعام إن أردنا . ولكنا لا نفعل ، فنحن نؤثر أن نُبقى ثلث السكان فى الأرض . وذلك لمصلحتهم — لأن استخراج الطعام من الأرض يستغرق وقتاً أطول من استخراجه فى المصنع . ثم عندنا فوق ذلك الاستقرار الذى لا بد لنا من مراعاته . أننا لا نحب التغيير ، فان كل تغيير يهدد الاستقرار . وذلك سبب آخر يحفزنا على الحرص عند تطبيق المخترعات الحديثة . فإن كل اكتشاف جديد فى العلوم البحتة يحتمل أن يكون هداماً . فالعلم نفسه لابد أن يُعالج أحياناً على أنه قد يكون عدواً للناس . نعم حتى العلم .

العلم ؟ هنا قطب الهمجى جبينه ، فقد كان يعرف هذه الكلمة ، ولكنه لم يعرف مدلولها بالضبط . أن شيكسبير وشيوخ القرية لم يذكروا العلم قط ، ولم يفهم من لندا سوى إشارات عنه غامضة : العلم شئ نصنع منه الطائرات ، شئ يُضحك المرء فى رقصات الحنطة ، شئ يحفظك من التعفن ومن فقدان الأسنان — وبذل جهد اليائس كى يدرك مارمى إليه المراقب .

وكان مصطفى مند يقول : نعم ذلك شرط آخر من شروط الاستقرار . ليس الفن وحده هو الذى لا يتفق والسعادة ، إنما العلم كذلك . إنه خطر ، ولابد لنا من سلسلته وتكميمه بحرص شديد .

فقال هلمهلتز فى دهشة جديدة : ماذا ؟ ولكنا نقول دائماً إن العلم هو كل شئ . وتلك حقيقة ايحائية معروفة .

فقال برنارد : ثلاث مرات كل أسبوع فيما بين الثالثة عشرة والسابعة عشرة .

– وكل تلك الدعاية التى ندعوها للعلم فى الكلية . . .

فسأله مصطفى مند متهكماً . قال : « نعم ، ولكن أى نوع من أنواع العلم ؟ إنك لم تدرب تدريباً علمياً ، لذلك فأنت لا تستطيع أن تحكم . لقد كنت عالماً طبيعياً مجيداً فى زمانى . كنت مجيداً إلى حد أنى أدركت أن علمنا كله ليس إلا بمثابة كتاب فى الطهى يحتوى على نظرية تقليدية فى الطهى ليس لأحـد أن يناقشها ، وعلى قائمة من الأوصاف التى لا يجوز الاضافة عليها إلا باذن خاص من كبير الطهاة. وأنا الآن كبيرهم . ولكنى كنت من قبل مساعداً شاباً للطاهى كثير السؤال . ثم بدأت أطهى وحدى طهياً غير تقليدى ولا مشروع – أو قل إنى فى الواقع مارست العلم الحق قليلا . » ثم سكت عن الكلام .

وسأله هلمهلتز واطسن قائلا : وما الذى حدث ؟

فتنهد المراقب وقال : حدث ما سوف يحدث لكم تقريباً أيها الشبان. أوشكت أن أنفى إلى إحدى الجزر .

وهزت هذه الكلمات برنارد هزة عنيفة فتحرك حركة قوية لا تليق بالمقام وقال : « هل تنفوننى فى إحدى الجزر ؟ » ووثب من مكانه وعبر الغرفة عدواً ، ثم وقف أمام المراقب ملوحاً بيديه وقال : « إنكم لا تستطيعون إبعادى . إنى لم أفعل شيئاً . إنما هما الآخران . وأقسم أنهما هما . » وأشار إلى هلمهلتز والهمجى متهماً إياهما وقال : « أرجو ألا تبعث بى إلى إيسلنده . وأعدك أن أفعل ما ينبغى . أعطنى فرصة

أخرى . أرجو أن تهيئ لى فرصة أخرى » . وانهمر الدمع من عينيه ، ثم قال وهو يجهش بالبكاء : « أؤكد لك أنه خطؤها .لا تبعدنى فى إيسلنده . أتوسل إلى سيادتك ، وأرجو . . . » وأصابته نوبة من الشعور بالذلة فارتمى على ركبتيه أمام المراقب . وحاول مصطفى مند أن ينهضه ، ولـكن برنارد أصر على تذلله ، وتدفق منه تيار جارف من الـكلام ، فاضطر المراقب فى نهاية الأمر إلى أن يدق الجرس مستدعيا سكرتيره الرابع .

وأمره قائلا : أحضر ثلاثة رجال وخذ المستر ماركس إلى حجرة للنوم ، واعطه كمية كافية من بخار السوما ثم ضعه فوق السرير واتركه وحده .

وخرج السكرتير الثالث ثم عاد بثلاثة من مشاة التوائم يرتدون الزى الأخضر . وحمل برنارد إلى الخارج وهو لا يزال يصيح ويبكى .

وقال المراقب عندما كان الباب يغلق : إن الرائى يحسب أنه سوف يُقتل ، فى حين أنه – لو كان لديه ذرة من عقل – كان يجب أن يدرك أن عقوبته هى فى حقيقتها مكافأة حسنة . إنه مبعوث إلى جزيرة ، أى إنه مبعوث إلى مكان يلتقى فيه مع أمتع من تجد فى هذا العالم من رجال ونساء – كل من أحس بفرديته لسبب ما إلى حد أنه لم يستطع أن ينسجم مع حياة الجماعة ، كل من لم يرض بالتقاليد ، ومن كانت له آراء مستقلة خاصة . أو بعبارة أخرى كل فرد له شخصية خاصة . إنى لأغبطك يا مستر واطسن .

فضحك هلمهلتز وقال : وإذن فلماذا لا تقطن أنت إحدى الجزائر؟

فأجابه المراقب قائلا : « لأنى آثرت ذلك فى النهاية . خُيرت بين أن أبعث إلى جزيرة ما ، حيث كنت أستطيع أن أواصل علومى البحتة ،

أو أن أنضم إلى مجلس المراقبين مع الأمل فى أن أشغل وظيفة المراقب ، فى الوقت الملائم . فاخترت ذلك ونزلت عن العلوم . » وصمت برهة ثم قال : « وإنى لأشعر أحياناً بالأسف على العلوم . فإن السعادة سيد شديد القسوة — وبخاصة سعادة الآخرين . إنها أشد من الحقيقة قسوة إذا لم يكيف المرء على قبولها بغير سؤال » . ثم تنهد ، وعاد إلى صمته ، ثم استمر فى حديثه بنغمة مرتفعة . قال : « ولكن الواجب هو الواجب . ولا يستطيع المرء أن يتبع الطريق التى يؤثرها . إننى أهتم بالحقيقة وأغرم بالعلم . لكن الحقيقة تهدد العالم ، والعلم خطر على الجمهور . وخطره لا يقل عن نفعه — لقد أعطانا أكثر ما عرف فى التاريخ من الاستقرار المتزن . إن استقرار الصين بالنسبة إليه عديم الطمأنينة. بل إن الجماعات الأموية البدائية لم تكن أشد منا ثباتاً . وأقول مرة أخرى إن الفضل فى ذلك يرجع إلى العلوم . لكنا لا نستطيع أن نسمح للعلم بأن يفسد بنفسه عمله الطيب . ولذا فنحن نحدد مجال بحثه بحرص شديد ، ومن ثم أوشكت أن أنفى إلى إحدى الجزائر . إننا لا نسمح للعلم أن يعالج غير المشاكل المباشرة فى اللحظة الراهنة . أما ما عدا ذلك من بحوث فإنها تقاوم بكل شدة.» وسكت لحظة ثم قال : وإنى لأعجب حين أقرأ ما كان الناس فى عهد فورد يكتبون عن التقدم العلمى . يظهر أنهم تصوروا أنه يمكن أن يسير إلى مالا نهاية بغض النظر عن كل شئ آخر . كانت المعرفة هى الخير كل الخير ، وكانت للحقيقة أعلى القيم . وكل ما عدا ذلك ثانوى قليل الأهمية . نعم إن الآراء قد بدأت تتغير حتى فى ذلك الحين . وبذل فورد بنفسه جهداً كبيراً فى نقل الاهتمام من الحق والجمال إلى الراحة والسعادة . واقتضى الانتاج الكبير هذا الانتقال . إن السعادة العامة

تجعل العجلات دائمة الدوران . أما الحق والجمال فلا يستطيعان . وبالطبع كلما استولت الجماهير على السلطة السياسية كانت بالسعادة أكثر اهتماماً منها بالحق والجمال . ومع ذلك بقى البحث العلمى المطلق مصرحاً به بالرغم من كل شئ . وما برح الناس يتكلمون عن الحق والجمال كأنهما أعظم الخير . وبقى الأمر كذلك حتى حرب السنوات التسع . عندئذ استبدلوا بالنغمة القديمة نغمة جديدة . ما الفائدة من الحق والجمال أو المعرفة إذا كانت القنابل المحرقة تفرقع حولك من جميع الجهات ؟ وكان ذلك بدء السيطرة على العلم — بعد حرب السنوات التسع . حينئذ استعد الناس لقبول السيطرة حتى على شهواتهم. وبذلوا كل نفيس فى سبيل الحياة الهادئة . ومن ذلك التاريخ لم نفتر عن السيطرة على كل شئ . ولم يكن ذلك بالطبع فى مصلحة الحق ، ولكنه كان فى مصلحة السعادة . إنك لا تحصل على شئ بغير مقابل. فكان لا بد من دفع الثمن للسعادة . وأنت نفسك تدفع ثمنها يا مستر واطسن — تدفع ثمنها لأنك تهتم بالجمال . وكنت شديد الاهتمام بالحق فساهمت فى دفع الثمن .

وخرج الهمجى عن صمت طويل وقال : ولكنك لم تذهب إلى إحدى الجزر .

فابتسم المراقب وقال : « هكذا دفعت الثمن باختيارى أن أخدم السعادة . أقصد سعادة الآخرين — لا سعادتى . » وسكت برهة ثم قال : ومن حسن الحظ أن بالعالم كثيراً من الجزر . ولست أدرى ماذا نصنع لو لم تكن . أحسب أنا كنا نضعكم جميعاً فى غرفة الموت. وبهذه المناسبة هل تحب جو المناطق الحارة يا مستر واطسن ؟ هل تحب جو ماركيزاز — مثلا — أو ساموا ؟ أم هل تحب جواً أشد من هذا إنعاشاً ؟

فاجاب هلمهلتز وقد نهض من مقعده الهوائى قائلا : إنى أحب أسوأ أنواع الجو ، لأنى أعتقد أن المرء يحسن الكتابة إذا ساء الجو . وإذا كان هناك — مثلا — كثير من العواصف والأنواء . . .

فأومأ المراقب بالموافقة وقال : « إنى أحب فيك هذه الروح يا مستر واطسن . أحبها حباً جماً . أحبها بمقدار ما أنكرها بحكم وظيفتى . »

ثم ابتسم وقال : ما رأيك فى جزائر فوكلند ؟

فأجاب هلمهلتز بقوله : أظنها ملائمة . والآن هل تسمح لى أن أذهب إلى برنارد المسكين كى أرقب تقدمه ؟

الفصل السابع عشر

ولما اختلى الهمجى والمراقب قال له : الفن والعلم — الظاهر أنكم دفعتم ثمناً عالياً جداً لسعادتكم . وهل هناك شئ آخر ؟

فأجابه المراقب : نعم ، الدين بالطبع . فقد كان هناك شئ اسمه الله قبل حرب السنوات التسع . وقد نسيت أن أذكر لك ذلك ، وأظنك تعرف كل شئ عن الله .

فتردد الهمجى فى الإجابة . وأحب أن يقول شيئاً عن العزلة وعن الليل وعن الهضبة وقد شحب لونها فى ضوء القمر ، وعن حافة الهضبة الرأسية ، وعن الانغماس فى الظلام الحالك ، وعن الموت . أراد الهمجى أن يتكلم ، ولكنه كان يفتقر إلى اللفظ . ولم يجده حتى عند شيكسبير .

وفى تلك الأثناء عبر المراقب الغرفة إلى جانبها الآخر وأخذ ينفض مغاليق خزانة ضخمة أودعت فى الحائط بين رفوف الكتب . وبعد ما انفتح بابها الثقيل أخذ يعبث فى ظلامها الداخلى ثم قال : « إنه موضوع كثيراً ما كان يشوقنى . » ثم أخرج مجلداً غليظاً أسود اللون وقال : إنك — مثلا — لم تقرأ هذا .

فتناوله الهمجى وقرأ عنوانه : « الكتاب المقدس ، ويحتوى على العهد القديم والعهد الجديد » .

« ولا هذا . » وكان كتاباً صغيراً ضاع غلافه :

« الاقتداء بالمسيح »

« ولا هذا . » وناوله مجلداً آخر عنوانه : « التجارب الدينيـــة المختلفة » لمؤلفه وليم جيمس .

وعاد مصطفى مند إلى مقعده واستمر يقول : « عندى كثير غير ذلك . مجموعة كاملة من كتب الأدب الداعر . إن كتب الله فى الخزانة ، وكتب فورد فوق الرفوف. » وأشار وهو يضحك إلى مكتبته التى نوه عنها — إلى رفوف الكتب ، والعيون المليئة باسطوانات آلات القراءة وبلفائف الآثار الصوتية .

وسأله الهمجى محنقاً . قال : ولكن إن كنت تعرف الله فلماذا لا تخبرهم به ، ولماذا لا تعطيهم هذه الكتب التى كتبت عنه .

— لنفس السبب الذى لا تعطيهم من أجله « عطيلا » : هى كتب قديمة. وهى عن الإله منذ مئات السنين ، وليست عن الإله اليوم .

— ولكن الله لا يتغير .

— غير أن الرجال يتغيرون .

— وكيف تتغير الحقيقة بذلك ؟

قال مصطفى مند : « إنها تتغير كل التغيير. » ثم نهض ثانية وسار نحو الخزانة وقال : « كان هناك رجل اسمه الكاردنال نيومان. » ثم صاح مقاطعاً نفسه قائلا : والكاردنال هو رجل يشبه فى عمله كبير المنشدين .

— لقد قرأت عنهم فى شيكسبير ، فقد جاء فيه « إنا باندلف كاردنال ميلان الجميلة » .

« بالطبع اقد قرأت . كنت أقول إنه كان هناك رجل اسمه الكاردنال نيومان . وها هو ذا الكتاب . » وأخرجه ، ثم قال : ولأخرج

هذا أيضاً فهو قريب منه . إنه من وضع رجل اسمه مين دى بيران . كان فيلسوفاً ، إن كنت تفهم ما أقصد بهذا اللفظ .

فأجابه الهمجى على الفور : تقصد رجلا يحلم بأشياء أقل مما يوجد فى الأرض والسماء .

« بالضبط ، وسوف أقرأ لك أحد الأشياء التى حلم بها فى إحدى اللحظات . أما الآن فانصت إلى ما قال هذا المنشد الكبير » . وفتح الكتاب عند الصفحة التى أشير إليها بشريط من الورق وقرأ ما يلى : « إننا لا نملك أنفسنا أكثر مما نملك ما بأيدينا . إننا لم نخلق أنفسنا ، ولا نستطيع أن نعلو على أنفسنا . لسنا سادة على أنفسنا . نحن ملك لله . أليست سعادتنا إذن فى هذه النظرة إلى الموضوع ؟ هل نسعد أو نطمئن إذا ظننا أننا ملك لأنفسنا ؟ قد يحسب ذلك الشباب والمترفون . قد يظن هؤلاء أن تسيير الأمور على هواهم — دون الاعتماد على أحد — أمر عظيم ، فلا يفكرون فى شئ بعيد عن الأنظار ، ويخلصون من مشقة الاعتراف الدائم ، والصلاة المتصلة ، ونسبة أعمالهم دائماً إلى إرادة غير إرادتهم . ولكن كلما تقدم الزمن أدركوا — كما أدرك الرجال الآخرون جميعاً — أن الاستقلال لم يخلق للانسان ، وأنه حالة غير طبيعية ، وأنه قد يغنينا فترة من الزمن ، ولكنه لن يحملنا آمنين حتى النهاية . . . » وسكت مصطفى مند لحظة ، وألقى الكتاب الأول والتقط الآخر وأخذ يقلب صفحاته ، ثم قال : « خذ هذا مثلا » وشرع يقرأ مرة أخرى بصوته العميق : « إن الانسان يتقدم فى السن ، ويحس فى نفسه إحساساً قوياً بالضعف ، والفتور ، والقلق ، وهى إحساسات تلازم تقدم العمر . ولما كان هذا هو شعور الانسان فهو يتصور أن به علة من العلل ، ويخفف عن نفسه جزعها

باعتقاده أن هذه الحالة التى سببت له الضيق ترجع إلى سبب خاص يأمل أن يشفى منه كما يشفى من أى مرض من الأمراض . ذلك وهم باطل ! تلك العلة هى الشيخوخة ، وهى علة شنيعة . يقولون إن الخوف من الموت ومما يأتى بعد الموت هو الذى يحول الناس إلى الدين كلما تقدمت بهم السن . ولكن تجربتى الخاصة أقنعتنى أن العاطفة الدينية — بغض النظر عن هذه المخاوف والأوهام — تنمو فى الانسان كلما تقدمت به السن . وهى تنمو لأن الميول القوية تهدأ ، والخيال والاحساسات تقل حدتها وتضعف قابليتها للتهيج ، ويقل اضطراب العقل ومايخيم فوقه من أوهام ورغبات وأسباب للهو يهيم فيها. حينئذ يبرز الله وكأنه يخرج من خلف سحابة. وتحس الروح وترى وتتحول نحو مصدر النور كله تحولا طبيعياً لا مفر لها منه . وذلك لأن كل ما كان يعطى الحياة والسحر لعالم الاحساسات بدأ يفلت منا ، ولأن الوجود الظاهرى لم يعد يستند إلى الآثار الباطنة والظاهرة ، فنحس بالحاجة إلى الاعتماد على شئ ثابت لا يخدعنا — على حقيقة واقعة ، أو حق مطلق دائم . نعم لا مفر لنا من التحول نحو الله . لأن هذه العاطفة الدينية بطبيعتها صافية تسر الروح التى تحس بها ، فهى تعوضنا كل ما خسرنا . » وأغلق مصطفى مند الكتاب ، ثم استند إلى مقعده وقال : « إن من الأشياء العديدة فى الأرض والسماء التى لم يحلم بها هؤلاء الفلاسفة هو هذا (ولوح بيديه) ، هو نحن ، أو العالم الحديث . » لقد قيل : « إنك لا تستقل عن الله إلا إن كان لديك راحة وشباب . ولكن الاستقلال لا يحملك بأمان حتى النهاية . » ونحن الآن نتمتع بأسباب الراحة والشباب حتى النهاية . فماذا يتبع ذلك ؟ الاستقلال عن الله من غير شك . وقيل : « إن العاطفة الدينية تعوضنا كل ما خسرنا » وليست لدينا

خسائر نعوضها . فالعاطفة الدينية إذن نافلة من النوافل . ولماذا نتصيد عوضاً عن رغبات الشباب ، إذا كانت رغبات الشباب لا تفتر قط ؟ وعوضاً عن المسليات ، إذا كنا لا ننقطع عن التمتع بالسخافات القديمة حتى النفس الأخير؟ ما حاجتنا إلى الراحة إذا كانت عقولنا وأبداننا تستمر فى تمتعها بالنشاط ؟ وما حاجتنا إلى السلوى وعندنا السوما ؟ وإلى شئ ثابت وعندنا النظام الاجتماعى ؟ »

— إذا فأنت تعتقد أن ليس هناك إلـٰه ؟

— كلا . أظن أنه يحتمل أن يكون هناك إلـٰه .

— إذن فلماذا . . . ؟

فأسكته مصطفى مند قائلا : لكنه يظهر على صور مختلفة لمختلف الرجال . كان يظهر فى الأزمنة السابقة للعصر الحديث ذلك الكائن الموصوف فى هذه الكتب . أما الآن . . .

فسأله الهمجى : كيف يظهر نفسه الآن ؟

— إنه يظهر كأنه غائب ، أو كأن لا وجود له البتة..

— هذا خطؤكم .

— بل قل إنه خطأ المدنية . إن الله لا يتفق والآلات والطب العلمى والسعادة العالمية . ولا بد من الاختيار ، وقد اختارت حضارتنا الآلات والطب والسعادة . لذا أرانى مضطراً إلى الاحتفاظ بهذه الكتب فى خزانة موصدة . إنها بذيئة ، ويُصدم الناس لو . . .

فقاطعه الهمجى قائلا : ولكن أليس من الطبيعى أن يشعر المرء بوجود الله ؟

فقال المراقب متهكماً : كأنك تقول أليس طبيعياً أن يزر المرء سراويله بالمشبك . إنك تذكرنى برجل آخر من أولئك القدامى اسمه

برادلى . إنه عرف الفلسفة بأنها التعليل السيء لما يعتقد المرء بالغريزة . كأن المرء يعتقد فى أى شيء بالغريزة ! إن المرء يعتقد فى الأشياء لأنه تكيف على الاعتقاد فيها . إنما الفلسفة هى التعليل السيء لما يعتقد المرء لأسباب أخرى سيئة . إن الناس يعتقدون فى الله لأنهم تكيفوا على العقيدة فيه .

فأصر الهمجى على رأيه وقال : ولكن بالرغم من ذلك ، أرى أنه من الطبيعى أن يعتقد المرء فى الله أثناء الوحدة — الوحدة المطلقة ، فى ظلمة الليل ، وهو يفكر فى الموت . . .

فأجاب مصطفى مند بقوله : ولكن الناس لا يكونون اليوم قط فى وحدة . إننا نجعلهم يمقتون العزلة ، ونرتب حياتهم حتى يكاد يستحيل عليهم أن يجدوها .

فأومأ الهمجى برأسه مكتئباً . وتذكر أنه عانى كثيراً فى مالبى لأنهم أقصوه عن نشاط أهل القرية الاجتماعى ، وأنه عانى فى لندن كثيراً لأنه لم يستطع أن يفر من ذلك النشاط الاجتماعى ، ولم يهدأ وحده لحظة.

وقال الهمجى فى النهاية : هل تذكر هذه الأسطر التى جاءت فى رواية « الملك لير » : « إن الآلهة عادلة . فهى تجعل من رذائلنا المتعة أداة لبلائنا . إن ذلك المكان المظلم المرذول الذى أتى بك فيه قد كلفه عينيه . » (١) وتذكر أن أدمند أجاب على ذلك وهو جريح فى نزع الموت بقوله : « لقد أصبت القول . هذا حق . ولقد دارت العجلة دورة كاملة ، وهأنذا هنا . » فماذا حدث فى هذا اليوم ؟ أليس يبدو أن هناك إلٰها يدبر الأمور ، ويجزى بالعقوبة والثواب ؟

(١) فى رواية «الملك لير» لشيكسبير أنجب جلوستر ولدا اسمه أدمند عن طريق الزنا . فكانت عقوبته الطبيعية فقدان بصره .

فكرر المراقب نفس السؤال وقال : أليس يبدو ذلك ؟ إنك تستطيع أن تنغمس فيما شئت من رذائل ممتعة مع الخناث ، دون أن تفقأ عينيك ربة ابنك « لقد دارت العجلة دورة كاملة . وهأنذا هنا . » ولكن أين يكون ادمند فى هذه الأيام ؟ جالساً فى مقعد هوائى مطوقاً بذراعه خصر فتاة ، يلوك لبان الهرمونات الجنسية ويشاهد الصور المحسة . لا شك أن الآلهة عادلة . غير أن الأفراد الذين ينظمون الجماعة هم الذين يملون القوانين فى نهاية الأمر. إن العناية الإلهية تأخذ سرها من الناس .

فسأله الهمجى : وهل أنت واثق أن عقوبة ادمند وهو فى ذلك الكرسى الوثير ليست أقل صرامة عنها وهو جريح يدمى حتى الممات ؟ إن الآلهة عادلة . أفلا تستخدم رذائله الممتعة أداة لحط من شأنه ؟

— تحطه من أية مكانة ؟ مادام مواطناً سعيداً ، مجداً ، مستهلكا للسلع فهو إنسان كامل . غير أنك بالطبع إن اخترت معياراً آخر غير الذى نقيس به فقد تحكم عليه بالانحطاط . ولكن ينبغى لك أن تلزم مجموعة واحدة من الفروض . إنك لا تستطيع أن تلعب الجولف الكهربى المغطس على قواعد التنس الطارد .

قال الهمجى : ولكن القيمة لا تنحصر فى إرادة معينة . إنها تحفظ للظافر قدره وكرامته إذا كانت ثمينة فى حد ذاتها أو ثمينة من الظافر نفسه.

فاحتج عليه مصطفى مند قائلا : مهلا ، مهلا . لقد بعدنا عن الموضوع كثيراً ، أليس كذلك ؟

— إذا سمحتم لأنفسكم بالتفكير فى الله لم تسمحوا لأنفسكم بالانحطاط بسبب الرذائل الممتعة. إنكم سوف تجدون سبباً لتحمل الأرزاء صابرين، وللاقدام على العمل بشجاعة . وقد لاحظت ذلك عند الهنود .

فقال مصطفى مند : أنا واثق من أنك لاحظت ذلك ، ولكنا لسنا بالهنود ، وليست بالرجل المتحضر حاجة إلى أن يتحمل أمراً يضايقه مضايقة شديدة . أما عن أداء العمل — فانا نرجو فورد ألا تتطرق هذه الفكرة إلى رأسه (رأس الرجل المتحضر) فلو أن الناس يعملون ما تهوى نفوسهم لاضطرب النظام الاجتماعى بأسره .

— وماذا ترى فى إنكار الذات لو كان لديكم إله لوجدتم سبباً لانكار الذات .

— لكن المدنية الصناعية لا تقوم إلا إذا انعدم إنكار الذات . لا بد من الانغماس فى شهوات النفس إلى أقصى حد تفرضه قواعد الصحة والاقتصاد . وإلا توقفت العجلات عن الدوران .

فقال الهمجى : « وسوف تجدون سبباً للعفة ! » وقد شعر بشئ من الخجل وهو ينطق بهذه الكلمات .

— لكن العفة معناها حدة العاطفة ، ومعناها النورستانيا . والعاطفة والنورستانيا معناهما عدم الاستقرار . وعدم الاستقرار معناه القضاء على الحضارة . لا بد للحضارة الدائمة من كثير من الرذائل المتعة .

— لكن الله هو السبب فى كل ما هو نبيل وجميل وباسل . لو كان لديكم إله . . .

فقال مصطفى مند : صديقى الشاب العزيز . إن الحضارة ليست قط بحاجة إلى النبل أو البسالة . إنما هذه الأشياء من أعراض العجز السياسى . أما فى الجماعة المنظمة تنظيما صحيحاً — كجماعتنا — فان الفرصة لا تتاح للمرء لكى يكون نبيلا أو باسلا . لا بد أن تضطرب الظروف كل الاضطراب إذا كان لا بد من توفر المناسبات لذلك . إن من

الجلى أن النبل والبسالة لها مغزاهما فى مجتمع يضطرم بالحروب ، وينقسم إلى ولايات ، به أسباب للاغراء لا بد من مقاومتها ، وأشياء عزيزة يحارب المرء من أجلها ويدفع عنها . ولكن ليست هناك فى الوقت الحاضر حروب . ونحن نحرص أشد الحرص ألا يغالى المرء فى حب شخص ما . ولا ينقسم العالم إلى ولايات . وكل امرئ يكيف على عدم القدرة على التخلص عما ينبغى له أن يفعل . وما ينبغى لك عمله سار جداً ، وكثير من الدوافع الطبيعية تجد لها متنفساً ومخرجاً ، فلم تبق هناك حقاً أسباب للاغراء على المرء أن يقاومها . وإذا حدث — بالصدفة العمياء — أمر لا يسر ، فهناك السوما دائماً تعطيك إجازة من الحقائق . وهناك السوما دائماً تهدئك من ثائرة الغضب ، وتوفق بينك وبين أعدائك . وتجعلك صبوراً شديد التحمل . كان الانسان فى الماضى لا يستطيع أن يحقق هذه الأشياء إلا بالجهد الشاق وبعد سنوات من التدريب الخلقى العسير . أما الآن فما عليك إلا أن تبلع قرصين أو ثلاثة زنة الواحد منها نصف جرام فينتهى كل شئ . يستطيع كل امرئ اليوم أن يكون فاضلا ، ويستطيع أن يحمل على الأقل نصف أخلاقه الطيبة فى زجاجة . المسيحية بغير دموع : تلك هى السوما .

— ولكن الدموع ضرورة لازمة . ألست تذكر قول عطيل « إذا كانت كل عاصفة يعقبها هذا الهدوء ، فمرحباً بالرياح تهب حتى توقظ الموتى » . وقد اعتاد أحد شيوخ الهنود أن يقص علينا قصة عن فتاة متساكى . قال إن الشبان الذين أرادوا الزواج منها كان عليهم أن يضربوا فى الحديقة بالفأس صباحاً كاملا . وقد تحسب ذلك يسيراً ، ولكن أذكر أنه كان هناك ذباب وبعوض وسحرة . وأكثر

الشبان لم يستطع أن يحتمل العض واللدغ . ومن استطاع فهو الفتاة .

فقال المراقب : هذا شئ فاتن . لكنك فى البلدان المتحضرة تستطيع أن تحصل على البنات دون أن تضرب لهن الحدائق بالفؤوس ، وليس هناك ذباب أو بعوض يلدغك . فقد تخلصنا منها جميعاً منذ قرون .

فأومأ الهمجى برأسه مقطباً الجبين وقال : نعم لقد تخلصتم منها . وهذا شأنكم فى كل شئ . تتخلصون من كل ما لا يسر بدلا من أن تتعلموا احتماله . وسواء كان خيراً للمرء أن يتحمل الحظ العاثر بنشابه وسهامه ، أو أن يتسلح ضد عواصف المشقات فيقضى عليها بمعارضتها . . . ولكنكم لا تفعلون هذا ولا ذاك . لا تعانون ولا تعارضون . إنكم تكتفون بالغاء النشاب والسهام . وما أيسر ذلك .

وسكت عن الكلام بغتة وفكر فى أمه . وقد كانت لندا فى غرفتها فى الطابق السابع والثلاثين تسبح فى بحر من الأضواء المغنية والتدليك المعطر — ثم اختفت من المكان والزمان ، ومن سجن ذكرياتها وعاداتها وجسمها المسن المترهل . وما زال توماكين المدير السابق لمعامل التفريخ والتكييف فى عطلة من الإذلال والألم ؛ فى عالم لا يستطيع أن يسمع فيه تلك الكلمات ، وذلك الضحك الساخر ، ولا يستطيع أن يرى فيه ذلك الوجه القبيح ، ولا يستطيع أن يحس فيه بتلك الأذرع المبتلة المترهلة تطوق جيده ، كان فى عالم جميل . . .

واستمر الهمجى يقول : إن ما تحتاجون إليه هو شئ يستدر الدموع تغيرون به هذه الحال . لست أرى شيئاً هنا له قيمة تذكر .

وكان هنرى فستر قد احتج على الهمجى حينما ذكر له ذلك وقال : إثنا عشر مليوناً ونصف من الريالات : هذه هى

تكاليف مركز التكييف الجديد ، ولا تقل عن ذلك فلساً واحداً .

ثم سأل مصطفى مند موجهاً نحوه بصره . قال : « عرّضوا كل ما هو فان غير أكيد لكل ما يستطيعه الحظ والموت والخطر ، حتى لو ظفرتم بقشر بيضة واحدة . أليس فى هذا مغزى ؟ » ثم قال : بغض النظر عن الله — وأن يكن الاله بالطبع يكفى سبباً لذلك — أليس للحياة الخطرة معنى ؟

فأجاب المراقب بقوله : إن لها لمعنى عظيما . لا بد من تنبيه الغدد التى فوق الكلى عند الرجال والنساء من آن لآخر .

فلم يفقه الهمجى قوله وقال : ماذا ؟

— ذلك أحد شروط الصحة الكاملة . ومن أجل ذلك جعلنا علاج الـ ع . ع . ج إجبارياً .

— ع . ع . ج ؟

— العاطفة العنيفة الجديدة . مرة كل شهر باطراد . نغمر الجهاز كله بالأدرنين . وذلك مقابل فسيولوجى كامل للخوف والغضب . إننا نحصل بذلك على كل الآثار القوية التى نجمت عن قتل دزدمونا وجريمة القتل التى ارتكبها عطيل دون أن نتعرض لما لابسها من مضايقات .

— لكنى أحب المضايقات .

فأجابه المراقب : نحن لا نحبها . ونؤثر أن نؤدى أعمالنا مع الراحة .

— لكنى لا أحب الراحة . أريد الله ، وأريد الشعر ، وأريد الخطر الحق ، وأريد الحرية ، وأريد الخير ، وأريد الخطيئة .

فقال له مصطفى مند : إنك فى الواقع تطالب بحقك فى أن تكون غير سعيد .

فقال الهمجي متحدياً : فليكن ذلك . إننى أطالب بحقى فى أن أكون غير سعيد .

— لست بحاجة إلى أن أذكرك بحقك فى الشيخوخة والقبح والعجز الجنسى ، وبحقك فى أن تصاب بالزهرى والسرطان ، وحقك فى قلة الطعام ، وحقك فى وباء القمل ، وحقك فى أن تعيش فى خوف دائم مما عساه يحدث فى الغد ، وحقك فى الاصابة بالتيفود ، وحقك فى أن تعانى العذاب من ضروب الآلام المختلفة التى لا توصف .

وكان صمت طويل .

وقال الهمجي فى النهاية : أطالب بذلك كله .

فهز مصطفى مند كتفيه وقال له : مرحباً بك .

الفصل الثامن عشر

كان الباب على مصراعيه فدخلا .

— جون !

وصدر من داخل الحمام صوت لا يسر السامع ولكنه يدل على صاحبه . وصاح هلمهلتز قائلا : هل هناك أمر هام ؟

فلم يظفر بجواب : وتكرر الصوت القبيح مرتين . ثم أعقبه سكون . وانفتح باب الحمام عندئذ محدثاً صوتا وخرج منه الهمجي شاحب اللون جداً .

وصاح هلمهلتز جزعاً مبلبل الخاطر . قال : كأن بك علة ياجون !

وسأله برنارد : هل أكلت شيئاً لم تسغه ؟

فهز الهمجي رأسه قائلا : لقد أكلت الحضارة .

— ماذا ؟

« سممتنى ودنستنى . » ثم قال بصوت خافت : أكلت شقاوتى الخاصة .

— نعم ولكن ماذا بالضبط ؟ ... أقصد أنك كنت منذ قليل ...

قال الهمجي : الآن تطهرت ، فقد شربت قليلا من الخردل والماء الساخن .

فحملق فيه صاحباه فى دهشة عظيمة .

وسأله برنارد : هل تقصد أن تقول إنك فعلت ذلك عامداً ؟

« هكذا يطـّهر الهنود دائماً » ثم جلس وتنهد ووضع يده على جبهته وقال : سوف أستريح بضع دقائق فأنا جد منهوك .

فقال هلمهلتز : « ليس فى ذلك ما يدهشنى . » ثم صمت برهة . وقال : « لقد أتينا للوداع . » ثم بدل من نغمة صوته وقال : سنرحل غداً صباحاً .

فقال برنارد : « نعم سوف نرحل غداً . » ولحظ الهمجى على وجهه دليلا على الاستسلام المطلق . ثم استمر فى الكلام وقد مال على كرسيه إلى الأمام ووضع إحدى يديه على ركبة الهمجى . قال : «وبهذه المناسبة يا جون أحب أن أذكر لك أنى أسفت أشد الأسف لما حدث بالأمس . » ثم احمر خجلا واستمر فى الحديث برغم تذبذب صوته . قال : ما أشد خجلى . فى الحقيقة . . .

فقاطعه الهمجى وتناول يده وضغط عليها بعطف شديد .

وعاد برنارد إلى الكلام بعد ما سكت برهة قصيرة من الزمن . وقال : لقد كان هلمهلتز عجيباً لى . لولاه . . .

فاحتج عليه هلمهلتز وقال : كفى ، كفى .

فساد الصمت . وبالرغم مما كان يخيم على الشبان الثلاثة من حزن — بل لسبب هذا الحزن نفسه ، لأن حزنهم كان دليلا على الحب المتبادل بينهم — كانوا سعداء .

وقال لهم الهمجى فى نهاية الأمر : لقد ذهبت لمقابلة المراقب هذا الصباح

— لماذا ؟

— لكى أسأله إن كان يجوز لى أن أرافقكم إلى الجزر .

ثم سأل هلمهلتز بشغف قائلا : وماذا قال ؟

فهز الهمجى رأسه وقال : إنه لم يسمح لى .

— لماذا ؟

قال الهمجى : « قال إنه يريد أن يستمر فى التجربة . » ثم تهيج بغتة وقال : ولكن لعنة الله علىّ إذا قبلت أن أبقى موضوعاً للتجارب ، لو أراد ذلك مراقبو العالم أجمعون . ولأرافقنكم غداً .

فسأله صاحباه معاً : ولكن إلى أين ؟

فهز الهمجى كتفيه وقال : إلى أى مكان . لا يهمنى ذلك مادمت أستطيع أن أكون وحيداً .

كان الطريق من جلدفورد ينحدر فى اتجاه وادى واى حتى جودلمنج ومن هناك يسير فوق ملفورد ووتلى إلى هازلمير ثم يتجه نحو بورتسموث ماراً ببيترزفيلد . وبحذائه تقريباً طريق آخر يصعد إلى وربلسدن وتنجهام و بتنهام وألستر وجريشت . وكان بين هجزباك وهندهد نقط لا يفصل الطريقين عندهما أكثر من ستة أو سبعة كيلو مترات . وكانت المسافة صغيرة لا تصلح للطائرين المهملين — وبخاصة فى المساء وعندما يتناولون نصف جرام أكثر من المقرر . فكانت تقع الحوادث ، وبعضها خطير . فقرر أن ينحرف عن الطريق الصاعد بضعة كيلو مترات نحو الغرب . وكان يعين اتجاه الطريق القديم بين بورتسموث ولندن أربعة فنارات هوائية مهجورة تقع بين جريشت وتنجهام . وقد بدت فوقها السموات ساكنة لا حياة فيها . وأخـذت الطائرات الآن تطن وتزأر زئيراً لا ينقطع فوق سلبورن وبوردن وفارنهام .

واختار الهمجى الفنار القديم الذى يقع فوق قمة التل بين بتنهام وألستد صومعة له . وكان البناء مسلحاً بالحديد وفى حالة جيدة جداً .

ولما طاف الهمجى بالمكان حسبه – لأول نظرة – مريحاً جداً ، تتوفر فيه أسباب الترف والحضارة . ولكن خاطره هدأ لما وعد نفسه برياضة نفسية شاقة يعوض بها هذا الترف ، وبتطهير كامل شامل . وتعمد أن ينفق أولى لياليه بالصومعة ساهراً يقظاً . فقضى ساعات طوالا جاثياً على ركبتيه يصلى مرة للسماء التى طلب منها كلوديوس الآثم العفو ومرة بالزونى لاوناولونا ، ومرة أخرى للمسيح وبوكونج ، ومرة للنسر– وهو الحيوان الذى كان يتولى أمره . وكان يمد ذراعيه الفينة بعد الفينة كأنه مصلوب ، ويبقيهما هكذا عدة دقائق يتزايد فيها الألم تدريجاً حتى يصبح عذاباً ممضاً ترتعد له فرائصه . وهكذا صلب نفسه عامداً متطوعاً وأخذ يكرر خلال أسنانه المحكمة (والعرق يتصبب فوق وجهه) قوله : « اعف عنى ! طهرنى ! أعنى على الخير ! » مرة بعد أخرى حتى أوشك أن يخر صريعاً من الألم .

ولما أشرق الصباح أحس بأنه اكتسب الحق فى سكنى الفنار – برغم وجود الزجاج فى أكثر النوافذ ، وبالرغم من أن المنظر من الرصيف كان رائعاً . لأن السبب عينه الذى من أجله اختار الفنار كاد أن يصبح فى الحال سبباً فى الذهاب إلى مكان آخر . فقد قرر من قبل أن يقطنه لأن المنظر جد جميل ، ولأنه – من ناحية منفعته الشخصية – كان كأنه يشاهد كائناً سماوياً مجسداً . ولكن من يكون هو حتى يُدلَّل بمنظر الجمال كل يوم وكل ساعة ؟ ومن يكون هو حتى يسكن فى حضرة الله المرئية ؟ أن كل ما كان يستحق أن يقطنه حظيرة حيوانات قذرة ، أو جحراً فى الأرض مظلما . كانت أعضاؤه متصلبة متألمة بعد ليله الطويل الأليم ، ولكنه كان لنفس هذا السبب مطمئناً فى دخيلة نفسه . وبرغم ذلك تسلق حتى بلغ رصيف برجه . ثم أطل على الدنيا

تشرق فيها الشمس اللامعة – الدنيا التى أسترد حق سكناها . وكان يحد المنظر من الشمال حافة هجزباك الطباشيرية الطويلة ، التى ترتفع خلف آخر طرفها الشرقى بروج ناطحات السحاب السبع التى تتألف منها جلدفورد . فلما رآها الهمجى تجهم لها ، ولكنه ألفها بمرور الزمن ؛ لأنها كانت فى المساء تتلألأ بصورة بهيجة فى مجموعات هندسية من النجوم ، أو ينعكس عليها الضوء فتشير جادة بأصابعها الوضاءة ، (بحركة لم يفهم مدلولها فى انجلترا حينذاك أحد غير الهمجى) نحو السماء المستوية الغامضة .

وفى الوادى الذى كان يفصل هجزباك عن التل الرملى الذى يقوم فوقه الفنار كانت تقع بتنهام وهى قرية صغيرة متواضعة يبلغ ارتفاعها تسعة طوابق ، وبها أبراج لتجفيف الحشائش ، ومزرعة للدواجن ، ومصنع صغير لفيتامين ء . وفى الجانب الآخر من الفنار ، نحو الجنوب ، كانت الأرض تهبط فى منحدرات فسيحة من نبات الخلنج حتى تبلغ سلسلة من البرك .

وخلف تلك المنحدرات ، وفوق الغابات المتوسطة ، يرتفع برج ألستد ذو الطوابق الأربعة عشر . وهندهد وسلبورن بقتامها فى الجو الانجليزى المكفهر تجذبان العين إلى النظر بعيداً فى الزرقة التى تبعث الخيال . ولم يكن ذلك البعد وحده الذى جذب الهمجى إلى فناره ، فلقد كان القريب مغرياً كالبعيد . كانت الغابات والأراضى الفسيحة الطلقة التى ينمو فيها الخلنج والأشجار الشائكة الصفراء ، وسيقان شجر الشربين الاسكتلندى المبتورة ، والبرك اللامعة وما يعلوها من أشجار البتولا والنيلوفر ، وحقول الحلفاء – كان كل ذلك جميلا ، وكان مذهلا لعين تعودت جدب الصحراء الأمريكية . وكانت هناك فوق ذلك العزلة !

وانقضت أيام كاملة لم ير خلالها انساناً قط . وكان الفنار على بعد ربع ساعة فقط بالطائرة من برج تشيرنج ت . لكن تلول مالي لم تكن أشد وحشة من مروج سَرى هذه . وكانت الجموع التي تترك لندن كل يوم إنما تتركها لتلعب الجولف الكهربي المغطس أو لتلعب التنس . ولم تكن بينهما ملاعب للجولف ، وأقرب ملاعب تنس ريمان لها في جلفورد . فلم يكن هنا ما يجذب العين غير الزهور والمناظر الطبيعية . ولما لم يكن هناك سبب قوى للمجيء فقد كان المكان غير مطروق . وفي الأيام الأولى كان الهمجي يعيش وحده لا يزعجه أحـد .

أنفق جون على معدّاته أكثر المال الذي كان قد تسلمه عند أول قدومه لنفقاته الشخصية . فاشترى قبل أن يغادر لندن أربعة غطاءات من الصوف اللزج ، وحبالا غليظة ودقيقة ، ومسامير ، وغراء ، وبضع آلات ، وكبريت (وإن يكن قد صمم أن يصنع مثاقب نارية في الوقت الملائم) وبضعة أوعية وأوان ، وأربعاً وعشرين ربطة من الحبوب ، وعشرة كيلو جرامات من دقيق القمح (وقد أصر ألا يحمل معـه النشاء الصناعي ، والدقيق المصنوع من فضلات القطن ، حتى إن كان أكثر تغدية) . ولما جاء دور البسكويت المصنوع من مجموعة إفرازات الغدد واللحم البقرى الجديد المشبع بالفيتامينات لم يستطع أن يقاوم إغراء البائع . ونظر الآن إلى العلب فصب على نفسه لوماً كبيراً لضعفه. أنها من مواد المدنية المقوتة ! وصمم ألا يأكلها حتى إن أشرف على الموت من شدة الجوع . وفكر في نفسه وهو ناقم : « أن ذلك سوف يكون درساً لهم » . وسوف يكون درساً له كذلك .

وعدّ ما له . وكان يرجو أن القليل الذى تبقى يكفيه حتى ينقضى

فصل الشتاء . ففي الربيع القادم تنتج حديقته ما يكفى استقلاله عن العالم الخارجي . وحتى آنئذ سيتوفر له الصيد دائماً ، فقد رأى كثيراً من الأرانب وكانت فوق البرك طيور مائية ، وشرع يعمل في الحال كي يصنع قوساً وسهاماً .

وكان إلى جوار الفنار بعض أشجار لسان العصفور ، وغابة بأسرها مليئة بشجيرات البندق المستقيمة الجميلة التي تصلح قنوات للسهام . وبدأ بقطع شجرة صغيرة من أشجار لسان العصفور وفصل ستة أقدام من السوق التي لا تتصل بها فروع ، ونزع عنها قشورها ، واحدة بعد الأخرى حتى ظهر الخشب الأبيض ، كما علمه متسيما العجوز ، حتى استقام له عود يبلغ قامته طولا ، قوى في وسطه الغليظ ، لين سهل الالتواء عند طرفيه الدقيقين . وأعطاه هذا العمل متعة كبيرة . فقد كان يسره كثيراً أن يؤدى عملا يقتضى الصبر والمهارة بعد تلك الأسابيع التي قضاها في لندن خاملا بغير عمل ، كلما أراد شيئاً ضغط على زر أو أدار مقبضاً .

ولما أوشك أن يتم تشذيب العود وتسويته ، أدرك في شئ من الدهشة أنه كان يغنى — نعم يغنى ! وكأنه دخل على نفسه فجأة من الخارج فكشفت ما كانت تعمل وأدركها وهى في حرارة الجريمة . فأحس بخطيئته واحمر خجلا . إنه لم يأت إلى هذا المكان للمتعة والغناء و إنما أتى فراراً من التمادى في الفساد تصيبه به حياة الحضارة القذرة . أتى هنا ليتطهر ويصبح إنساناً طيباً . أتى هنا ليكفر عن أخطائه فوراً . ولشد ما كانت روعته حينما أدرك أنه — وهو منهمك في تسوية القوس — نسى ما أقسم لنفسه أن يذكر دائماً : لندا المسكينة ، وقسوته القاتلة عليها ، وتلك التوائم الكريهة ، وقد تجمعت كالقمل ولندا تفارق الحياة

بصورة غامضة ، تسئ بمحضرها الآلهة أنفسهم كما تسئ إليه وهو فى محنته وتوبته . أقسم أن يذكر ذلك ، وأقسم ألا يكف عن التكفير . وها هو ذا منكب على تسوية قناته وهو منشرح الصدر ، ويغنى ...

فتوارى فى الداخل ، وفتح صندوق الخردل ، ووضع على النار قليلا من الماء يغليه .

وبعد نصف ساعة كان ثلاثة من عمال الأرض من طراز (— ء) من إحدى مجموعات بوتنهام البوكانوفسكية يسوقون سيارة نحو ألستد ، وراعهم أن رأوا على قمة التل شاباً واقفاً خارج الفنار المهجور عارياً حتى خصره ، يضرب نفسه بسوط من الحبال المعقدة ، وعلى ظهره ، خطوط أفقية حمراء ، وبين الخط والخط تسيل خيوط خفيفة من الدم . واتجه سائق السيارة نحو جانب الطريق ثم حدق هو وزميلاه فى ذلك المنظر العجيب وهو فاغر فاه . وأخذوا يعدون الضربات واحدة بعد الأخرى . وبعد الضربة الثامنة قاطع الشاب كفارته وهرع إلى حافة الغابة واستلقى هناك يعانى ألماً ممضاً. ولما انتهى ذلك التقط السوط وبدأ يضرب نفسه من جديد حتى نيفت الضربات على الاثنتى عشرة .

وهمس السائق قائلا : « يالفورد ! » وشاركه الرأى توأماه .

وقالا : يا لفورد !

وبعد ثلاثة أيام جاء المراسلون وكأنهم طيور الباز وهى تهبط على جثة ميتة .

وانتهى الهمجى من إعداد القوس بعد ما جففه وشده فوق نار بطيئة من الخشب الأخضر . ثم أخذ يشتغل باعداد السهام .

وكان قد سوى ثلاثين عوداً من شجر البندق وجففها وركب فى أطرافها مسامير حادة وأعدها إعداداً حسناً لربط حبل القوس فيها . وذات

مساء أغار على حقل بتنهام للدواجن ، وحصل على ريش يكفى لملء مخزن للأسلحة بأسره . وكان يريش سهامه عندما أتاه أول المراسلين . فوقف المراسل خلفه وهو يرتدى حذاءه الهوائى فلم يحدث صوتاً .

قال المراسل : نعم صباحاً أيها الهمجى . أنا مندوب « راديو الساعة » .

فوثب الهمجى على قدميه مذعوراً كأنما لدغته حية ، وبدد السهام والريش وآنية الغراء والفرجون أيدى سبا .

فقال المراسل وقد وخزه ضميره وخزاً شديداً : « عفواً . إنى لم أقصد . . . » ومس قبعته — وهى من الأليومنيم وتشبه أنبوبة الموقد، وكان يحمل فيها جهازه اللاسلكى المستقبل وأداة التحويل ، ثم قال : لا تؤاخذنى لأنى لم أخلع قبعتى فهى ثقيلة نوعاً . كنت أقول لك إنى مندوب « راديو الساعة »...

فسأله الهمجى وهو عابس . قال : « ماذا تريد ؟ » ورد عليه المراسل بابتسامة تنم عن العطف .

ومال برأسه جانباً وداعبه بابتسامته قائلا : « إن قراءنا بالطبع يشوقهم كثيراً أن . . . يسمعوا بضع كلمات عنك أيها الهمجى » .

وفك سلكين مرتبطين ببطارية خفيفة مشدودة إلى خصره على عجل مؤدياً بحركاته سلسلة من الطقوس . ثم وضع السلكين فى آن واحد فى جانبى قبعته الأليومنيمية . ومس زنبركاً فى قمتها فانتشر فى الهواء كقرنى الاستشعار فى الحشرة ، ثم مس زنبركاً آخر فى مؤخرة حافة القبعة ، فقفز إلى الخارج كالصاروخ ميكروفون وبقى معلقاً فى الفضاء يهتز على بعد ست بوصات من أنفه . ثم أرخى على أذنيه سماعتين ، وضغط على زر على الجانب الأيسر من القبعة ، فصدر من الداخل صوت خافت يشبه طنين الدبور . وأدار عقدة على اليمين ، فقاطع

الطنين أزيزُ السماعة وطقطقتها ، وصوت فواق وصرير مباغت . فقال فى الميكرفون : « هلو ، هلو . . . » ورن داخل قبعته أحد الأجراس بغتة : « هل هذا هو أنت يا ادزل ؟ أنا بريمو ملن أتكلم . نعم لقد قبضت عليه . وسيتناول الهمجى الميكرفون الآن ويقول بضع كلمات . أليس كذلك أيها الهمجى ؟ » ورفع بصره نحو الهمجى وعلى شفتيه إحدى تلك الابتسامات الظافرة ، وقال : « أخبر قراءنا لماذا أتيت هنا . ما الذى حدا بك إلى الهجرة من لندن بغتة كما فعلت . (استمع يا مستر ادزل .) وحدثهم بالطبع عن ذلك السوط . » فذعر الهمجى ، وتعجب كيف جاءهم نبأ السوط . ثم قال : نحن جميعاً شديدو الشغف بأن نعرف شيئاً عن السوط . ثم قل لنا شيئاً عن الحضارة . وأنت تعلم ما يقال فى مثل هذه الموضوعات : رأيى فى الفتاة المتمدنة . قل لنا كلمات قلائل جداً . . .

فأطاعه الهمجى حرفياً وهو فى حيرة شديدة . وتفوه بخمس كلمات فقط ، خمس كلمات كتلك التى ذكرها لبرنارد عن كبير منشدى كانتربرى حينما قال : « هانى ! سونز أسو تسينا » . ثم أمسك المراسل من كتفه ودار به عدة دورات (وظهر أن الشاب مدثر دثارا مغرياً) وركله ركلة قوية محكمة كأنه بطل من أبطال المصارعة فى قوته ودقته .

وبعد ثمانى دقائق صدرت طبعة جديدة من « راديو الساعة » وعرضت للجميع فى شوارع لندن . وجاء فى عناوين الصفحة الأولى « الهمجى العجيب يركل مراسل « راديو الساعة » فى العصعص . الهياج فى سَرِى » .

ولما عاد المراسل إلى لندن وقرأ هذه الكلمات قال لنفسه : « الهياج فى لندن ذاتها » . وكان هياجاً مؤلماً . ثم ماذا ؟ لقد جلس يتناول غداءه بحرص شديد .

ولم يرتدع أربعة آخرون من المراسلين يمثلون نيويورك تيمز ، وحوادث فرانكفورت للأبعاد الأربعة ، ومشتشار علم فورد ، ومرآة (ء) ، لم يرتدعوا بما أصاب زميلهم فى العصعص من جرح بليغ ، فتوجهوا عصر ذلك اليوم إلى الفناء واُستقبلوا استقبالا بالغاً فى العنف .

وصاح ممثل « مستشار علم فورد » وهو آمن على بعد ولا يزال يمسح عجزه قائلا : يا لك من أحمق جاهل . لماذا لا تتناول السوما ؟

وهز الهمجى معصمه وقال : أغرب عنى .

فتراجع الآخر بضع خطوات ، ثم التفت ثانية وقال : إن الشر يتلاشى لو تناولت جرامين .

فقال الهمجى : « كوها كوا أيا تتكيا » بنغمة التهديد والازدراء .

— الألم وهم .

قال الهمجى : « نعم إنه . » والتقط عصا رفيعة من شجر البندق وخطا خطوات واسعة إلى الأمام .

وانطلق مندوب « مستشار علم فورد » نحو الطائرة .

وبعدئذ بقى الهمجى آمناً لفترة من الزمن . ثم جاءت بضع طائرات وحلقت حول البرج متطلعة مستكشفة . وأطلق الهمجى سهماً صوّبه نحو أقرب الطائرات وأشدها تطلعاً ، فاخترق قاع الغرفة المصنوع من الأليومنيم . وسمع صياحاً أجش . وانطلقت الطائرة مسرعة إلى أعلى فى الفضاء بأقصى سرعة يستطيع أن يمدها بها محركها الكبير . ولذا فقد حرص الآخرون فيما بعد على أن يحلقوا على بعد كاف . وتجاهل الهمجى طنين الطائرات المزعج ولبث يفلح الأرض التى أراد أن تكون له حديقة . (وقد شبه نفسه فى خياله بأحد خطّاب ماتسكا العذراء ، الذين يثبتون للحشرات ذات الأجنحة ولا يتزعزعون .) ولا شك أن

الحشرات تحل بعد فترة ثم تطير . وبقيت السماء فوق رأسه فارغة ساعات متواصلات ، وساكنة لا تسمع فيها غير صوت القنابر .

وكان الجو حاراً لا يكاد يتنفس المرء فيه . وأرعد الهواء . وقد فلح الحديقة طيلة الصباح ، وكان الآن يستريح . متمطياً فوق الارض ثم مثلت ذكرى لينينا حية أمام ناظريه فجأة . وتصورها عارية تُلمس وهى تقول : « حبيبى ! » وتقول : « طوقنى بذراعيك ! » — وهى معطرة ترتدى الحذاء والجوارب . يا لها من عاهرة وقحة ! ولكنه ذكر ذراعيها تطوق بهما عنقه . وذكر ارتفاع ثدييها ، وذكر فمها ! إن الخلود فى شفاهنا وعيوننا . لينينا . . . كلا ، كلا ، كلا ! ثم نهض على قدميه وخرج من البيت يعدو وهو نصف عار . وكانت عند حافة حقول الخلنج مجموعة من شجيرات العرعر البيضاء . فارتمى عندها ، وعانق ملء ذراعيه من الأشواك الخضراء ، بدلا من أن يعانق الجسم الناعم الذى يشتهيه . ووخزته الأشواك المدببة فى ألف موضع . وحاول أن يتذكر لينينا المسكينة ، وهى منقطعة الأنفاس بكماء ، ويداها مقبوضتان ، وفى عينيها فزع شديد . لندا المسكينة التى أقسم أن يتذكرها وما برحت صورة لندا تلازمه . لينينا التى وعد أن ينساها . وقد أحس بوجودها ، وكانت حقيقة لا مفر منها حتى من خلال طعنات أشواك العرعر ووخزاته التى جعلت لحمه يجفل ويفزع . « ما أحلى هذا ، ما أحلاه . . . وإن أردتنى أيضاً فلماذا . . . »

وكان السوط معلقاً على مسمار بجانب الباب ، قريب المنال إذا جاءه المراسلون . وفى نوبة جنون كر الهمجى عائداً إلى البيت ، وأمسك به ، وأداره فى يده . وآلمت الحبال المعقدة لحمه ألماً شديداً .

وعند كل ضربة كان يصيح : « عاهرة ! عاهرة ! » كأنها لينينا

(وكم كان يتمنى أن تكون ، دون أن يعلم بذلك !) ، كأنها لينينا البيضاء الحارة المعطرة المفضوحة التى كان يلهبها . « يا لها من عاهرة ! » ثم قال بصوت اليائس : أى لندا . سامحينى . أعف عنى يا إلهى . أنا سيئ ، أنا شرير ، أنا . . . كلا ، كلا . أيتها العاهرة ! »

وكان داروين بونابرت أعظم المصورين الخبراء فى شركة الصور المحسة يرقب كل ما كان يجرى من مخبأه فى الغابة الذى أحكم تشييده على بعد ثلثمائة متر . وقد لقى جزاء صبره ومهارته . أنفق ثلاثة أيام جالساً داخل جذع إحدى أشجار البلوط الصناعية ، وثلاث ليال يزحف على بطنه فوق الخلنج ، يخفى الميكروفونات فى الشجيرات الشائكة ، ويدفن الأسلاك فى الرمال الناعمة الرمادية . فقضى اثنين وسبعين ساعة فى تعب شديد . والآن واتته اللحظة الكبرى — كان يحسبها أعظم لحظة فى حياته . وقد طرأت له هذه الفكرة على مهل وهو يتحرك بين آلاته . أعظم لحظة منذ تصويره المجسم لعرس الغورلا — تلك الصورة المجسمة الشهيرة الصارخة . فقال لنفسه عند ما بدأ الهمجى عمله العجيب : « عظيم ، عظيم » . وصوب آلات التصوير المقربة نحوه بعناية ، وجعلها تلازم هدفها المتحرك . وتعلق بقوة كبرى كى يصور وجه الهمجى المعتوه الشائه « يا للعجب ! » وتحرك ببطء نحو نصف دقيقة (وقد تعشم أن يحصل على صورة مثيرة للضحك) . ثم أصغى فى أثناء ذلك للضربات والأنات وللهذيان الوحشى وهى تُسجل فى الشريط الصوتى عند طرف فلمه ، وجرب أثر المبالغة القليلة (وكان ذلك من غير شك تحسيناً ملموساً) . وسره أن يسمع — فى فترة من الهدوء — غناء القنبرة المرتفع . وتمنى أن يلتفت الهمجى حتى يستطيع أن يصور الدماء التى كانت على ظهره — وفى الحال (لحسن

حظه العجيب) جاد الهمجى بالتفاتة واستطاع أن يصوره صورة دقيقة.

ولما انتهى كل شئ قال لنفسه : « كان ذلك أمراً عظيما حقاً ! » ومسح وجهه . وكان يأمل أن تظهر الصور عند عرضها فى دار الصور بمظهر رائع . إنها سوف تبلغ من الجودة — فى رأى داروين بونابرت — « مبلغ حياة الحب عند القيطس » . وتالله إن هذا لنجاح باهر !

وبعد اثنى عشر يوماً أُخرجت قصة « الهمجى فى سَرىٍ » وأمكن للناس رؤيتها وسماعها والاحساس بها فى كل دار ممتازة للصور الحسة فى غرب أوربا .

وكان تأثير فلم داروين بونابرت مباشراً وعظيما . ففى عصر اليوم التالى لاخراجه ، حلقت مجموعة من الطائرات فوق رأس جون فقطعت عليه عزلته الخلوية فجأة .

وكان يفلح حديقته ؛ ويفلح كذلك ذهنه مقلباً مادة فكره بهمة ونشاط . فكر فى الموت ، وهوى بفأسه مرة ثانية ، ثم ثالثة ، ثم رابعة . إن كل أيامنا السوالف قد أنارت للحمقى الطريق التى تؤدى إلى الموت فى التراب . وجلجل الرعد القاصف خلال هذه الكلمات وهى تجول بخاطره . ثم هوى بالفأس فى التراب مرة أخرى . لماذا ماتت لندا ؟ لماذا سُمح لها أن تقل تدريجاً عن الانسان ، وأخيراً . . . لقد ارتعدت فرائصه . إنها جيفة تحسن التقبيل . ثم وضع قدمه فوق الفأس وضغط عليه بشدة فى الأرض القوية . إننا عند الآلهة كالذباب عند الأولاد الطائشين (١) : إنهم يتلهون بقتلنا (١) . ثم قصف الرعد ثانية . إنها كلمات تزعم لنفسها الصدق ، بل أصدق من الصدق . وقد قال جلستر عيشه عن الآلهة إنها رحيمة فى كل حين (١) . وفوق ذلك فان خير

(١) هذه العبارات مقتبسة من شيكسبير .

أوقات الراحة هو النوم ، وذلك ما تدعيه فى أغلب الأحيان ، ومع ذلك فأنت تخشى أشد ما تخشى الموت وهو لا يزيد عن النوم فى شئ . إنه النوم ، وربما مازجه الحلم الجميل (١) . ووقعت فأسه على حجر ، فتوقف عن العمل كى يلتقطه . وتساءل أية أحلام تلك التى فى نوم الموت . . . ؟

وأصبح طنين الطائرات المحلقة فوق رأسه زئيراً . وألفى نفسه فى الظل بغتة ، فقد كان هناك شئ يحول بينه وبين الشمس . ورفع بصره إلى أعلى مذعوراً وتنبه من فلاحته ومن أفكاره . رفع بصره متحيراً مذهولا ، وما برح ذهنه يسبح فى ذلك العالم الآخر الأصدق من الصدق ، وما فتئ مركزاً فى محيط الموت والآلهة الفسيح . رفع بصره فرأى قريباً منه مجموعة الطائرات المحلقة . وقد أقبلت كالجراد ، ثم بقيت معلقة متزنة ، ثم هبطت حوله فوق الخلنج من جميع الجهات . وخرج من بطون هذه الجنادب الضخمة رجال يرتدون الفانلة اللزجة ، ونساء يرتدين البيجامات الحمضية الخفيفة (لأن الجو كان حاراً) أو سراويل المخمل القصيرة ، والقمصان التى بغير أكمام ، نصف المفتوحة . وخرج من كل طائرة زوج . وبعد بضع دقائق تجمع منهم عشرات ، ووقفوا فى حلقة واسعة حول الفنار ، يحملقون ويضحكون ، مطقطقين بآلات التصوير ، يرمون له — كأنه قرد — الفول وحزما من لبان الهرمونات الجنسية وزبد إفرازات الغدد جميعاً . وأخذ عددهم يتزايد كل لحظة ، وتدفق منهم تيار لا ينقطع عبر هجزباك . وأصبحت آحادهم عشرات ، وعشراتهم مئات — وكأنه فى حلم مفزع مريع .

وتراجع الهمجى متخفياً ، ووقف وقفة الحيوان الآمن المطمئن ،

(١) هذه العبارة مقتبسة من شيكسبير .

ظهره مستند إلى الفنار ، ينقل بصره من وجه إلى وجه وهو فى فزع ، لا ينطق بكلمة كأنه رجل فاقد الرشد .

وأيقظه من هذه الغفوة زيادة إحساسه المباشر بالحقيقة عندما التصقت بخده ربطة من اللبان أحكم تصويبها . وقد أذهله الألم فاهتزت له أعصابه ، فتيقظ يقظة شديدة وثار غاضباً .

وصاح قائلا : ابعدوا !

لقد نطق القرد ، فانفجروا ضاحكين مصفقين ، وقالوا : « مرحباً بك أيها الهمجى العزيز » . وسمع صياحهم : « السوط ، السوط ! » من خلال الجلبة واللغط .

وعمل الهمجى بما أوحت به هذه الاشارة فأمسك بطاقة الحبال المعقدة من المسمار الذى كان خلف الباب ، وهزها أمام معذبيه .

وكانت هناك صيحة تدل على الاستحسان التهكمى .

وتقدم نحوهم مهدداً إياهم ، فصاحت إحدى النسوة فى جزع شديد . وتخلخل الصف فى الموضع الذى تعرض للتهديد المباشر ، ثم استقام ثانية ، وثبت الواقفون . وقد اكتسب هؤلاء المتفرجون من إحساسهم بالقوة الساحقة شجاعة لم يتوقعها منهم الهمجى . فذعر ووقف ساكناً ثم تلفت حواليه .

وقال : « لماذا لا تتركوننى وحدى ؟ » وكانت فى غضبه نغمة تنم عن الشكاة .

وقال له الرجل الذى لو تقدم الهمجى لكان أول من يهاجم : « خذ قليلا من اللوز المملح بالمغنزيوم . » وقدم له ربطة قائلا : « إنها فعلا حسنة جداً . » وابتسم ابتسامة استعطا فعصبية . ثم قال : وأملاح المغنزيوم تعينك على الاحتفاظ بالشباب .

وتجاهل الهمجى ما عُرض عليه وسأل قائلا : «ماذا تريدون بى؟» متلفتاً من وجه عابس إلى آخر : ماذا تريدون بى ؟

فأجابه مائة صوت مختلطة : السوط . اعرض علينا كيف تضرب نفسك بالسوط ، ودعنا نشاهدك .

وصاحت شرذمة عند طرف الصف وقالوا بصوت واحد وبنغمة بطيئة ثقيلة : نحن — نريد — السوط .

وأخذ عنهم آخرون هذه الصيحة فى الحال ، وكرروا هذه العبارة كالببغاوات مرة بعد أخرى . وأخذ صوتهم يضخم تدريجاً حتى كان الترديد السابع أو الثامن لم ينطق أحد بكلمة أخرى غير : « نحن — نريد — السوط » .

وكانوا جميعاً يصيحون بصوت واحد . وربما ظلوا كذلك ساعات لا نهاية لها ، وقد أسكرهم الضجيج والاجماع والاحساس بالتفكير الموسيقىّ النغم . وعندما كرروا العبارة للمرة الخامسة والعشرين تقريباً كفوا عن الصياح مذعورين ، ذلك أن طائرة أخرى وصلت من هجزباك ، وحلقت متزنة فوق الجمهور الحاشد ، ثم أسقطت فى الفضاء بين صف المتفرجين والفنار ، على بعد أذرع قليلة من موقف الهمجى . وتلاشى الصياح لحظة وسط زئير اللوالب الهوائية . ولما لمست الطائرة الأرض وأوقفت المحركات انفجر الجميع مرة أخرى بصوت واحد مرتفع مصرين كما كانوا من قبل . قالوا : « نحن — نريد — السوط » .

وفتح باب الطائرة وخرج منها أولا شاب أبيض اللون متورد الوجه وعقبته شابة فى سروال قصير من المخمل وقميص أبيض وقبعة راكب خيل السباق .

وذعر الهمجى لمرأى الشابة وانكمش وشحب لونه .

ووقفت الشابة مبتسمة له ابتسامة تردد والتماس بل وذلة . وانقضت بضع ثوان تحركت بعدها شفتاها ونطقت ببضعة ألفاظ . ولكن صوتها تلاشى وسط صياح المتفرجين المتكرر المرتفع .

— نحن — نريد — السوط ! نحن — نريد — السوط !

وضغطت الشابة بكلتى يديها على جانبها الأيسر ، وظهرت على وجهها الخوخى اللون الذى يشبه فى جماله جمال الدمى ملامح غريبة متناقضة تدل على الغم والاهتمام . وكأن عينيها الزرقاوين قد زادتا اتساعاً وبريقاً . وانحدرت على خديها فجأة دمعتان . وتحدثت مرة أخرى حديثاً غير مسموع . ثم مدت ذراعيها نحو الهمجى بحركة سريعة عاطفية . وتقدمت إلى الأمام .

— نحن نريد — السوط ! نحن — نريد . . .

وأجيبوا فجأة إلى ما طلبوا .

« عاهرة ! » واندفع الهمجى نحوها كالمجنون . « يالك من هرة وحشية . » وشرع كالمجنون يضربها بسوطه المصنوع من الحبال الصغيرة .

فجزعت وأرادت الفرار ، ولكنها تعثرت وسقطت فوق الخلنج . وصاحت : « هنرى ، هنرى ! » . لكن زميلها المتورد كان قد فر من وجه الأذى خلف الطائرة .

وانفرط عقد الصف هاتفين بصيحات تنم عن السرور والاضطراب . وخطوا جميعاً متجمعين فى نقطة واحدة كأن مركزاً مغناطيسياً يجذبهم . لقد كان الألم فزعاً يأخذ الألباب .

وجن الهمجى وضرب بسوطه ثانية وهو يقول : يالك من عاهرة فاجرة !

وتجمعوا مشغوفين ، وهم يتدافعون و يزحفون كأنهم الخنازير حول حوض العلف .

وضغط الهمجى على أسنانه وقال : « تباً لحم ! اقتله ، اقتله ! » ونزل السوط على منكبيه هذه المرة .

وجذب المشاهدين الجزع من الألم الذى يأخذ بالألباب ، ودفعتهم من الباطن عادة التعاون والشغف بالاجماع والتكفير الذى ثبتته فى نفوسهم ثبوتاً ملازماً طريقة تكييفهم . فبدأوا يقلدون حركاته الجنونية ، يضرب أحدهم الآخر كما ضرب الهمجى بدنه العاصى أو ذلك الجسم البدين الذى يتجسد فيه الدنس ، والذى كان يتلوى فوق الخلنج عند قدميه .

واستمر الهمجى يصيح : أقتله ، أقتله . . .

ثم بدأ أحد الأشخاص فجأة يغنى : « شولم ، شولم . » وبعد لحظة ردد الجميع هذه العبارة ، وبدأوا يرقصون وهم يغنون ولبثوا يدورون دورة بعد أخرى مرددين : « شولم ، شولم . » يضرب أحدهم الآخر ضربات موزونة . « شولم ، شولم . »

ولم ترحل آخر طائرة إلا بعد منتصف الليل . واستلقى الهمجى فوق الخلنج ونام بعد ما أذهلته السوما وأنهكه الانهماك الطويل فى جنون المتع الحسية . ولم يستيقظ إلا بعدما ارتفعت الشمس فى السماء فاستلقى لحظة يطرف بصره فى الضوء وكأنه بومة لا يفقه شيئاً . ثم تذكر فجأة كل شئ .

فستر عينيه بيده وقال : إلهى ، إلهى !

كان سرب الطائرات التى جاءت تئز عبر هجزباك ذلك المساء كالسحابة المظلمة ، يمتد على طول عشرة كيلومترات . وذكرت الصحف جميعاً وصف صلاة التكفير التى تمت فى المساء السابق .

ونادى الأشخاص الذين وصلوا أولا وهم ينزلون من الطائرة قائلين : أيها الهمجى ! أيها الهمجى !

ولم يظفروا بجواب .

وكان باب الفنار على مصراعيه . فاقتحموه ودخلوا فى ضوء كالشفق تحجبه النوافذ . واستطاعوا من خلال قبو فى الجانب الآخر من الغرفة أن يروا قاع سلم يؤدى إلى الطوابق العليا . وتحت قمة القبو تماماً تدلت قدمان .

— أيها الهمجى .

واتجهت القدمان ببطء شديد جداً — كأنهما إبرتا بوصلة تسيران على مهل — يميناً ، فشمالا ، فناحية الشمال الشرقى ، فشرقاً فناحية الجنوب الشرقى ، فجنوباً ، فناحية الجنوب الغربى . ثم توقفتا . وبعد بضع ثوان اتجهتا عائدتين على مهل كذلك يساراً ، ثم إلى ناحية الجنوب الغربى ، فالجنوب ، فالجنوب الشرقى ، فالشرق . . .

مطبعة الكاتب المصري شركة مساهمة مصرية